

المشروع القومى للترجمة

المركز القومى للترجمة

0 01352 71860 01352 05 186

روجر روزنبلات

ثقافة الاستهلاك

الاستهلاك والحضارة والسعى وراء السعادة

1833



ترجمة: ليلى عبد الرازق

ثقافة الاستهلاك

الاستهلاك والحضارة، والسعي وراء السعادة

المركز القومى للترجمة
إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1833
- ثقافة الاستهلاك: الاستهلاك والحضارة، والسعى وراء السعادة
- روجر روزنبلات
- ليلى عبد الرازق
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

Consuming Desires:

Consumption, Culture and the Pursuit of Happiness

Edited by: Roger Rosenblatt

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤– ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel.: 27354524 – 27354526 Fax: 27354554

ثقافة الاستهلاك

الاستهلاك والحضارة

والسعى وراء السعادة

تحريـــــــــر: روجر روزنبلات

ترجمـــــــة: ليلى عبد الرازق



2011

ثقافة الاستهلاك: الاستهلاك والحضارة والسعى وراء السعادة/ تحرير: روجر روز نبلات؛ ترجمة: ليلى عبد الرازق. ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١١.

٢٤٨ ص؛ ٢٤سم. ـ (المشروع القومى للترجمة)

تدمك ٥ ٩٠٨ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨

١ ـ الاستهلاك ـ أخلاقيات.

أ ـ روز نبلات، روجر. (محرر)

ب ـ عبد الرازق، ليلى. (مترجم)

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٥٧/ ٢٠١١

I. S. B. N 978 - 977 - 421 -908 -5

ديوى ١٧٨

المحتويات

مقدمة

بقلم: روجر روزنبلات

آخرج كومة من القمصان وبدأ يلقى بهم واحدًا تلو الآخر أمامنا، قمصان من الكتان الخالص، والحرير السميك، ومن النسيج الصوفى الرقيق، التى فقدت طياتها وهى تسقط لتغطى الطاولة فى فوضى من الألوان الكثيرة. وبينما كنا نبدى إعجابنا بها، كان هو يجلب المزيد. وارتفعت الكومة الناعمة الفخمة عاليًا ـ قمصان ذات خطوط، وزخارف، ونقوش، بالألوان المرجانى، والأخضر التفاحى، والأرجوانى، والبرتقالى الفاتح. وفجأة، وبصوت متوتر، وضعت ديزى رأسها بين القمصان وبدأت تبكى فى ثورة عارمة.

قالت بغصة بصوت مكتوم فى الطيات السميكة، وهى تبكى: "إنها قمصان رائعة الجمال، وما يحزننى أننى لم أر مثل هذه القمصان الجميلة من قبل".

إف. سكوت فيتزجيرالد، جاتسبى العظيم

F.Scott Fitzgerald, The Great Gatsby

لم يأخذ هذا المشهد من جاتسبى العظيم إلا بالكاد دقيقة، وفيه يشاهد ديزى ونيك كاراوى مضيفهم وهو يضع أكوامًا من القمصان المثيرة للإعجاب على الطاولة أمامهم، لكن يعتبر هذا المشهد، فى كثير من الجوانب ، مركز الكتاب، القلب المؤلم والضخم للشهية الأمريكية الجشعة.

يقول جاتسبى لضيفيه إنه لا يشترى القمصان بنفسه؛ فهناك "رجل فى إنجلترا" يرسل له مختارات من الملابس فى بداية كل فصل ربيع وخريف. تأتى

القمصان فى كل موسم بوفرة رائعة، فى جميع الألوان، والتصميمات، والأقمشة، وهى ذات تكلفة عالية - عدد كبير من القمصان، أكثر، كما نتصور، من التى يستطيع أى رجل أن يرتدى فى فترة حياته، ومع ذلك فإنها لا تكفى أبدًا. لماذا بكت ديزى بتشنج عندما رأت هذه القمصان؟ لأن، مما لاشك فيه، أن لديها شهوة ساذجة للأشياء. لكن أيضًا، قد يشك المرء، أنه، بما أن القمصان جميلة ووفيرة، فيمكن ألا يكون هناك عدد كاف منها لإرضاء رغبتها، الذى يعلم الله وحده رغبتها لماذا. و رغبات ديزى بسيطة للغاية بالمقارنة برغبات جاتسبى نفسه، الذى يملؤه كل الحنين، وكل الشوق لأشياء مثل القمصان، أو مثل ديزى، وهو ما يعتقد أنه يكمن فيها سر السعادة الأمريكية.

أن تمتلك أو لا تمتلك، هذا هو جوهر النزعة الاستهلاكية فى أمريكا، ومحرك الرأسمالية الغربية - أن تمر بلحظة يوصلك فيها الحصول على ما يسميه جورج كارلين George Carlin "أشياء" إلى نوبة من البكاء لأن هذا "الشىء"، ومهمة الحصول عليه تُذكرك بالأشياء التى ليست لديك، أو تلك التى لم تحصل عليها بعد. إن التشويق الذى تعيشه فى الحاضر يجرك إلى ما كنت ترغب فيه فى الماضى، ثم يدفعك بعد ذلك إلى الدعاء أن يتحقق فى المستقبل. فالأشياء موجودة وغير موجودة.

إنه أساس غريب لأى حضارة، ولكنه أساس فعال. إن ٩٠٪ من قوة العمل الأمريكية هى، بشكل مباشر أو غير مباشر، فى الأعمال التجارية لإنتاج السلع الاستهلاكية، والخدمات. وتشكل المنتجات الاستهلاكية ما نحن عليه. وتؤدى إلى تكوين معظم دخل البلاد والعمل. تسافر هذه المنتجات إلى بلاد لديها أقل، أو لا شىء من هذه المنتجات الكثيرة، وتأتى معها الرغبة فى الحصول على المزيد، حتى تصبح هذه البلاد فى يوم ما تجد نفسها أيضًا، عن طريق الشراء والإنفاق، تمتلك أو لا تمتلك.

إذًا فليس الأمر أن دافع الامتلاك هو بدون مزايا، ولا لأن العمل به يصاحبه الندم، أو إعادة النظر من الناحية المعنوية. فى أمريكا إعادة النظر المعنوى هو جزء من العملية الاستهلاكية. نحن لا نعرف فقط كيف نمتلك أو لا نمتلك؛ بل

نعرف أيضًا كيف يكون ذلك فى الاتجاهين، فيما يتعلق بالآثار الأخلاقية للشهية المفرطة. فى كل عصر، خاصة عصر مثل عصرنا هذا، من الازدهار الاقتصادى، يقوم هؤلاء الذين يتبنون وجهه نظر لوم المستهلك، بتقديم الشعور بالذنب كمسكن للألم.

فى منتصف عام ١٨٠٠، وجه لنا كل من رالف والدو إمرسون Ralph Waldo Emerson، وهنرى ديفيد ثورو Henry David Thoreau لومًا رقيقًا. وقدم الاقتصادى الأمريكى ثورستين فيبلن Thorstein Veblen اسمًا "لاستهلاكنا الواضح" وألقى باللوم على "ثقافتنا المفترسة"[١] وفى الآونة الأخيرة، فى فبراير عام ١٩٩٨، حذرت هيلارى رودهام كلينتون Hilary Rodham Clinton، فى المنتدى الاقتصادى العالمى فى ديفوس، بسويسرا من أن "الرأسمالية الاستهلاكية" تقوض "هذا النوع من آخلاقيات العمل، وتؤجل الإشباع... المرتبط تاريخيًا بالرأسمالية[٢]. وهى ليست محقة بشأن التاريخ، ولكنها جزء من تقليد طويل للغاية من الاتهامات الذاتية لكل من جعل أمريكا تعمل، والذى من أجله تعتذر.

وحتى تعبيراتنا عن الندم لها تأثير ذو حدين. نحن نتحدث عن "الإفلاس الأخلاقى" و "الفقر العاطفى" عندما ننتقد ثقافة الإسراف فى الإنفاق، كما لو أن مسائل الروح، مثل السلع الأخرى، يتم فهمها بشكل أفضل باستخدام مصطلحات مالية. وتكشف لنا اللغة أننا نعنى اعتذارنا وأننا لا نعنيه. وكيف يمكن أن يكون خلاف ذلك؟ فأمريكا لم تتحول إلى أقوى حضارة فى التاريخ بالتخلى عن السلع المادية.

ومع ذلك، بعد إبداء الاعتذار وقبول المبررات، فإن ما يدفع النظام هو التناوب الدائم والمستمر بين التملك والتطلع، والذى فى رأيى، يجعلنا فى حالة مستمرة من عدم السعادة، سواء كنا نشعر بذلك أم لا، حالة نحن فى الواقع نسعى إليها. إن حالة عدم الامتلاك تقدم حدًا، شيئًا قد نصل إليه، أو لا نصل إليه. وعندما نفذت منا الحدود الحقيقية، جعلنا الحد أشياء أخرى لا تُمتلك. أصبحت الثقافات الغربية الأخرى غنية، لكن يبدو أنها كانت قانعة بهذا الغنى؛ وتستقر عندما تصل إلى الحد الأعلى. لكن ليس هذا هو حالنا نحن. فلنقارن مشهدًا

آدبيًا مختصرًا آخر مع مشهد تناثر القمصان مع جاتسبى. فى رجل من ذوى الأملاك A Man of property لجون جالسورثى John Galsworthy، يكاد البطل سوزين، ينفجر من التفاخر بثريا من قطع الزجاج الرائعة معلقة فى غرفة الطعام، لأنها تجبر الآخرين على النظر إليها على أنه رجل ثرى "استحق سعادة مستقرة وطويلة الأمد"(٣) وفى رواية آوليفر تويست Oliver Twist لشارلز لديكينزCharles Dickems كلمة، "مزيد" تعنى مجرد كمية كافية.

هذا لا يعنى أن بريطانيا، أو أى دولة غربية أخرى، قد حققت درجة عالية من الوجود الأخلاقى لأنها تعلمت أن تقتنع أكثر بمشترياتها. إذا كانت أمريكا هى الحضارة الأكثر استهلاكًا، فقد كانت أيضًا الأكثر سخاءً. لكن مشكلة إشباع الشهية، أو عدم إشباعها، تبدو أنها مشكلة خاصة بنا، والأمر يزداد سوءًا؛ فالرفاهية تعتبر من الضروريات.

لمصمم الأزياء ناعيم ماركوس Neim Marktus كتالوج ملابس، وعطور، أطلق عليه عنوان أساسيات. وتبيع هماشر شليمر Hammacher Schlemmer الفيل الصغير اللعبة بسعر ٢٤٩,٩٥ دولارًا، وهو يقوم برش الماء من خلال خرطومه المغطى بالطحالب. وتتراكم كتالوجات تبيع كل شىء، من المجوهرات إلى بطانيات الكلاب، على أبواب المساكن، أو فى صناديق البريد، كما لم يحدث من قبل، وذلك بفضل البيع بالدين الذى تقدمه شركات بطاقات الائتمان. وتقام مراكز التسوق الفورية فى كل قرية، وفى المدن الكبيرة. يمتلئ الحى الذى أسكن فيه فى وسط منهاتن بمدينة نيويورك، بشقق سكنية جديدة، مشيدة فوق متاجر تحمل أسماء مألوفة. فهناك متجر أحذية رياضية، ومتجر أثاث، ومكتب لمروجى أغذية وخبرائها، وبنوك بها آلات صراف آلى.

هناك أشياء للبيع لم تكن للبيع من قبل. فلا يمكننى مشاهدة مباراة كرة السلة للدورى الأمريكى للمحترفين على شاشة التليفزيون، دون مشاهدة إعلانات مختلف المنتجات التى وضعت على جوانب الملعب، أو من دون أن يُبلغنا أحد المعلقين أن الشخص الذى يمرر تمريرًا جيدًا فى المباراة، هو مسئول عن شركة الاتصالات العظيمة إيه تى أند تى AT &T. وأن شركة شيرون ويليامز لصناعة

دهانات دتش بوى، تقوم برعاية المباراة، وآن المباراة منقولة تليفزيونيًا عبر شركة "ماريوت ماركيز سكاى كام".

والسياسة أيضًا للبيع ولكن ليست بالطرق الواضحة التى تقترحها الحملات الانتخابية. يتم بيع المنصب السياسى من خلال استطلاعات الرأى العام، والتى حولت أفكار مجموعة مختارة من السكان إلى سلعة متاحة للمرشحين. ويعتمد بيع أى رئيس دولة هذه الأيام، على نوعية الرأى العام الذى يشتريه، وكما هو الحال فى أى وضع مماثل فى السوق التجارى، فيفوز الرأى العام الأفضل بيعًا، رغم آنه ليس بالضرورة أن يكون هو الأفضل.

فى خلال الأسبوع الذى كتبت فيه هذه المقدمة، تزوج رجل من مدينة مينيابوليس من امرأة كان قد التقى بها قبل يوم واحد فقط، والتى تسوقها من بين مئات المتنافسات. قال الرجل إنه قد حدد موعدًا، فى ١٣ يونيو١٩٩٨، ووعد عائلته أنه سيتزوج فيه. ومع اقتراب الموعد، أعلن عن طلب عروس على شبكة الإنترنت، وغيرها، وجعل مجموعة من الأصدقاء بمثابة مشترين، لإجراء المقابلات الشخصية مع المرشحات وفحصهن، كما يفحص الشخص السيارات واللحوم. وكانت "العروس الفائزة" مستعدة تمامًا أن تستمر فى هذه المهزلة (هى طالبة صيدلة فى جامعة مينيسوتا)، وكذلك كانت جميع المرشحات الأخريات. باختصار، كان كل واحد من هؤلاء الشباب المتعلم سعيدًا بأن يتعامل مع الزواج كصفقة بيع. وإذا كان العريس يبحث فى السوق عن زوجة، فليس من المستغرب أن تقام مراسم حفل الزفاف فى مول "أمريكا".

أصبح المواطنون العاديون، مثل المنفقين الكبار فى الماضى، يذهبون فى سعى يائس وراء أشياء جديدة يشترونها ويتطلعون إليها. اعتاد الأمريكيون أن يسلوا أنفسهم من خلال التندر بالأفعال المسرفة والمبذرة للأغنياء - إن قاعة كومودور كورنيليس فاندربيلت هى نسخة من قاعة فرساى، على سبيل المثال، أو قاعة بلياردو الشخص الفلانى هى من الرخام الأخضر، وسياجه من الحديد المطلى الذى يتكلف مجرد دهانه ٥٠٠٠ دولار فى عام ١٩٢٠. أو أن بوتر بالمر، مليونير شيكاغو، وصاحب متاجر وفندق، قد اشترى لزوجته، بيرتا مجوهرات كثيرة من

الماس، لدرجة أنها عندما كانت تلبسها جميعًا فى وقت واحد، لا تستطيع الوقوف بشكل مستقيم. كما بنى ويليام راندولف هيرست قرية كاملة على النمط الباڤارى، لأنه شعر برغبة فى ذلك. اعتاد الناس السخرية من هذا النوع من السلوك، لأنهم، إلى حد ما، يحسدون أصحاب هذا السلوك. لكن فى تلك الأيام، كان كل شخص يعتقد أنه يمكن أن يكون مليونيرًا، وكان سوق الأوراق المالية يمد كثيرًا من الناس بالمال بشكل جيد. لماذا تسخر من الأغنياء بينما يمكنك الانضمام إليهم؟

ومع ذلك، مع كل عملية شراء، تكون هناك دائمًا بعض المشتريات بعيدة المنال. ولعل النزعة الاستهلاكية الأمريكية، هى انعكاس للحنين إلى مستحيل آخر من أحد مستحيلات النظام الجمهورى - المساواة، على سبيل المثال. والقول أننا شعب الحنين إلى المستحيل، ليس تبريرًا لزيادة الاستهلاك، لكن مجرد الإشارة إلى مشكلة، تكتسب هذه المشكلة أهمية بشكل سريع وملح، مثل الاقتصاد. وعندما تنفذ الأشياء التى كنا نحن إلى امتلاكها وذلك بامتلاكها، هل سنفقد أيضًا الأشياء التى نرغب فيها؟ أم هل يكون قد فات الأوان لإنقاذ أنفسنا من دافع الامتلاك، إلى جانب إنقاذ بقية العالم الذى لوثناه؟ وإذا استخدمنا مصطلح "أزمة الانقراض السادس الكبرى"، التى تشير إليها ستيفانى ميلز Stephany Mills فى مقالها فى هذا المجلد، هل سنؤكد فى النهاية هيمنتنا كنوع، وذلك بقتل جميع الكائنات الأخرى، وأنفسنا أيضًا؟

ومقال ميلز، والمقالات الأخرى فى هذا الكتاب، متدرجة ومعقدة. ولا أقصد هنا التقليل من تعقيدها عندما أذكر فكرتين أعتبرهما رئيستين بالنسبة لجميع المقالات. ترتكز الفكرتان فى الأشكال الغربية للديمقراطية وفى الرأسمالية الغربية. لكليهما علاقة بعلم النفس الغربى، ولكليهما علاقة بالامتلاك، أو عدم الامتلاك.

وتتعلق الفكرة الأولى برغبة الاستهلاك. وتشير مولى هاسكل Molly Haskell فى مقالها "الأفلام وبيع الرغبة "Movies and the Selling of Desire، إلى فكرة فرويد: أن الناس فى حالة دائمة، وغالبًا مأساوية، من الحنين، من لحظة الانفصال عن الأم. كما يكتب إدوارد إن. لوتفاك Edward N. Luttwak، عن

الحنين، أو الرغبة، فى مقاله "الاستهلاك من أجل الحب" Consuming for Love، الذى يجعل أفقر الأمريكيين، الذين ليست لديهم مدخرات، ودخولهم صغيرة، يقترضون حتى الموت. والحنين، أو الرغبة تدفع للاستهلاك. وهناك طريقة واحدة للبدء فى فهم هذا الدافع الواسع، والممتع، والمؤلم، وأخيرًا المدمر، وهو أن نفهم ببساطة أن لدينا رغبة.

وتأتى كلمة الرغبة بشكل منتظم فى هذه المقالات. تكتب هاسكل Haskell عن كيف أن الأفلام بدأت من خلال بيع بعض الصور من النمط الذى يشبع أكثر نوعية الحياة التى يتطلع لها الفرد، ويشبع بها الذات. ويرى لوتفاك Luttwak الاستهلاك نوعًا من الإدمان بديلا عن رعاية الأسرة. وتناقش جوليت شور Juliet Schor، فى مقالها "ما هو الخطأ فى المجتمع الاستهلاكى؟" "What's Wrong with the Consumer Society" "فجوة الطموح" التى لها علاقة بعبء الإرادة الحرة. ويصف ليكس كوتلقيتز Alex Kolowitz فى مقاله "روابط زائفة" False Relations، مراهقى الأحياء الفقيرة فى المدن الذين يحاكون نظراءهم فى الضواحى، والعكس صحيح، وهذا بوصفه نوعًا من الاستهلاك العاطفى التعويضى. ويقول بيل ماككيبان Bill McKibban، فى مقاله استهلاك الطبيعة Consuming Natue، أنه "بالنسبة لنا كأمريكيين، كل الأشياء تدور... حول الرغبات". وتسمى ميلز النزعة الاستهلاكية "بمجاعة الروح". ويشير ويليام جريدرWilliam Greider فى مقاله "عالم واحد من المستهلكين" One World of Consumers"، إلى نموذج الحزن الأمريكى الخاص الذى ينتج عن أغراض، وآثارها الرأسمالية، أى، جعل حالة إشباع الرغبة الاستهلاكية شيئًا بعيد المنال.

الفكرة الثانية التى تقوم عليها هذه المقالات، هى المفهوم الغربى للذات، خاصة الذات المنعزلة، والذات القلقة. ويلاحظ جريدرGreider، أن العالم سيظل واقعًا فى مأزق سياسى عميق، فيما يخص المسألة البيئية، إلى أن نتعلم نحن الأمريكيين أن ننحى جانبًا الاستقامة الذاتية الفارغة، ونقبل العبء الكامل لموقفنا التاريخى" بما يعنى إعطاء الذات قوة مبالغًا فيها بالإضافة إلى "التفوق". ومع محاكاة المجتمعات السكانية الشرقية للنزعة الاستهلاكية الغربية، فمن المخيف أن نفكر

أنه يمكن أن تنمو بذور هذا التأكيد على الإشباع الفردى المطلق للرغبة الاستهلاكية، وتصيب الثقافات التى توجهها النفسى هو توجه أكثر للعمل معًا والعمل بما لدى الفرد.

النزعة الفردية والرغبة. بعد ذلك، هى ما تجعلنا كبارًا أو ما تجعلنا صغارًا. والحرية هى حلمنا وعدونا. وتتناول المقالات هذه المتناقضات. وعلى الرغم من أنها جميعًا دقيقة ورشيقة جدًا، فإنها تقدم لنا فكرة عما يعنيه الإصلاح، حيثما كان ممكنا، وفى بعض الحالات، حيث قد لا يكون مرغوبًا فيه خلافًا لما يبدو.

يوضح أندريه شيفرين Andre Schiffrin فى بعض كتاباته عن استهلاك الأدب فى مقاله "عندما نقرأ الكتب بنهم When we Devoured Books، إن خيارًا واسعًا من الأعمال الجادة، التى كانت متاحة بشكل كبير، وتُقرأ على نطاق واسع فى القرن التاسع عشر، أصبح هناك الآن صعوبة فى العثور عليها. ويقول إنه فى السنوات التى أعقبت الحرب العالمية الثانية، "لم يفصل المحررون فى واحد من أضخم دور نشر الكتب ذات الغلاف الورقى، "القراء إلى جمهور النخبة والجماهير العامة التى يجب إرضاؤها"؛ كان قلقهم الأساسى هو "كيف يقدمون أعمالاً جديدة وبارعة جدًا لجمهور كبير". وكان استيلاء مديرى شركات نيو هاوس على دار راندم هاوس للنشر أول إشارة إلى أن القيم الثقافية والفكرية يتم استبدالها بقيم السوق، وأصبحت الشركات العائلية شركات قابضة أكبر. وبينما كان النمو البطىء للشركة ككل يحتل الاهتمام الأول، أصبحت الآن الأرباح السنوية هى التى تأتى فى المقام الأول، وهو تحول فى الأولويات للضغط على الناشرين أساسًا، لجعل مبيعاتهم من خمسة أرقام. والنظام المنطقى الذى جاء فى موضعه فى الصناعة "أصبح نوعًا من القناع الحديدى الذى يسمح بتنوعات بسيطة جدًا". وانقسمت القطاعات، داخل دور النشر، إلى "مراكز ربح" و "تدريجيًا، وضعت الضغوط لكى يقوم كل كتاب بتحمل تكلفته ". ويجسد البيع الذى جدث مؤخرًا لراندم هاوس لمؤسسات خارجية، اكتمال العملية السلعية.

ويقول شيفرين Schiffrin إن الكتب قد أصبحت مثل "البضائع الجافة على الأرفف.". ويذكر "إن اتخاذ قرار بشأن كتاب... يتم الآن بشكل أساسى وفقًا

لأبسط المعايير... والسؤال ليس هو هل هذا الكتاب شيق أو مهم، ولكن السؤال هل هو تجارى أو شعبى؟" ويحذر شيفرين Schiffrin من أن الخطر الأكبر هنا هو التفكير الحر والأفكار، بما فى ذلك الأفكار الهدامة. وإذا تنافست الكتب، شأنها شأن غيرها من السلع، فسيكون الفوز لتلك الكتب المناسبة أكثر، والأرخص. ويبقى أن نرى ما إذا كان سيتم نقل الأفكار الجديدة للمجتمع الأمريكى، حيث لم يعد الناشرون الكبار يلعبون دورًا حاسمًا فى "نشر أفكار جديدة لأكبر جمهور ممكن".

ومع ذلك، يفقد الجمهور أيضًا فى هذه الصفقة، الأمن لأنه يقوم بالشراء حتى يصل إلى حد الخطر والوقوع فى براثن الفقر. ويدعى إدوارد لوتفاك Edward Luttwak فى مقالة "الاستهلاك من أجل الحب"Consuming for Love، أن التغييرات الهيكلية فى المجتمع الأمريكى، وعدم الأمان الاقتصادى الشخصى المصاحب، الذى نجم عن كفاءة عالية "للرأسمالية فائقة السرعة" قد أسفرت اليوم عن أنواع لم تتكيف مع العيش بدون "عناق"، تأكيدًا لروح الأسرة الممتدة. وهكذا، فإن "معظم الأمريكيين محرومون عاطفيًا، ويعانون من الفقر فى علاقاتهم الأسرية، تمامًا مثل ما يعانى الأفغان والسودانيون، من الفقر من الناحية المادية. وكبديل، ووسيلة للتأقلم مع الغضب، والشعور بعدم الأمان الناتج، يشترى الجميع لأنفسهم، ما عدا (يا للسخرية!) أفقر٢٠٪ من الأسر الأمريكية، هدايا عديمة الفائدة بمبالغ هائلة، ولا يدخرون إلا أقل القليل و"يقترضون مقابل التنازل عن جميع المصادر الممكنة." وهذا يخلق تناقضًا وحلقة مفرغة شريرة، يُضحى الذين داخلها "بحريتهم الشخصية، وبالحياة العائلية، لمجرد أن يستهلكوا أكثر".

تكتب مولى هاسكل Molly Haskell فى مقالها "الأفلام وبيع الرغبة"، أن الأفلام التى هى أقوى وسيلة ثقافية لدينا، تحرض على هذا الاتجاه، وأنه مثلما كان أقطاب السينما فى وقت ما يلعبون على رغبة المهاجرين المحرومين الذين يرغبون فى محاكاة دبابير طبقة النخبة، تحاول السينما الآن إغراء "كتلة القاسم المشترك الأدنى الذين لم ينالوا إلا حظًا قليلاً من التعليم، ولديهم الحد الأقصى

من الانطباعية والقدرة الشرائية ـ المراهقون الأمريكيون، وجمهور عالمى من مشجعى أفلام الحركة والإثارة." منذ بدايتها، خلقت السينما "النزعة استهلاكية" وذلك بمخاطبة احتياجات اللاوعى والرغبات. ما بدأ على أنه قوى موحدة، ونزعة الاستهلاكية، وأفلام ـ فى نمط الرأسمالية نفسها" ـ تحول إلى آلة من الحركة والتغيير." أصبح النظر والشراء متشابكين مثل "فكرة المظهر... أصبح بالتدريج مفهوم أهمية المظهر، أقل ارتباطًا بالشخصية والسمعة، لأنه أصبح ببساطة، أكثر ارتباطًا بمفهوم أن تبدو فقط حسن المظهر.

وحتى السبعينيات، كان المشاهد، أو المستهلك المثالى هو المرأة، وكانت مهمتها الأساسية هى أن تجعل من نفسها مادة للرغبة، و"الغلاف الخارجى"، كناية عن الجمال الداخلى. و"لعبت الأفلام دورًا تقدميًا، ومحافظًا فى الوقت نفسه وذلك توفير منفذ ولغة للتعبير عن الطموح، وبذلك تكون هذه الأفلام ديمقراطية فى ندائها الشعبى، تقليدية فى قبولها الوضع الراهن، ومتناقضة فى الصراع المدمج، والمستمر الدائر بين النخبة (النجوم) والقصة. وكما أن أفلام جيمس بوند تصور البراعة والاتجاهات الاستهلاكية لأواخر القرن العشرين، تعكس السينما، وتخلق فى الوقت نفسه، الظروف الاجتماعية، لكن سحرها الخاص يكمن فى تقديم الخيال فى هيئة واقع افتراضى، الذى هو عالم يستهلك فيه الناس بدون هذا الملل الذى يصاحب العمل.

على الدرب نفسه، تفسر جوليت شور Juliet Schor فى مقالها "ما الخطأ فى المجتمع الاستهلاكى؟" What's Wrong with Consumer Society "النزعة الاستهلاكية الجديدة" والتى فيها يُغذى "الاستهلاك التنافسى" نظام الفوارق الطبقية الواسعة، حيث يتطلع الناس إلى مستوى الاستهلاك الذى حققه الآخرون. يركز النظام على بضائع ذات أسماء تجارية، بوصفها بديلا من بدائل أكثر فائدة، مثل وقت الفراغ، أو الادخار. " أصبح الآن ما ترتدى، وما لا ترتدى يحدد من أنت، والمكان الذى تحتله على الخريطة الاجتماعية." وحيث إن اللقاءات وجها لوجه قد حلت محلها قضاء ساعات أمام جهاز التليفزيون (الذى يقدم صورة الانحراف فى أنماط الإنفاق)، واتسعت الفجوة بين ما يرغب فيه الناس،

وبين دخلهم الفعلى ("فجوة الطموح")، "بقدر، هو حاليًا، أكثر من ضعف متوسط دخل الأسرة." وتقول شور "سنتجه. بالتجربة، نحو "فشل عميق فى قلب الاقتصاد العالمى"، إذا لم يتمكن البشر من السيطرة على أنفسهم بشكل كاف، فى مجتمع استهلاكى غير مقيد.

وتقول جين سمايلىJane Smiley: "كل شىء يبدأ من العمل المنزلى، وتعكس الطريقة التى نعيش بها حياتنا اليوم، ما طمح أسلافنا فى الابتعاد عنه"، وترتبط بقوة بالحركة النسائية، والنزعة الاستهلاكية لأنها، تماشيًا مع المثل العليا الأمريكية للحرية والفردية، قد استجابت الرأسمالية لاستعباد المرأة فى القرن التاسع عشر من القيام بالعمل المنزلى (الطهى الخطير، والعناية المستمرة بإشعال النار، ونقل المياه، ناهيك عن التنظيف، وغسل كميات ضخمة من الملابس، ورعاية الأطفال)، وذلك لابتكار الأجهزة المنزلية، والكهرباء، ومحلات السوبر ماركت، والسيارات، والمدارس، والهواتف، والمياه الجارية - مستوى من الاستهلاك المكلف يصعب على النساء الأمريكيات الآن التخلى عنه. "وهنالك الكثير من الكلام عن فراغ الحياة الحديثة، لكن إذا فكرت فى تفريغ أوانى غرفة أسرة مكونة من سبعة أو ثمانية أفراد كل يوم لبقية حياتك، وفكرت فى سؤال شخص آخر القيام بذلك، وفكرت فى انكماش واجباتك وعدم القيام بها."، فسوف تغير هذه الفكرة. ولكن سكان العالم البالغ عددهم خمسة بليون شخص أو أكثر، لا يمكن أن يعيشوا بالطريقة التى يتطلع الأمريكيون للعيش فيها". وتسأل سمايلى كيف سنبقى على قيد الحياة جميعًا؟ نحن فى حاجة إلى شكل جديد من الرأسمالية - فى الواقع، مجتمع جديد - لمواجهة هذه الأزمة.

كتب أليكس كوتلوفيتز Alex Kotlowitz يقول إننا بحاجة إلى الابتعاد عن إقامة "ارتباطات زائفة". فبصفتهم مستهلكين لسلع معينة مكلفة، وذات أسماء تجارية، يعيش أطفال أحياء المدينة الفقيرة المنعزلين اجتماعيًا وروحيًا، ويشاركون عالم السكان البيض فى ضواحى، الآمن، والمزدهر. وشركات مثل شركة نايك للأحذية (وحتى صناع أحذية هاش بابيز الآن يعيدون التصميم فى ألوان مبهرة يقول لسان حالها "يجب أن تنظر إلى")، يوجهون إعلاناتهم لهؤلاء الصبية، الذين

بصفتهم مستهلكين "للأزياء"، يشعرون بالارتياح بهذا القدر الضئيل من التحكم فى حياتهم، ويتصورون أن ذلك يربطهم بالمجتمع الأوسع. هؤلاء المراهقون البيض، الذين يتخيل الصبية الفقراء أنهم يأخذون عنهم أزياءهم، هم أنفسهم يقومون بتقليد أزياء الصبية من الأحياء الفقيرة، "السراويل بدون حزام، والمتدلية من على الخصر"، متخيلين أن حياة الجيتو getto هى نوع من المغامرة المنفعلة، والعاصفة، والمحفوفة بالمخاطر، والتى هى مغرية للشباب من المراهقين. "وهكذا، بدلاً من بناء روابط حقيقية ـ من خلال توفير فرص، أو إعادة بناء المجتمعات- وجدنا بعض الأرضية المشتركة، بصفتنا مشترين للعلامات التجارية التى يفضلها كل من الجانبين."

وحيث إن وسائل الإعلام تقوم بتدعيم ذلك القدر الكبير من رغبات المستهلكين، فإن الصحافة نفسها يجب أن تدرك نتيجة ما آلت هى إليه: مخزن للتخزين. تقول سوزان براون ليفين Suzanne Braun Levine، "نحن بحاجة إلى "ميثاق حقوق لمستهلكى الأنباء الإخبارية". يجب أن يصل المواطنون (بصفتهم مستهلكين)، والصحافة (ينظر إليها على أنها كلاب مسعورة)، لفهم مستنير عن أى أجزاء المشكلة هى نتيجة لأداء الصحافة ـ (ينظر إليها على أنها منتج)، وبالتالى يتم إصلاحها من خلال الصحافة ـ وأى الأجزاء هى نتيجة لمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية الأخرى. "وهذا فهم يصعب تحقيقه فى البيئة الحالية من تضليل الإنترنت، وتأثير وسائل الإعلام العملاقة، والقلق المزمن فى جميع مصادر الأنباء فيما يتعلق بالأخبار التى يجب أن تنشر فى نهاية الأمر". هناك دليل على أنه كلما تم استيعاب وسائل الأعلام فى عالم الأعمال المليء بالمخاطر، أصبح المال أكثر أهمية من حق الجمهور فى المعرفة".

يتطلب ميثاق حقوق مستهلكى الأنباء الإخبارية ـ على الرغم من (أو بالأخذ فى الاعتبار) الكثير من الصعوبات والمعضلات التى ينطوى عليها جمع الأخبار والتقارير ـ يجب على العاملين بالصحافة أن يكون لديهم الشجاعة والرحمة، ليتمكنوا من جمع كل الحقائق ذات الصلة، وتجميعها بحيث تشكل الحقيقة، وأن تكون معالجة الحقائق عادلة، وموضوعية، وغير منحازة، وأن تكون إخبارية،

وهادفة ومسئولة، وألا تكون بدافع من مصلحة ذاتية، أو مصلحة تجارية؛ وألا تحرض كتاباتهم على العنف، أو تقتحم الخصوصية الفردية. وإذا كانت المهمة الأساسية لنقل الأخبار هى أن تكون منصفًا للجمهور، ولا يجب أن تحتل قصص الجريمة، الأسبقية على باقى القصص الأخرى، على سبيل المثال؛ يجب ألا تغطى الأحداث المعقدة بذكرها فقط كعناوين. وتشير ليفين Levine إلى أنه "عندما لا يكون التفكير جزءًا مما تبيعه الأخبار" فإنه "لا يتم خدمة الجمهور بشكل عادل. "ويجب أن يعمل الصحفيون والجمهور معًا من أجل إيجاد علاقة بين المستهلك والعلامة التجارية، والتركيز على إصلاح النظام الحقيقى الذى يستفيد من ذلك".

كيف نبدأ بالتمسك بضرورة الاعتدال وضبط النفس ؟ تحاول ستيفانى ميلز Stephany Mills تجربة الخوف التقليدى القديم. كتبت تقول: "لا يمكن أن أتخلص من التفكير فى أزمة الانقراض هذه، والحقيقة هى أنه "قد تكون النزعة الاستهلاكية المتفشية لليوم، دليلاً على مجاعة الروح فى مجتمع مبتعد عن الأرض الحية". وأزمة انقراض الأرض السادسة الكبرى - حيث تنقرض الأنواع بمعدل أكبر بحوالى ألف مرة من المعدل العادى - هو نتيجة التأثير الكبير للوجود البشرى المفرط على كوكب الأرض. وبدأ تدمير البيئات بالزراعة، ثم بعد ذلك عملت النخبة الحاكمة، والتجارة، على سرعة تزايد هذا التدمير. الآن المتهم هو النزعة الاستهلاكية العالمية. وأصبح الحفاظ على الحياة متوقفًا على قدرة الناس على دفع ثمن الضروريات الأساسية، بدلاً من القيام بهذه الأساسيات. اليوم، "لأن مصادر، سلعنا وتجهيزها وتصنيعها منتشرة على نطاق واسع، فإنه من المستحيل تقريبًا، بالنسبة لنا فهم التأثيرات المترتبة على طريقتنا فى الحياة فى المجتمع الحيوى." وإذا لم نعد إلى علاقة لائقة مع الأرض، بما فى ذلك حياة الجماعات الأخرى فى كل مكان - "المغطى بالفرو، والريش، والزعانف، والفطرى" - سوف تصبح، حتى أساليب الحياة الأكثر شحًا، لا تطاق.

عرض ديفيد أورDavid Or الفكرة نفسها، رغم أنه عرضها داخل إطار أكثر هدوءًا فى مقاله "البيئة: عطاؤها واستهلاكها" The Ecology of Giving and Consumption. يصف أور فتاحة خطابات تلقاها من سيد الحرف الخشبية،

تجسيداً للمهارة، والذكاء فى التصميم، والعطف، والادخار"، وهى الصفات المطلوبة لإعادة رسم طريقنا بعيداً عن الاستهلاك القهرى، والمفرط، ونحو نهج يؤدى إلى "كفاءة بيئية، وأناقة تكنولوجية، وعمق روحى". ويهدف التصميم البيئى المناسب إلى زيادة القدرة على التكييف المحلى، من خلال بناء علاقات بين الناس، وبين الناس وأماكنهم، وبين الناس وتاريخهم؛ "يأخذ التصميم البيئى الوقت بجدية، وذلك بوضع قيود على سرعة المواد، والنقل، والمال، والمعلومات"؛ "يلغى مفهوم النفايات"؛ و "له علاقة بهيكل النظام، وليس بمعاملات التغيير". باختصار، "يستلزم التصميم، بجميع المقاييس، ليس فقط صنع الأشياء، بل أيضاً صنع الأشياء بالبراعة الفنية التى تناسب مع سياقها البيئى والاجتماعى والتاريخى."

لكن بيل ماكيبان Bill McKibben يذكرنا بقيمة التواضع الإنسانى فى هذه العملية؛ فهو يوضح أن "استهلاك الطبيعة" هى فكرة معقدة ولا تخلو من مفارقات. لبضعة أسابيع فى كل ربيع، يُعذب سكان جوهانسبرج، ونيويورك، بسحب من الذباب الأسود الشره. وفكر سكان البلدة فى خطة لمعالجة المجارى المائية ببكتيريا طبيعية تقتل يرقات الذباب الأسود، وقد راقت هذه الفكرة لكل من أخصائيى البيئة وأصحاب الأعمال التجارية المحلية. على كل حال، يبدو من المعقول تماماً أن ترغب فى الحصول على هواء خال من الحشرات المزعجة. وحيث إنهم "يريدون استهلاك هواء خالٍ من اللدغ"، لماذا إذاً لا نحول "الطبيعى إلى ملائم"؟ على كل حال، فإن الشعار غيرِ المعلن للمجتمع الاستهلاكى "أنت أهم شىء على وجه الأرض... كل شىء يدور حول رغباتك".

يأخذ ماكيبان NcKibben موقفاً وسطاً فى معارضته الخاصة للخطة، موضحاً بتواضع أن عدم استهلاكه للملائم - شعوره الممتع بالتفوق فى مواجهة تحديات "الحدود الوعرة لبلدة أنيروندداك" - ليست أكثر من تعبير تهكمى لبناء صورة ذاتية من خلال الاستهلاك، "بدلاً من تعريف أنفسنا من خلال ما نشتريه، نُعرف أنفسنا من خلال ما نلقيه بعيدا" ومع ذلك، هذا هو شكل حميد من أشكال الاستهلاك، الذى قد يؤدى إلى "التعرض لقوى فى الواقع قد تغيرنا"، وقد يذكرنا ذلك بأننا فى الحقيقة لسنا مركز الكون.

تـوضـح بـهـاراتـى مـوخـرجـى Bahrati Mukherjee فـى مـقـالـهـا، " الاسـتـهـلاك والأمـريـكـيـون من أصل آسـيـوى "Oh Issac, Oh Bernard, Oh Mohan، أنه حـتـى الاستهلاك، إذا نظر إليه من وجهة نظر مختلفة، يمكن ترويضه فى الحضارة. فى عام ١٩٧٨ فى تورنتو، نجد أن صاحب محل عراقى للوجبات السريعة ناجح من جنوب آسيا، يبدو للوهلة الأولى، مثالاً لفلسفة المهاجر "إذا عاملت العالم الجديد بشكل جيد، فإنه سيفسح لك مجالاً على طاولة استهلاكه البارز". لكن هذا الازدهار القائم على مجتمع تغذيه العداوات، والمواقف التى اتخذتها مختلف الأطراف فى مناقشة عامة للقضايا، كشفت لموخرجى Mukherjee أن "كل مدينة فى أمريكا الشمالية أصبحت حديثًا، جبهة" مع نمط الدفاع عن النفس: "نحن مقابلهم"

حتى عام ١٩٢٠، كان معظم المهاجرين من جنوب آسيا إلى أمريكا الشمالية، غير متعلمين، ولا يتحدثون الإنجليزية. أصبحوا كبش فداء بصفتهم جماعة أجنبية، غير مندمجة، من الأرامل والصوفيين المتسترين"، وانتهى بهم الأمر مجموعة من التائهين بدون أسر. و "استفادت الموجة الثانية من المهاجرين من التعليم الجيد، ومن التوقيت المناسب، لتصل فى الستينيات، عندما عُرِف عن الهنود الآسيويين بأن "لديهم إمكانية للحكمة والهدوء... حتى أكثر من حرصهم على اقتناء الأشياء، كان حرصهم على الروابط العائلية". انكمشت وحدة الأسرة، فى البلد الجديد، من ممتدة إلى نووية، الأمر الذى جعل "تعزيز نوعية الحياة الأسرية أقل تكلفة". وفى السبعينيات والثمانينيات، اتبع هؤلاء المستهلكون الأذكياء، النظام الطبقى الأمريكى "فأنت تعيش الحياة الأمريكية فى العمل وتعيش الحياة الهندية فى المنزل". وعلى الرغم من أن أطفالهم يرفضون أمثلة البنوة من الطموح والمثابرة" و "يبحثون عن مجتمعات الأقليات الممنوحة سلطة ذاتية"، وبذلك يعيدون صناعة "دراما الأمركة". وبالنسبة لربات بيوت من جنوب آسيا، فإن المركز التجارى ليس كابوس النزعة الاستهلاكية. إنما، أن تكون غير مقيد بالقيود الاجتماعية التقليدية، و "أن يكون لك صديقات تمضى معهن الصباح فى مكان عام، هذه هى الحرية بعينها".

ويعـرض مـارتن إى. مـارتى Martin E. Marty، وجهـة نظـر مماثلـة. فى مقـالـة "التوازن" Equipose يسـأل: سلوك أخلاقيـة من؟ وأخـلاق من؟ التى ستلعب دورًا فى النزعة الاستهلاكية، وفى القضايا الاستهلاكية فى الاقتصاد العالمى المنتصر حديثًا؟ فى أمريكا، تشكلت، وأعلنت "الأعراف الاجتماعية المتوافق عليها"، والتى هى بقايا الماضى وتجاربه، عن طريق ثلاث فلسفات تتعارض نسبيًا: تراث الكتاب المقدس، وتراث التنوير، منذ أواخر القرن الثامن عشر، و"الدارونية (نسبة إلى العالم داروين) الاجتماعية، منذ أواخر القرن التاسع عشر. "هذا المجتمع، مثل أفراده، يعيش مع مجموعة المطالبات المتعارضة لرجال الدين، وأصحاب المشاريع الحرة. ويجب أن يعرف هؤلاء الذين ينتمون لمجموعة "تقاليد الإنجيل"، أن "ازدراء ما هو موجود على الأرض من أجل الاستهلاك، ليس فضيلة من الفضائل".

يقـول مـارتى، قـرار الفـرد هـو الـذى فقط يمكن أن يؤدى إلى ممـارسـة متوازنـة وإيجـابيـة للنـزعـة الاسـتهلاكيـة. "التـوازن هـو روح الاتـزان التى يمكن أن يـزن قوى متضـاربة، وألا يعمل بشكل إلزامى، أو بإدمان، حتى يمكن أن تعبر خيارات الفرد، أو استخدامه للأشياء، عن ذاته العميقة، أو عن باطنه"

وينظـر وليـام جريدر William Greider إلى كل شىء من منظور بيئى، وذلك فى مقالة عالم واحد من المستهلكين One World of Consumers، من مطاعم بيرجر كينج فى ماليزيا التى تقدم الطعام الإسلامى إلى معبد بوذى فى بانكوك، المزين بالأكياس البلاستيكية المهملة. و"العمل فى البلاد النامية مثل حلقة من فيلم قديم يعيد لنا تاريخنا بتكرار مستمر"، كما يطمح الفقراء فى تقليد الرخاء الأمريكى القائم على التصنيع والاستهلاك الضخم. "إذا أراد العالم أن ينقذ نفسه من كارثة بيئية، فإن الخلاص لا يمكن أن يبدأ بين الفقراء، مهما تكن هذه الفكرة مقبولة لدى المبشرين. فقط العدد القليل من الأثرياء ـ يعنى، دول مثلنا ـ لديهم السلطة التى يمكن أن تنقذنا جميعًا من عواقب وشيكة للاستهلاك الضخم على نطاق عالمى. و "عدم المساواة الاقتصادية، هى فى الأساس قضية بيئية، وارتفاع الدخول والاستهلاك هى عناصر جوهرية للحل. ويجب إعادة تعريف النمو بمصطلحات

نوعية، بدلاً من أخرى كمية، كما يجب أن تتغير توقعات المستهلك، ويجب أن يكون هناك "فهم اجتماعى جديد، مثل النظام العالمى نفسه، ونحن جميعًا فى هذا الآن، ولن يتم إنقاذ أحد إلا إذا تم إنقاذ الجميع".

تتطلب رسالة جريدر Greider ثورة فى الفكر قد يكون الأمريكيون غير مستعدين للقيام بها. إن انتصار الغرب على الاتحاد السوفييتى فى الثمانينيات فُسر، جزئيًا على الأقل، على أنه انتصار للرأسمالية على الاشتراكية (رغم أن ذلك لم يكن ما حدث)، وبالتالى هناك خطر ينطوى على الفكرة الفعلية للمجتمع التعاونى وهو اعتبارها فكرة غير أمريكية. ويسعى الأمريكيون دائما لتحقيق المساواة ـ لقد رأى توكفيل Tocqueville أننا مهتمون بالمساواة أكثر من اهتمامنا بالحرية ـ ولكن عندما نسعى فى الوقت نفسه للانفصال عن بعضنا البعض، فإن كل ما تحققه هذه الحرية هو العزلة. فى الكثير من المقالات المقدمة هنا، نجد أن السبعينيات كان الوقت الذى تفشى فيه السلوك الاستهلاكى، والاستهلاك الضخم، وبدأ الوصول إلى نقطة الأزمة. وقد ازداد قرب هذه الأزمة بازدياد العزلة فى الحضارة، ويرجع ذلك، إلى حد كبير ومؤخرًا جدًا، إلى الكمبيوتر، وغيره من التكنولوجيات الناشئة (والتى ظهرت على الساحة أيضًا فى السبعينيات)، والتى دفعت بنا بعيدًا عن الواقع (المكان الآن مكان افتراضى)، وعن بعضنا البعض.

تم اختراع كل الاختراعات الأمريكية بغرض محو النظام الطبقى، وانتهت جميعها بإعادة التأكيد على تقسيمات الطبقات المختلفة، أو خلق طبقات جديدة. أولاً، لدى عدد قليل من الناس سيارة وهاتف، وجهاز تليفزيون؛ ولكن، من ناحية أخرى، الكثيرون جدًا لديهم هذه الأشياء. ومع ذلك، لم تغير هذه المقتنيات أى شىء، فمازال يعانى النظام الطبقى بسبب الظروف الأخرى التى خلقتها الاختراعات الجديدة. لا يحب الأمريكيون الاعتراف بوجود الطبقات الاجتماعية؛ لقد أسسنا أمتنا كرد فعل معاكس لأوروبا المثقلة بالطبقات. لكن كان ردنا على نظام الطبقات الأوروبى، هو إقامة طبقة مثالية ومزدهرة، ينتمى إليها الجميع. وتطور النظام ليصبح لدينا تعدد طبقات. وبالطريقة التى أعادت بها أمريكا

هيكلة نفسها، يعيش الناس محاطين بأناس آخرين يعيشون مثل عيشتهم. المنازل فى الأحياء المماثلة تتكلف التكلفة نفسها؛ والمدارس مماثلة فى المستوى، وكذلك الملابس والعادات؛ ويقيم الناس علاقات اجتماعية مع أقرانهم اقتصاديًا. يعيش الأمريكيون مرتبطين بأفراد الطبقة الخاصة بهم، لكنهم ينكرون فكرة الطبقات فى أمريكا. فى الواقع، أنهم يتوقون جدًا لإخفاء الفكرة عن بعضهم البعض، وليس لديهم أدنى فكرة لأى طبقة هم ينتمون إليها.

تكسب أعلى ٢٠٪ من العائلات الأمريكية من المال بالقدر نفسه الذى تكسبه الـ٨٠٪ المتبقية. وتكسب الأعلى ٥٪ من الـ٢٠٪ القدر نفسه الذى تكسبه الـ ١٥٪ المتبقية. ومرة أخرى فى تلك الـ٥٪ الخمس (أى ١٪ من أمريكا) تكسب نفس قدر الـ٤٪ الأخرى. ومع ذلك، إذا سألت زوجًا يكسب ٤٠٠٠٠ دولار سنويًا قبل خصم الضرائب، وآخر يكسب ٢٠٠٠٠ دولارًا قبل خصم الضرائب، لأى طبقة ينتمون؟ فإنهم سيجيبون (بصدق واقتناع) ليس فقط أنهم ينتمون إلى الطبقة الوسطى، ولكن أيضًا أنهم يشقون طريقهم بصعوبة.

هناك سببان على الأقل لهذه الحالة من عدم رؤية الأمور كما هى، وكلاهما ظهر منذ أوائل الستينيات. السبب الأول، هو الفجوة الهائلة التى بدأت تنمو داخل الطبقة الوسطى، بين الطبقة الوسطى العليا، والطبقة الوسطى السفلى، والسبب الثانى، هو تقسيم الطبقة الوسطى إلى طبقات فرعية مختلفة. فى الثمانينيات، بدأت الطبقة الوسطى السفلى فى الانفصال عن الطبقة الوسطى. من عام١٩٦٠ إلى عام ١٩٧٤، زادت أجور العاملين ورواتبهم الحقيقية بنسبة ٢٠٪ ومن عام١٩٧٧ إلى عام ١٩٨٩، انخفضت أجور العمال الحاصلين على تعليم أقل من التعليم الثانوى بنسبة ٢٠٪، وهبط متوسط الأجور الإجمالية للرجال. فى الثمانينيات زادت أكثر من الضعف، نسبة الكسب بين الرجال الذين يعملون بدوام كامل، والذين تتراوح أعمارهم بين ١٨ ـ ٢٤ عامًا، وهى أقل من ١٢,١٩٥دولارًا سنويًا من ١٨٪ إلى ٤٠٪ حتى الثلث الأعلى من الطبقة فوق المتوسطة بدأ يسقط بسرعة. ومنذ عام ١٩٨٩ إلى عام١٩٩٣، انخفضت أجور التنفيذيين ذوى الياقات البيضاء بنسبة ٠,٨٪ وأجور العمال التقنيين، بنسبة ٢,٩٪؛ والموظفين ذوى

التعليم الجامعى، بنسبة ٥.٢٪ فى عام ١٩٩٣، وللمرة الأولى فى التاريخ، كان عدد العاطلين عن العمل من ذوى الياقات البيضاء أكثر من عدد العمال من ذوى الياقات الزرقاء. وقد خلق إعادة التعويم الاقتصادى هذا، طبقات من داخل طبقات.

وتفرض التكنولوجيات الناشئة نظاماً جديدًا من الطبقات على الأنظمة الحالية. والنظام الطبقى التكنولوجى، فى سياقه الشامل، له القدرة على استخدام آلات جديدة. كل من يمتلك جهاز كمبيوتر ينتمى نظريًا للطبقة نفسها. لكن ضمن هذه الطبقة الشاملة توجد آلاف الطبقات الفرعية، من لاعبى الشطرنج إلى أفراد الميليشيات. والفكرة التى عززتها هذه الانقسامات هى أن كل شخص يتحمل مسئولية نفسه، وأن هذه الحياة تتكون من سلع يقتنيها المرء لنفسه ـ فى الواقع، أنه من الأفضل أن تعيش فى عزلة رائعة، محاطًا بكثير من الأشياء التى يستطيع أن يقتنيها، أو كما يقترح لوتفاك Luttwak، قد لا يستطيع أن يقتنيها

من المؤكد، أن هناك بعض الدلائل على هذه النزعة. والقاعة الجديدة للتنوع البيولوجى فى المتحف الأمريكى للتاريخ الطبيعى، محطمة تقريبًا للآمال فى هدفها المعلن، وهو أنه إذا لم يتعلم البشر التعاون مع الأنواع الأخرى، فإن الجميع على الأرض سيتلاشى. وبطريقة ما، فإن قاعة التنوع البيولوجى تقف عاموداً خامسًا وسط حى مانهاتن فى مدينة نيويورك الطموحة، لتكون بمثابة ثقل موازن للشهية الفردية التى تشكل الجزيرة الرمزية لأمريكا. ويقدم المعرض وجهة نظره الواضحة، من خلال عرض جزء من الغابات المطيرة فى وسط أفريقيا؛ ومن خلال تجميع لأكثر من ١٠٠٠ مثال من أنواع الكائنات المعلقة على جدار ارتفاعه ١٠٠ قدم، كمخزن عام للأحياء؛ ومن خلال نشرته البيولوجية الإلكترونية التى تعرض أحدث أخبار الكوكب، مثل تقارير الطقس. وهكذا فإن الرسالة الموجهة، هى أن الأفعال الفردية الجامحة للأنواع السائدة ـ أى أفعالنا نحن ـ سوف ننتهى إلى الانقراض الجماعى السادس الذى تشير إليه ميلز فى مقالها.

وقاعة التنوع البيولوجى ليست العلامة الوحيدة على وجود وعى متزايد بأن التملك والإنفاق قد تماديا إلى حد خطير. هناك الكتب التى تدق ناقوس الخطر (رغم أننا نتذكر أسف شيفرين بأن الكتب النقدية والثقافة المضادة، هى أيضاً، من الأنواع المهددة بالخطر)، مثل كتاب يانيس جابريل Yiannis Gabrie، وتيم لانج Tim Lang المستهلك الذى لا يمكن السيطرة عليه Unmangeable Consumer، وكتاب جاكسون لير Jackson Lear أساطير عن الوفرة Fables of Abun-dance[٤] والجانب المقلق فى هذه الأعمال النقدية، هو أن الآخرين فى الماضى، كانوا أيضًا على درجة الإقناع نفسها من الناحية النظرية، وقد ذهبوا دون أن يكون لهم تأثير كبير، فقط كانت هناك بعض المناقشات بين المثقفين. والطريق إلى الجحيم البيئى ممهد بجهود النوايا الحسنة لكتاب أمثال لفانس باكارد Vance Packard، وجون كينيث جالبريث John Kenneth Galbrith، وجى ديبورد Guy Debord، ودورثى ديفيز Dorothy Davies، وجيسيكا ميتفورد Jessica Mit-ford، ورايموند ويليامز Raymond Williams، ومارشال ماكلوهان Marchall McLu-hun.

ومادام الناس يعتقدون أن المجتمع يعتمد على أن كل فرد عليه الاهتمام بنفسه على حساب الآخرين، فلن تُجدى كثيرًا أى وسيلة من وسائل الإنذار. ويبدو أنه ليس هناك شىء يمنح المرء الشعور بالاهتمام بالذات كما يفعل الاستهلاك؛ كل ما يحتاجه الفرد، فى لحظة الشعور بانعدام الأمن، هو إجراء جرد لممتلكاته لكى يؤكد لنفسه أنه كائن مُجد وجوهرى. ولتقوية هذا الوهم، قد يقنع الفرد نفسه أنه فى عملية الحصول على الأشياء، يشارك فى، ويلمس روح، الديمقراطية. وأمريكا هى سوبر ماركت عملاق، والمواطن المستهلك يحافظ على سلامتها من خلال حرية الاختيار. وغنى عن القول، أن الشعور بالاختيار الذى لا ينضب، هو الذى يجعل أمريكا على ما هى عليه.

بطبيعة الحال، فإن تأثير هذا النوع من التفكير على أمريكا نفسها، هو وضع ثقل لا يحتمل على البنية كلها. وكتب روبرت هايلبرونر Robert Heilbroner فى كتابه الأخير رؤى المستقبل Visions of the Future عن الوسائل التى يرسم بها

التاريخ السعى وراء المال، فيقول: "لأن الجهد الكلى لتراكم رأس المال يقدم ضغطًا هائلاً ينتشر خلال النظام" بدءًا من المؤسسات الضخمة إلى المشترى الفردى المتواضع(٥). والهدف الوحيد للحضارة هو أن يزداد المرء ثراء، ويمتلك أكثر وأكثر، وأى شخص لديه شك فى فضائل الاستهلاكية، لا يعتبر شخصًا وطنيًا تمامًا.

ولكن لو لم يكن الفرد راضيًا عن التنزه بين الأشياء التى يوفرها هذا العالم إلى الأبد، وأن يستمر فى الإضافة إليها، مهدرًا الموارد ومنتظرًا النهاية المحتومة، فسيأتى الوقت الذى تفسح فيها الذات المشيدة المجال للذات الأصيلة. و يروى مارتن مارتى Martin Marty فى كتابه أساطير عن الوفرة Fables of Abun-dance، حكاية عن كيف أن رجال الإعلان فى مطلع القرن، قرروا تفكيك أخلاقيات العمل البروتستانتى وتنصيب "نظام علاجى" جديد مكانه، يشجع على الاهتمام بالذات من خلال سلع وخدمات مصممة لتلبية (أو تبنى) الاحتياجات النفسية. وفى وقت مثل الوقت الحالى، عندما تكون المجتمعات افتراضية، هذا إذا كانت موجودة على الإطلاق، يبنى الفرد الذات من خلال تلك الاحتياجات. ولكن حتى الفرد نفسه يدرك أيضًا، ولو بشكل ضئيل، أن هذا الجهد مزيف. وإلا فإن كل هذا التطلع الذى لا هوادة فيه، لن يأتى فى أعقاب هذا التلهف على الاقتناء والإنفاق الذى لا هوادة فيه أيضًا.

وكانت إحدى وسائل تخفيف الشعور بالذنب، وتجنب التراكم الشره، هو الفصل بين الإنتاج والاستهلاك. ونظريًا، يستطيع الأمريكيون أن يستهلكوا دون شعور بالذنب، إذا لم يروا المصانع المستغلة للعمال فى آسيا وأمريكا اللاتينية، التى تنتج ملابس وأحذية رياضية. بسبب الطابع العام لبرنامجها التليفزيونى، شعرت كاتى لى جيفورد Kathie Lee Gifford بالخزى لاكتشافها أن خط ملابسها تم تصنيعه فى المصانع المستغلة للعمال. إنه فى الواقع اكتشاف جوهرى لكثير من الناس غير كاتى لى، بأنهم سعداء بالاستهلاك بدون أن ينتابهم أى الشعور بالذنب، وذلك بالتظاهر بأنهم متفرجون فى الحياة، وليسوا مشاركين مسئولين.

بالعودة لمشهد قمصان جاتسبى، هناك عمل أدبى سابق يتناول القمصان من الطرف المقابل. فى عام ١٨٤٠، فى بداية الثورة الصناعية فى إنجلترا، كتب

الشاعر توماس هود Thomas Hood "أغنية القميص" The Song of the Shirt ردًا على واقعة أن أرملة فقيرة عندها طفلان، قدمت للمحاكمة لرهن ملابس ملك لرئيسها فى مصنع الملابس الذى تعمل فيه. كشفت المحاكمة عن الأجور وظروف المعيشة البائسة لعمال المصانع، وأثارت تعاطف الرأى العام، وكذلك تعاطف هود الذى كتب يقول:

بأصابع متعبة وبالية،

وجفون ثقيلة وحمراء،

جلست امرأة فى خرق غير أنثوية،

تلعب بإبرتها وخيطها.

غرزة! فى غرزة! فى غرزة!

فى حالة من الفقر، والجوع، والاتساخ،

وبصوت ذى نبرة حزينة،

هل يمكن أن يصل صوتها للأغنياء!.

لقد غنت هذه الأغنية "أغنية القميص!"

(توماس هود، "أغنية القميص")

اليوم هذه المرأة هى تلك المرأة المكسيكية أو الصينية، لكن الظروف الأساسية لم تتغير، حتى وإن كان الجمهور أكثر وعيًا بها.

ومع ذلك، وعلى المدى الطويل، لا أعتقد أن أيًا من هذه الأوهام ستصمد، وأننا فى النهاية سندرك حقيقة وضعنا. والحقيقة، كما توضح هذه المقالات هنا، ليست بسيطة. فالناس يحبون الاستهلاك. فى الواقع غالبًا ما يستند الاستهلاك، فى الموروثات الثقافية، إلى المعنى الكامل للأسرة. لماذا لا يستمتع المرء بثمار عمله فى أمريكا، أو فى أى مكان آخر، بعد أن كافح عمره لتحقيق ما يكفى من المال لينفق منه؟ ما الأدلة الأخرى التى يملكها المرء عن الإنجاز أو التقدم؟

مع ذلك، وكما تشير جميع هذه المقالات، وفى السطور، فإن هذا السؤال ليس بالضرورة سؤالاً بلاغياً. هناك أدلة أخرى عن الإنجاز والوجود، لكن يلزم شحذ الخيال لإدراكها. ويستند المجتمع الاستهلاكى على "أريد"، ويأتى هذا بعد رؤية السلع. فقد تشكلت صناعة الإعلان بالكامل بترتيبات، وبتلاعب ذكى بالأشياء وضعتها أمام أعيننا. ومع ذلك، فإن الناس نفسهم الذين لديهم شهوة امتلاك السيارات، أو أيضًا مصانع السيارات، غالبًا ما يعترفون أن أفضل الأشياء فى حياتهم هى تلك الأشياء غير المرئية - "أشياء لا ترى" كما يقول الشاعر الإنجليزى جون دون John Donne . إن دليلنا على وجود الحب، والصداقة، والشرف، يأتى فقط من مشاعر غير مرئية. وغياب الدليل، كما قيل فى محاكمة أو. جيه. سيمبسون، ليس دليلاً على عدم وجوده.

والخدعة - الأساسية والبارزة والشافية للروح - هى التفكير فى حياة الفرد على أنها تتكون من كل من المنزلة الحقيقية والخيالية، ومن الاعتراف بأن الممتلكات الأكثر قيمة للفرد ليست، ولم تكن أبدًا، للبيع. ذلك، بالطبع، كان نداء كل علماء الأخلاق منذ أن بدأ الناس يتصرفون بشكل سيئ. وهى اليوم مدفوعة بالقوى العملية وخيمة العواقب، وهذه المسألة ملحة. إن ما نحتاج إليه هو البحث عن الذات، التى، فى اعتقادى، سوف تكشف عن الاتجاهات التى تتناقض مع جميع الأدلة الواضحة.

وبطريقة ما، فإن الكل هم مثل ديزى بوكانان الباكية، ونيك وجاتسبى، وكل الذين يقفون عاجزين أمام الأشياء التى يتوقون إليها. حتى المرأة، فى قصيدة توماس هود، تحلم بالقميص. وتدعو القصيدة الله أن تصل أغنيتها للأغنياء. وسوف تصل. فالغنى والفقير، مرتبطان بالأغنية نفسها والقمصان نفسها، وكلاهما يذوب حزنًا على شىء لا يفهمه. نحن فى حالة دائمة من الحنين، لكن قد يكون الحنين للأقل، وليس الأكثر، ولتبسيط الوجود الذى يسمح للفقراء بالنهوض، والأغنياء بالاستقرار، والأنواع الأخرى بالبقاء، والعالم بالاستمرار. لكن تنقصنا المعرفة، أو الرغبة فى تحقيق كل ذلك، ولذلك نحن نريد ولا نريد، ونبكى دون أن نعرف ذلك.

عالم واحد من المستهلكين

ويليام جرايدر

سخرت الحياة العصرية سخرية لاذعة من المسافر الأمريكى البرىء، المتوجه إلى أماكن نائية بحثًا عن كل ما هو غريب. عندما نقوم هذه الأيام بجولة حول العالم، فما نزال نشعر بالمفاجأة والبهجة عند رؤية سلوك وتصرفات "للآخر". لكن أيضا لم يعد يمكننا تجنب مواجهة بشعة مع أنفسنا أو، بالأحرى، مع حضارتنا نتاج الصنعة.

قد تفتقر عشرات الآلاف من القرى فى الصين إلى أضواء الشوارع، لكنها الآن تتوهج ليلا مع الأضواء المنخفضة لشاشات التليفزيون التى تنبعث من خلف الأبواب والنوافذ المفتوحة. لقد ذهبت إلى واحدة من تلك القرى فى مقاطعة شان شى، Shaanxi للقيام بجولة فى مصنع يديره الجيش، يقوم بتصنيع أجزاء متقدمة من الطائرات التجارية. ولقد كان المكان شديد الغرابة مما أدى إلى تشوش فى الافتراضات الموروثة لدى.

كان لدى شركة هونج يوان لصناعة طرق الطائرات وصب أجزائها، عدد قليل من الآلات الحديثة المستوردة من ألمانيا واليابان، وبدا مسبكها بسيطًا ومتسخًا بالمقارنة بمثيله فى بلدنا. ووقف طابور من الميكانيكيين الشباب بالملابس الزرقاء على المخارط فى مصنع مظلم، ويبدون كأنهم شخصيات فى صورة بنية داكنة للحياة الصناعية الأمريكية المبكرة - ديترويت، عام١٩٢٠، أو ربما شيكاغو، عام١٨٩٠.

قادنى المسئولون إلى غرفة العرض لمشاهدة المكونات المختلفة- عتاد عجلات، وحلقات، وقضبان، ومحاور عجلات، التى تصممها شركة الطائرات الصينية، أو تصدرها كقطع غيار لازمة للتوربين البخارى، ولآلات أخرى فى جميع أنحاء العالم. أما مكان الشرف فكان لخمس سبائك من التيتانيوم التى تصنعها شركة هونج يوان لشركة بوينج. سوف تدعم هذه الأشياء فائقة القوة، التى وضعت فوق قطعة قماش من المخمل الأزرق، المحركات النفاثة للطائرة البوينج ٧٤٧.

اعتقدت أن هذا غريب. وفى المرة القادمة التى سوف أحلق فيها على متن طائرة ٧٤٧، سأفكر فى هذه القرية فى الصين، الفقيرة لكن المزدهرة، حيث مازال بعض الناس يعيشون فى كهوف محفورة فى جدار الوادى، وحيث لا تزال معامل ومسبك الاختبارات الخاصة، مخبأة تحت الأرض (محاولة ماوتسى تونج الغريبة لحماية الصناعات الثقيلة فى الصين من الهجوم النووى الأمريكى أو السوفييتى).

فى صباح اليوم التالى، تجولت فى سوق القرية، حيث اصطف المزارعون على طول جدار عالٍ مشيد من الطوب، وجلسوا القرفصاء وراء أكوام من الجزر، والخضار، والقرنبيط، والبصل الأخضر، والكرنب. وكان أحد الباعة الجائلين، شاب يرتدى سترة زرقاء، ينادى على ربات البيوت عبر مكبر صوت يعمل بالبطارية. والمسحوق الشاهق البياض الذى يبيعه هو دقيق اللوتس. لقد شاهدته يزن مقادير من الدقيق على ميزان يحمله بيده، ثم يسكب الدقيق فى أكياس بلاستيكية شفافة. ويعقد كل كيس بالطريقة نفسها التى شهدت البائعين يستخدمونها فى السوبر ماركت فى بلدى.

تعنى العولمة، من بين ما تعنى، أنه حقًا لا يوجد مكان للاختباء من الاتصالات المشحونة مع نمط حياتنا اليومية. هناك وفرة من "الأشياء" وفى كل مكان، بما فى ذلك الأشياء التى كانت مقصورة على أغنياء العالم فقط. عندما زرت الصين، وبعض البلاد الأخرى وبعد ذلك، كنت مسافرًا بغرض مهنى: العمل على تأليف كتاب عن الثورة الصناعية العالمية وآثارها الاقتصادية والاجتماعية. لكن السائح

الذى بداخلى، انجذب بطبيعة الحال، إلى رؤية فن الصنعة فى الحياة اليومية الأمريكية الزاحفة إلى جميع أنحاء العالم، التى تظهر فى خلفية أكثر الأماكن غير محتمل أن تظهر فيها.

لقد واجهت فى كل لحظة من اللقاء، ردود فعل متناقضة ـ الفرحة التى تعكس التقدير، يتبعها اندفاع ينذر بالشر. ربما تكون هذه الاستجابات شائعة الآن بالنسبة لمعظم السائحين. لكن، ماذا شاهدت فى ماليزيا؟ شاهدت المراهقين يحملون استريو محمولا (ووكمان)، ومجموعة من الأقراص المدمجة الرخيصة. اشتريت من الأسواق الصينية ساعات رولكس مزيفة. رأيت مطاعم تقدم بيرجر كينج على الطريقة الإسلامية، وشربت جعة الجزر، واستمعت إلى موسيقى الراب مصحوبة بكلمات باللغة المحلية، الباهاسا الإندونيسية.

أصبحت بعض هذه الارتباطات بفن الصنعة الأمريكية، بطبيعة الحال، مجرد ضرب من الجنون، بالطريقة نفسها التى أصبح فيها الفرد الأمريكى يتسم بالسخافة دون أن يدرك ذلك. كنت أتناول الطعام بمفردى فى مطعم من الدرجة الثانية فى جاكرتا، وأراقب أربعة من رجال أعمال كوريين، يجلسون على الطاولة المقابلة، قد يكونون من مديرى المصانع، أو ربما من مسئولى المبيعات. يضع كل منهم هاتفه الخلوى أمامه على الطاولة. وبينما كانوا يأكلون ويتحدثون، كان يقوم كل منهم، بين الحين والآخر بإجراء مكالمات هاتفية. فى كل مكان فى العالم، التجارة هى التجارة.

واستشفيت أيضا وقوع مأساة مروعة قادمة. فالمعابد الذهبية فى بانكوك، محاطة الآن بتجارة محمومة. فكل ما هو جميل ورائع، يتراجع أمام انقضاض كل ما هو حديث وسريع. وهكذا يتم طمس الماضى تدريجيًا. أما الاختناقات المرورية هى الأسوأ فى آسيا. ويخبرك البعض، بمزيج من الإحباط والفخر، أن قنوات بانكوك القديمة مملوءة بالطمى، وأن المياه الجوفية آخذة فى الهبوط، وأن الملوحة ترتفع فى نهر تشاو فرايا. وفى الريف، فإن الحال على الأرجح أسوأ. ويتفق الجميع على أن الأمطار الموسمية قد قلت الآن، وذلك بسبب التطور الصناعى والزراعى. ويتم تجفيف مستنقعات أشجار المانجروف على طول السواحل، لتربية الربيان المستخدم فى مطاعم السوشى فى طوكيو.

شاهدت لوحة مؤثرة خارج مكاتب الاتحاد، فى أحد آحياء الطبقة العاملة فى بانكوك، التى قمت بزيارتها لإجراء مقابلة مع عمال الغزل والنسيج. أقام السكان، ضريحا متواضعًا لمعبد بوذى مصغر على قمة مزودة بأعمدة، فى ركن من الأركان الكثيرة الشاغرة ـ حيث يتلو المارة صلوات ويتركون تبرعات متواضعة. كانت الأرض، حول قاعدة الضريح، مغطاة بالبلاستيك، حيث تطير، بشكل عشوائى فى جميع الاتجاهات، آلاف الأكياس البلاستيكية الزرقاء والوردية المستخدمة فى التسوق فى كل مكان من آسيا ـ من الأدلة المتراكمة على وجود حضارة أعلى.

وتلحق تايلاند بالركب. فقد أعلنت الشركة الوطنية للبترو كيماويات فى تقريرها السنوى عام ١٩٩٤، أن التايلانديين يستهلكون الآن ٤٤ رطلاً من البلاستيك للفرد الواحد سنويًا وقالت الشركة إن هذا تحسن كبير، لكن البلد لا تزال متخلفة عن جيرانها الأكثر تقدمًا، مثل كوريا، واليابان، وتايوان. يستهلك التايوانيون كمية من البلاستيك للفرد الواحد أكثر مما يستهلكه الأمريكيون.

إذا عرفنا قصة التصنيع الكبرى فى البلاد النامية، ووحشية عدم المساواة، والاضطرابات الاجتماعية، وعملية التدهور الطبيعى التى تصاحب خلق الثروة ، فإن أى شخص واع يود أن يصرخ: "انتظر! قف! آلا تدرك ماذا تدمر؟ ربما يكون هذا رد فعل طبيعى، لكنه أيضًا، كما أعتقد، رد فعل متعالٍ تمامًا ـ خصوصًا بالنسبة لشخص يأتى من أمريكا عاصمة العالم فى الاستهلاك الجماعى.

ومع ذلك، فإن هؤلاء الناس يتطلعون فقط للمحاكاة، ما يفسروه بالنمط الأمريكى ـ النظام الأمريكى للرخاء ـ مع بعض الاجتهاد المحلى المضاف إلى مزيج المُنتج. لماذا يختار الناس أن يديروا ظهورهم لكل ما هو ناجح بوضوح؟

تحدثت فى كوالالامبور مع المفكرة الإسلامية، ميريل وين ديفز Merill Wynn Davies، وهى امرأة وُلدت ونشأت فى ويلز، وتلقت تعليمًا جامعيًا فى بريطانيا العظمى ولمعرفتها بالواقع الاجتماعى فى الوطن الأم، فإنها تزدرى الافتراضات الأنجلو ساكسونية للقانون والعدالة. لقد كانت متبرمة بالمثل من علماء البيئة، الذين يحاضرون فى الدول الفقيرة عن شرور التصنيع. لقد نحت بأسئلتى جانبًا،

بإبداء الملاحظة التالية: ما يريده هؤلاء الناس هو ما سبق أن امتلكه الغرب. ولماذا لا يريدون ذلك؟ إنها حياة جميلة جدا، أليس كذلك؟

كنت أسمع وجهة نظرها هذه متكررة فى تعبيرات مختلفة عن الرغبة، فى كل مكان سافرت إليه، من آسيا إلى أوروبا الشرقية. الفقراء، بطبيعة الحال، يتطلعون لتقليد الأغنياء. ولما لا يفعلون ذلك؟ أعتقد أن هذه الحقيقة البسيطة، هى الآن تمثل لُب المسألة البيئية، سواء شئنا ذلك أم لم نشأ.

إذا كان للعالم أن ينقذ نفسه من كارثة بيئية، فإن الخلاص لن يبدأ بين الفقراء، مهما راقت هذه الفكرة للمبشرين. فقط عدد قليل من الأغنياء، أى دول مثل دولنا - لديها السلطة والمال الكافى لإنقاذنا جميعًا من عواقب وشيكة للاستهلاك الجماعى على نطاق عالمى. وإذا فشلنا فى القيام بذلك، فلن يتم إنقاذنا.

فى مؤتمر كيوتو، حول التغيير المناخى، الذى عقد فى ديسمبر ١٩٩٧، كان الموقف الأمريكى المبدئى ، وبتحريض من المصالح الصناعية المعتادة، أنه ليس من العدل فرض أهداف للحد من التلوث بالمحروقات على الاقتصاديات المتقدمة فقط، حيث إن خطوط اتجاه الانبعاث فى البلاد النامية آخذة فى الارتفاع بسرعة. لكن لا يمكن للمناورة الأمريكية أن تسود على الساحة العالمية، ولم تسد. وكان الاحتمال الأكبر، أن يقوم واضعوا استراتيجيات الصناعة، بتحضير بعض النقاط للنقاش، لاستخدامها لاحقًا فى السياسة الأمريكية عندما تسعى إلى التأثير على الرأى العام، وكسب تأييد الكونجرس لعرقلة أى تشريع ضرورى لتحقيق هذه الأهداف.

أعرب دبلوماسى برازيلى فى مؤتمر كيوتو، عن رد فعل الدول التى مازالت تحاول اللحاق بالدول الغنية قائلا: "هم يدعونك لتناول القهوة فقط بعد العشاء. ثم يطلبون منك المشاركة فى دفع الفاتورة، حتى ولو لم تكن قد تناولت الطعام."

أنا لست مع عدم المسئولية بين الفقراء المكافحين فى العالم، أو مع عدم الاهتمام العالمى بممارسات هؤلاء المدمرة. ولكنى ببساطة، أرصد هذا العالم الذى

سيظل واقعًا فى مأزق سياسى عميق، فيما يختص بهذه المسألة البيئية، إلى آن نتعلم نحن الأمريكيين أن نضع جانبًا شعورنا بالصلاح والقوامة، ونقبل بتحمل العبء الكامل لوضعنا التاريخى. وكما نعرف بالفعل، فإن هذا من الصعب للغاية القيام به، ذلك لأنه ضد الشعور الشعبى بالتفوق الأمريكى، الذى يروج له بشكل مستمر، الطبقات الحاكمة فى السياسة، وأيضًا فى الأعمال التجارية والمالية. ذلك يجعلنا فى وسط المشكلة بدلاً من أن نكون من المتفرجين الذين يساورهم القلق حيال ما يحدث.

قد يساعد أيضًا النظام العالمى بطرق خاطئة، فى دفع عملية معرفة الذات، لأنه يسمح لنا أن نرى أنفسنا بارتياح تام. والعمل فى البلاد النامية مثل العقدة فى الأفلام القديمة، تسترجع لنا باستمرار تاريخنا، مما يجعل حقائق الماضى البعيد حقيقة محبطة. وكل شىء بشع يحدث الآن فى البلاد الصناعية الجديدة (حتى ممارسة العبودية القهرية) حدث أولاً، منذ وقت طويل مضى، فى الولايات المتحدة.

فى أوائل عام ١٩٩٨، عندما كانت غابات بورنكو تحترق وتنبعث منها سحب محملة بالهباء الأسود عبر جنوب شرق آسيا، ذكرنى هذا بمكان جبلى أحببته فى ولاية فيرمون ، وذكرنى بالتاريخ الفعلى لتلك الولاية الخضراء. أولاً، تم طرد السكان الأصليين بها، وتم سلب أراضيهم، وفى بعض الأحيان تم قتلهم. ثم تم قطع أشجار الصنوبر البيضاء العملاقة ـ أشجار السكويا فى نيو إنجلاند ـ حتى اختفت هذه الأشجار الكبيرة تقريبًا، وذلك لتوفير سوارى للسفن. كما تم قطع الغابات المعمرة أو حرقها، لتوفير المراعى الجبلية للأغنام والماشية، ثم تلا ذلك فيضانات رهيبة وتآكل فى التربة. وعندما انهارت صناعة الصوف فى نيو إنجلاند، بعد بضعة عقود، انتقل الناس غربًا، وكرروا العملية نفسها. لقد تم ردم أراضى البرارى الرطبة لزراعة الحبوب؛ بل حولوا الصحراء إلى حديقة من القطن والخرشوف.

والفكرة هى أننا قد نجحنا (إن يكن مع كثير من الأذى والمعاناة خلال ذلك). فمن المرحلة البدائية الأولى للرأسمالية، جمع الأمريكيون رأس المال وعائد

الدخل، لإقامة أساس لتنمية متقدمة فيما بعد ـ رخاء عام قائم على التصنيع والاستهلاك الجماعى. ويعرف الجادون من النخبة الحاكمة فى البلاد النامية، ربما أفضل من الأمريكان أنفسهم، التاريخ الحقيقى لاقتصادنا، ويستمدون منه التعليمات. ويستنتج بعضهم أن أخلاقيات البيئة هى حجاب للنفاق، يخفى نسخة أخرى من الاستعمار التقليدى القديم، لكن بشكل جديد.

قد يكون لديهم بعض الحق فى وجهة النظر هذه، لكن القضية ليست قضية نفاق. هى فى المرتبة الأولى، قضية الرأسمالية الصناعية وأمراضها ـ الميل إلى التكرار، جيل بعد جيل عبر القرون، والأشكال نفسها من سوء المعاملة والاستغلال والتى كان يعتقد سابقًا أنه قد تم حظرها والقضاء عليها، وبينما يتم التوسع فى الإنتاج والتسويق لفتح مناطق جديدة، تم إحياء الممارسات المخزية للنمو، ولايوجد من يوقفهم ـ المصانع "الشيطانية المظلمة" نفسها التى انتقدها وليم بليك، والعائدات السهلة نفسها الناتجة عن النهب بدون مبالاة.

استغرق الأمر قرنين من الزمان أو أكثر بالنسبة للأمريكيين، لتطوير السلطة السياسية من أجل القضاء على أكبر التجاوزات المسيئة والمخزية للإنسان. كما استغرق الأمر فترة أطول بالنسبة لنا، لكى نفهم، ثم نقاوم التدهور الصناعى للعالم الطبيعى. ومع ذلك، ها نحن مرة أخرى نواجه كليهما.

الدول الفقيرة، وهى تكافح لتكون أكثر شبهًا بنا (أو على الأقل أقل فقرًا)، لا يمكن أن تصل إلى المشكلة المنهجية للرأسمالية، مثلما لا يمكنهم منع شهية الاستهلاك الآخذة فى التزايد. فإن هذا الأخير يحرك الأول، وبالفعل فقد جذب ازدياد الطلب على السوق فى الدول الفقيرة منتجينا الحريصين جدًا، على ركوب الموجة نفسها (على الأقل حتى تتسبب الأزمة المالية فى انهيار معدلات نموها). وتستمر هذه العجلة فى الدوران. من ذا الذى لديه القدرة فعلاً على إيقافها؟ وبصرف النظر عن المشككين الراسكانيين (أى الذين يتبعون مذهب الفيلسوف راسكين) الذين يرغبون فى حياة نقية ومرتبة، من حقًا يريد أن يوقفها؟ فكر فى ذلك فى المرة القادمة التى تركب فيها طائرة بوينج ٧٤٧.

شاهدت صورة حية لمعضلة المرور العالمية فى شوارع بكين. كانت حركة السير عند غروب الشمس، على طول شارع "السلام الأبدى"، مشهدًا آسرًا ـ متناسقًا ومثيرًا للقلق فى الوقت نفسه ـ لأن الصين هى على حافة الدخول إلى عصر السيارات الذى دخلته أمريكا قبل نحو قرن من الزمان، إن تكن لم تحقق ذلك بعد، لكن ملكية السيارات فى تزايد سريع، وقد تنافس جميع صانعى السيارات فى العالم للحصول على حصة من السوق.

تحدث الاختناقات المرورية فى بكين فى تقاطعات الشوارع العريضة، حيث تلتقى السيارات والدراجات، فى محاولة للالتفاف حولها، أو عبور مسارات بعضها البعض. ومثل أسراب من الطيور الصامتة، تنزلق الحشود من راكبى الدراجات الهوائية، على طول الممرات ، لتجد نفسها فجأة وجهًا لوجه أمام طوابير من السيارات والشاحنات الصغيرة. وتتصادم المركبات، ولكن لا أحد يستسلم؛ لا أحد من الطرفين يتراجع. وتصبح المواجهة تشابكًا ميئوسًا منه بين المركبات غير المتكافئة، الكل يحاول المرور من مسافة بوصة واحدة، وهى المسافة التى تفصل بينهم.

ويمكن للمرء أن يشجع الدراجات، لكن يبدو واضحًا أن الغلبة ستكون للسيارات فى نهاية المطاف، تمامًا كما حدث للخيول والمشاة منذ جيل مضى فى المدن الأمريكية. قد يجادل البعض، أنه قد يكون ضربًا من الجنون أن تتخذ الصين هذا الاختيار. ينبغى عليها، بدلاً من ذلك، أن تتبنى، بكل صبر، أنظمة السكك الحديدية، ونظم النقل الجماعى فى المدن. لكن يعلم رجال التخطيط فى الصين أن استراتيجية الصبر ليست هى الوسيلة للحصول بسرعة على صناعة سيارات، على المستوى العالمى، تصدر السيارات إلى السوق العالمية.

اختارت الصين صناعة السيارات، وكذلك اختارها الشعب الصينى الذى لديه القدرة المالية لاقتناء السيارات، تقريبًا للأسباب نفسها التى أحب من أجلها الأمريكيون صناعة السيارات. تقدم هذه الآلات قيمة حقيقية تضاف لتجارب الإنسان: السرعة والراحة، والتوفير فى الوقت والجهد، والفردية فى الاختيار، والمكانة.

الكابوس بالطبع، هو احتمال أن تصبح الصين، الذى يبلغ عدد سكانها ١,٢ مليار مواطن، فى يوم ما فى درجة من الرخاء تجعلها تستهلك السيارات بمعدل الاستهلاك نفسه فى الدول المتقدمة. فى الصين الآن معدل امتلاك السيارات الخاصة هو سيارة لكل ٦٨٠ شخص وفى الولايات المتحدة المعدل هو سيارة لكل ١,٧ شخص. هل يستطيع العالم مجاراة مثل هذا التقدم؟ إذا لم يكن الأمر كذلك، من الذين يجب أن يتخلوا عن سياراتهم، الصينيون أم الأمريكيون؟ تبدو الإجابة واضحة لباقى العالم.

فى أمريكا، فى الوقت الحاضر، رغبة المستهلك الجديدة، هى امتلاك شاحنة، أو سيارة رياضية مجهزة، تنقل رسالة تحذيرية "أفسح الطريق"، التى تنقلها سيارات الشرطة. فى أى طرف من النظام العالمى يكمن الجنون؟

لقد كشفت عولمة الإنتاج، المغالطة الرئيسية التى تكمن دائمًا وراء الأفكار النمطية للتقدم الصناعى: يمكن للمرء أن يؤمن بفكرة أن التوسع الصناعى اللانهائى قد يحرر، فى نهاية المطاف، كل شخص فى العالم من الفقر، فقط مادام أنه ليس هناك احتمال أن يحدث هذا فى الواقع. الآن، وقد أخذ العالم لمحة ملموسة عما ينطوى عليه هذا التوسع، يصبح واضحًا استحالة التوسيع فى الاستهلاك الجماعى. تصطدم الحدود المحدودة للأرض مع اشتهاء الإنسان "للأشياء"، وتأثيرها يترك الجميع يلهثون ـ البشر، والنبات، والحيوان، والأرض نفسها.

ومع ذلك يتقدم السوق. أحد الاستجابات، هو موقف أعتقد أن الكثيرين يلمسونه وإن لم يتم التعبير عنه دائمًا، هو نوع من الحماية البيئية المغرقة فى المثالية: أغلقوه. أى بمعنى أوقفوا عملية التصنيع قبل أن تقتلنا جميعًا. ولكنى لا أرى أن هذا اختيار إنسانى مطروح، أو معقول، لأسباب تتعلق بالعدالة وبالسياسة.

ومن ملاحظاتى، فإنه حتى هؤلاء الذين يتعرضون للمعاملة السيئة المخزية من جانب النظام العالمى الناشئ، يتطلعون إلى ما يعدهم به هذا النظام: الحصول

على دخل ثابت من الأجور، والهروب من الفقر الدائم. وبالتأكيد، فإن كثيرًا من المواطنين الأصليين يقعون فى هذا الشرك ضد إرادتهم (مثلما اكتسحت التنمية الأمريكية الشعب الأمريكى الأصلى). بالتأكيد، يحتاجون لمساعدتنا، لكن ليست هذه هى القصة كاملة.

أظن أنه من الوهم، أن يعتقد الأمريكيون أن أشد الناس فقرًا، فى أشد البلاد فقرًا، هم فى الحقيقة لا يريدون التدخل الصناعى فى حالتهم هذه القديمة من الفقر الموحل. والهجرات الكبيرة التى تجرى الآن فى جميع أنحاء العالم ـ الملايين الذين يتركون ديارهم فى بحث يائس عن العمل والأجور، تشهد على هذا التطلع لحياة أفضل فى جميع أنحاء العالم.

وعلى الرغم من اختلافاتهم الواسعة فى الثقافة والتاريخ، أعتقد أن كل الناس فى كل مكان، الأغنياء هم والفقراء على حد سواء، يريدون الأشياء الأساسية نفسها فى الحياة: الكرامة الشخصية والرفاهية، مع قدر من التحكم فى مصائرهم الخاصة. وفى هذا هم منجذبون، بطبيعة الحال، إلى الإمكانيات التى توفرها لهم الكهرباء، أو السيارات، أو السباكة المتقدمة. والاعتراف بتطلع الإنسانية العالمية لتحسين الأوضاع المادية، لا يبرر أنماط الدمار الحالى فى النظام العالمى، أو أى من الأعمال الوحشية التى تتعامل بها هذه الأنماط مع الشعوب البريئة. وعلى العكس من ذلك، فإن قبول عالميتنا يجعل الوحشية العشوائية تبدو حتى أكثر قسوة، ويبدو التدمير أكثر شؤمًا.

لا يمكن للأمريكيين التنصل من مسئولياتهم عن المعضلة العالمية، بإلقائهم اللوم على مشاعر المواطنين المتخلفين فى البلاد الفقيرة، أو على جشع بعض الشركات متعددة الجنسيات. وبعد كل شىء، نحن المستهلكون. هذه المصانع الجديدة التى تولد ثروة جديدة فى البلاد النامية، تقوم أساسًا على شحن الأحذية، والقمصان، والألعاب، والإلكترونيات الاستهلاكية، ورقائق شبه الموصلات، والصلب، والكيماويات، وحتى المكونات الرئيسية للسيارات والطائرات، وذلك لأغنى المستهلكين كافة.

على سبيل المثال، فإن الأزمة المالية، التى بدأت فى تايلاند وانتشرت فى أرجاء جنوب شرق آسيا، ليست آسيوية حقًا لكنها عالمية. وكانت الشركات الأمريكية متعددة الجنسيات، والبنوك، والممولون، شركاء كاملين فى بناء فقاعة الاستثمار الزائد عن الحد والتى انهارت، وكذلك كان الحال مع اليابانيين والأوربيين. وبالطريقة نفسها، فإنه لم يعد كافيًا التعرف على الآثار السلبية الناجمة عن التنمية بصفتها إندونيسية، أو تايلاندية، أو حتى صينية.

صدَّرت أمريكا نظامها المزدهر، وديناميكية تاريخها الخاص، كنموذج للآخرين. لقد بشرت بعقيدة كيفية جعل "الغير فقيرًا"، يحصل على المساعدة، ويستثمر فى اللاعبين الجدد الذين يتبعون القواعد، وفى بعض الأحيان، يعاقبون البعض لانحرافهم عن النص. ولا يحتاج المرء للتجول فى تلك الأماكن البعيدة، ليرى أن الأزمة العالمية للاستهلاك هى حقًا، أولاً وفى المقام الأول، أمريكية. إن نموذجنا هو الذى يعمل به الآخرون، وليس من المرجح أن يتغير بصفة أساسية حتى نبين لهم كيف يفعلون ذلك.

والفكرة الرائعة لإمكانية وجود "عالم واحد" للتجارة، يربط بين المنتجين والمستهلكين، والعمال والمستثمرين، عبر مسافات شاسعة، هو الاعتراف أنه لن يكون هناك مكان للاختباء. وسنعمل معًا على شروط البقاء، أو ربما لن نفعل ذلك على الإطلاق.

والنتيجة الطبيعية الأساسية ليست مفهومة جيدًا، على الأقل بين الأمريكيين: عدم المساواة الاقتصادية هى أساسًا، كما أعتقد، قضية بيئية. ولا أقصد أن كل شخص يجب أن يصبح غنيًا مثل الأمريكان، من حيث اقتناء السلع المادية، أو أنه يجب أن تمهد غابات المطر، لإفساح الطريق أمام إقامة مراكز التسوق. لكننى أعنى ببساطة، أن ارتفاع مستويات الدخل والاستهلاك، وعملية التصنيع نفسها، هى عناصر ضرورية لأى حل أساسى. هذا صحيح، بالطبع، بالنسبة لتلك الشعوب التى لا تزال تواجه فقرًا دائمًا، لكنه ينطبق أيضًا على أغنى البلاد.

والنقطة التى أثيرها هنا، هى حول الواقع السياسى أكثر من كونها حول الأخلاق. فأى عمل بيئى الذى ببساطة يخفض التكاليف إلى الحد الأدنى من

درجات سلم الدخل، سواء كان هذا سيؤدى إلى فرض المعاناة على الدول الفقيرة، أو فرضها على الأمريكيين من الطبقة العاملة، يدعو إلى الركود وصراعات سياسية التى تسيرها الطبقات، والتى يسهل جداً على المصالح التجارية استغلالها. وفى أغنى البلاد، على سبيل المثال، قد ينتج عن "الضرائب الخضراء" هذا التأثير المنهك، إذا كان لا يقدم القائمون على الأمر عوضًا للمستهلكين فى أسفل درجات السلم.

فى النهاية، ينبغى أن يؤدى ذلك وفى البلاد الفقيرة، إذا استمرت التنمية وفقًا لشروط أكثر إنصافًا، إلى تسوية معدلات النمو السكانى، تمامًا كما حدث فى البلاد ذات الاقتصاديات المتقدمة. وبصراحة أكثر، فإن أضمن طريقة لتعزيز سلوك الطبقة المتوسطة، وتعزيز القيم العامة، هى التأكد من قدرة الناس على تحقيق دخول الطبقة المتوسطة. وليس بالضرورى أن تهتم شعوب أخرى، بمجرد أن تضع أسس الرفاهية والازدهار المستقر، بهذا الهوس الاستهلاكى الذى يبدو أنه متوغل فى الحياة الأمريكية ـ المزيد من اللعب الجديد للحصول على المركز، وليس الراحة.

وحتى إذا جاء هذا اليوم السعيد، فمازالت هناك المعضلة الكبرى التى يجب أن تحل. والخروج من هذه المعضلة ليس بالسر، وهو لا شىء غير التحول الصناعى، سواء فى الإنتاج أو فى الاستهلاك، وإعادة تحديد الأفكار التقليدية للنمو الاقتصادى على أساس كيفى، يقضى على توليد النفايات. وكما نعلم، فإن التكنولوجيا موجودة بالفعل، يمكن أن تحقق الكثير من هذا التحول، ولكن معظمها يطبق فقط بشكل هامشى.

ما يعتبر عقبة أكثر من القوة السياسية للمصالح الراهنة، هو المواقف الموروثة للناس: التوقعات الحالية للمستهلكين الذين يتم مكافأتهم، وتعزيز موقفهم فى الأسواق. ومن المؤكد أن ذلك يشكل عائقًا هائلاً، لكن يمكن تغييره. ولأننى مازالت أؤمن بالإمكانيات الديمقراطية، فإنه يمكن أن يتبع تغيير الثقافة العامة للناس، تغيير فى النظام الصناعى.

والناس فى حاجة إلى الكثير من المساعدة، لتعلم كيفية التفكير والتصرف بطريقة مختلفة. فأعمال إعادة ترتيب الفكر التقليدى، تأخذ مجراها منذ سنوات كثيرة. وعلى الرغم من المقاومة الرهيبة من جانب المصالح الراسخة، فإن هذا النضال، فى الواقع، يصنع تقدما للأمام. وعلى الرغم من أن نتائج مؤتمر كيوتو حول تغيير المناخ، لم تكن مرضية بشكل كاف، فإنها جاءت دليلاً على تغيير السياسة على نطاق عالمى. ويجب أن تكون الانطلاقة الكبرى القادمة هى تغيير الاقتصاد.

وأحد المساهمات الرائدة فى هذا الصدد، هو أعمال هيرمان إى. دالى Herman E. Daly، خاصة الكتاب الذى قام بتأليفه مع رجل الدين جون بى. كوب الابن John B. Cobb Jr. من أجل الصالح العام[1]. وأنا من بين الكثيرين الذين تعلموا من دالى Daly تفكيك الذرائع العلمية المحيطة باقتصاديات السوق (وهدمها). إنه ذلك الاقتصادى النادر، الذى لديه الحكمة والشجاعة الكافية لمراجعة مهنته، ليصف الإهمال الغريب، والتناقضات التى يتضمنها النموذج الاقتصادى. حتى الآن، لا وجود للعالم الطبيعى فى النموذج القياسى للإنتاج والاستهلاك، ومع ذلك، فمن المفترض أن يكون لانهائيًا. فى الحياة الحقيقية، بالطبع، العالم الطبيعى هو مخزن محدود من المواد، وبالوعة لكل ما هو مهمل ومحطم.

ستغير نظرة دالى Daly، الثاقبة، فيما يتعلق بالمعنى الحقيقى للكفاءة، كل حسابات الربح والخسارة، والتقدم والتخلف. ورغم أنه مازال يقاوم أفكاره معظم خبراء الاقتصاد، فإن هذه الأفكار هى أساس حركة واعدة لإعادة تحديد النمو كيفًا بدلاً من كمٍ. ويمكن أن يحدد هذا الإطار، اقتصاديات جديدة يصبح فيها النمو مرة أخرى مرادفًا للتقدم الحقيقى.

خلال رحلاتى، كان دائمًا من دواعى سرورى مقابلة الناس الذين هم على الخط نفسه مع دالى Daly، على الرغم من أنهم قد يتحدثون لغة مختلفة، ويتعاملون مع المعضلة من نقاط انطلاق أخرى. أحدهم، المهندس الصناعى اليابانى هيرويوكى يوشياوا Hiroyuki Yoshiawa، الذى عمل على تطوير "الرجل

الآلى (الروبوت) الاجتماعى" لأداء الوظائف المتدنية، أو الخطرة. عندما قابلت يوشاواYoshiawa، كان رئيسًا لجامعة طوكيو، قمة النظام التعليمى فى اليابان. وبدلاً من مناقشة الآليات المبرمجة، شرع فى تحليل حماسى عن كيف ينقذ العالم نفسه.

بدأ يوشياوا Yoshiawa، حديثه قائلاً: "لقد حان الوقت لقيام نوع جديد من الثورة - نوع من العمليات الإنسانية فى التغيير، تقدم الحل الوحيد لمشاكلنا". ماذا كان يعنى بالضبط؟ كان يعنى حرفيًا، إعادة اختراع النظام الصناعى، وعملياته، ومنتجاته، لإكمال النصف المفقود. ويتصور "مصنع زائد ومصنع ناقص، مصنع طبيعى ومصنع عكسى" - وهو نظام يغلق حلقة المُدخلات والمُخرجات، ويحمى الطبيعة حتى فى الوقت الذى يضاعف فيه العمالة الصناعية.

أوضح يوشياوا Yoshiawa أن العملية يجب أن تكون تنمية منسقة... من أجل تحسين نوعية الحياة، وأيضًا من أجل تطوير هذا النوع الجديد من الصناعة"، وأضاف قائلاً: "وإذا فعلنا ذلك، إذا طورنا هذا البعد الجديد، سوف نكون أحرارًا، وسوف نخترع نظامًا صناعيًا جديدًا وأيضًا سنستطيع حل مشاكلنا الاجتماعية الأكثر عمقًا".

خرجت من هذه المقابلة مسرورًا، بسبب تفاؤل يوشياوا Yoshiawa، لكن أيضًا أفاقتنى هذه المقابلة على الصعوبات التى تواجه تحقيق رؤيته البانورامية. بمعنى، أنه قدم رؤية مهندس كنسخة أخرى لاقتصاد هيرمان دالى Daly. ويؤدى منطق الاثنين على حد سواء، إلى تغيير جذرى. لكن المرء لا يستطيع التقدم فى هذا الطريق، دون الاصطدام مرة أخرى بمسألة العدالة وعدم المساواة الاقتصادية. والهدف الرئيسى، على أى حال، هو توحيد التكاليف الحقيقية للإنتاج مع سعر السوق للاستهلاك. لكن كيف يمكن للناس أن يدفعوا ثمن جودة أعلى، إذا كانت دخولهم الحقيقية قد انخفضت، فى حين تتمتع الأقلية برخاء رائع؟ ولا يمكن أن يتوقع من المجتمع أن يتملق، أو يُكره المشروعات الخاصة على قبول تسعير التكلفة الكاملة للسلع، إذا كان القيام بذلك سيؤدى، ببساطة، إلى تحويل الاقتصاد النشط إلى اقتصاد مترنح.

ويوافق كل عالم بيئة على آن سعر التكلفة هو الهدف، ولكنى لا أشعر آنه قد تم بذل جهد كاف لحل المشاكل الأساسية للدخل، وعدم المساواة. وهذا، أيضًا، يتطلب تغييرًا جذريًا، أى فهمًا اجتماعيا جديدًا، مثل النظام العالمى نفسه. الآن نحن جميعا معًا فى هذا، ولن يتم إنقاذ شخص واحد، ما لم يتم إنقاذنا جميعًا.

من الناحية النظرية، جميع هذه المشاكل قابلة للحل، إذا ما تم تركيز الاهتمام الإنسانى والإنفاق العام عليها بجدية،. ويمكننى أن أتصور، بشكل بسيط، إصلاح قانون الضرائب، وتغيير آولويات وطنية، لإنشاء نظام للحوافز السلبية والإيجابية فى السوق، آو لإنشاء برامج الدعم لتطوير عمليات الإنتاج الجديدة، والمنتجات الجديدة التى تلبى رؤية كل من دالى Daly ويوشياوا Yoshiawa. ومتى قبلت الأمة آن القضاء على النفايات فى كل شىء هو ضرورة أساسية، سيظهر أمامنا عدد وفير من الأهداف.

هذه خيارات صعبة، لكنها قابلة للتصديق من الناحية التكنولوجية. هل يمكن أن نتصور سيارة عالمية، متوفرة فى كل مكان تقريبًا، ولا تلوث البيئة، ولا يتم التخلص منها بعد بضع سنوات من الاستخدام؟ بالطبع. والنماذج موجودة بالفعل. والسؤال هو: هل الناس العاديون قادرون على تحمل تكاليفها إذا تم إنتاجها؟ إن دور الحكومة هو خلق سوق للجديد (تماما كما خلقت الحكومة سوقًا للتسلح)، لكن الأمر أيضًا يتعلق بتوفير المساعدات المالية التى تحتاجها الكثير من الأسر لشراء النوعية عالية الجودة، والسلع المعمرة، التى تصر الطبقات العليا على افتنائها.

وفى النهاية، هذه المسائل سياسية، وليست عوائق اقتصادية، وليست هناك حاجة لليأس. إذا كان يمكن أن يخترع الإبداع البشرى ما يؤدى إلى تحطيمنا، فبالتأكيد يمكن أن يخترع الناس الأذكياء، الطيبون، وسيلة للخروج من هذه المعضلة.

ماذا حدث فى المجتمع الاستهلاكى؟

الإنفاق التنافسى والنزعة الاستهلاكية الجديدة

جوليت شور

ما هو الخطأ الذى حدث فى المجتمع الاستهلاكى؟ على الرغم من أن بيانات استطلاع الرأى التى تم إجراؤها، تشير إلى أن هناك استياء قويا من جانب الرأى العام فيما يختص بالاستهلاك المتزايد للمجتمع الأمريكى، فقد فشلت جميع المناقشات الفكرية ضد المجتمع الاستهلاكى، فى الحصول على تأييد شعبى واسع. بعض هذه المناقشات كانت تصدر من منبر حكم النخبة الضحل، أو من وجهة نظر أنه يمكن اتباع أسلوب المناورة مع المستهلك. والبعض الآخر، مثل الرسائل المناهضة للمادية الخاصة بالدين والأخلاق، وإلى حد ما، البيئية، تتجنب هذه المشاكل، لكنه فشل فى التحدث بقوة كافية عن اهتمامات المواطن الأمريكى العادى. لماذا؟ هناك سبب واحد مؤكد، وهو أن الوعى الشعبى مازال عبداً للأيديولوجية الليبرالية التى تعتبر أنه لا يمكن مهاجمة الاستهلاكية.

ولا نجد مثل هذا الفكر الليبرالى وبتلك القوة، إلا فى النظام الاقتصادى. وبالنسبة لرجال الاقتصاد، فإن الجواب على السؤال: "ما الخطأ الذى حدث فى المجتمع الاستهلاكى؟" هو :"لا شىء". فالاستهلاك ليس مشكلة، بل يفترض أنه حل يضمن الرفاهية بالقضاء على الألم، وخلق متعة أو، إذا استخدمنا المصطلحات التقنية، توفير "منفعة". وهكذا فإن الاستهلاك هو "الطيب" الذى يحل مشاكل "الشرير" المختلفة (الجوع، البرد، الضجر، إلخ). هذا الاتجاه، فى معظمه، يؤكد على الخصائص الوظيفية، أو النفعية، للسلع والخدمات. فتوفر الملابس للمرء الدفء، أو من الناحية الجمالية، تسبب له السعادة ؛ ويشبع الغذاء

الجوع، أو يرضى حاسة التذوق القادرة على التمييز؛ وتنقل المواصلات المرء من مكان لآخر. على الرغم من أن هذا التأكيد لا تمليه النظرية نفسها، فإن التحيز الشخصى والتفضيل السياسى للاستنتاجات التى تؤيد سوقًا استهلاكيا حرا، قاد رجال الاقتصاد إلى نهج غير نقدى ومبسط، لسلوك المستهلك وهو، عمليا ودون شك، أن كل ما يفعله المستهلك هو فى صالحه. وقد أدى هذا الموقف من عدم التدخل، إلى تباعد رجال الاقتصاد عن الوظائف الاجتماعية والرمزية للإنفاق، التى تعتبر من أبرز الوظائف فى علم دراسة الإنسان (الأنثروبولوجى)، وعلم الاجتماع، وفى التحليل الأدبى. وعلى أى حال، تصبح هذه الأبعاد، بمجرد أن نقدم هذه التحليلات الاقتصادية، مثيرة أكثر للاهتمام، وتصبح أكثر حسمًا. وأبدأ هنا بالفرق الجوهرى فى طريقة النظر إلى الإنفاق على أنه، فى المقام الأول، عمل فردى أو عمل اجتماعى.

ومن وجهة نظر الكلاسيكية الجديدة، فإنه يعتقد أن نمط الاستهلاك نابع من توزيع عشوائى للمذوق الفردى، والتفضيل فردى، فضلا عن متغيرات أخرى واضحة، مثل هيكل الأسرة، ومستوى الدخل. وبالمقارنة، فإن توزيع هذا الذوق وهذا التفضيل، فى النهج الاجتماعى، ليس توزيعًا عشوائيًا بين السكان، لكن يتوافق مع بنية واضحة، ومن بين سماته المميزة، الطبقة الاجتماعية والاقتصادية. وللبعض من الذين لديهم خلفية مماثلة لتلك الطبقات، أذواق وأنماط استهلاكية مشتركة. ولا يمكن إيعاز هذه التشابهات إلى الاحتياجات الوظيفية فقط (على سبيل المثال، تشترى الأسر كبيرة العدد السيارات الستيشن، وهو نوع من السيارات العائلية الكبيرة)، لأننا نجده أيضًا فى الحالات التى لا تنطبق عليها - أو ينطبق عليها القليل من الاعتبارات الوظيفية (على سبيل المثال، التذوق فى الفن، وفى الموسيقى، وفى الغذاء، و فى الأزياء، وفى الديكور).

وليس بالشىء الجديد حقيقة أن أنماط الإنفاق تختلف حسب الطبقة الاجتماعية. فمنذ مائة عام مضت، جادل تورشتين فيبلين Thorstein Veblin، فى مؤلفه الكلاسيكى نظرية الطبقة المرفهة Theory of Leisure Class، أن "الاستهلاك الواضح"، ويعنى استعراضًا واضحًا للإنفاق التقديرى، كان الوسيلة

التى يكشف الأفراد بها عن مواردهم الاقتصادية، وبالتالى عن وضع اجتماعى مستقر[١]. انحدرت السلع "إلى أسفل" التسلسل الهرمى الطبقى، فى عملية محاكاة تحدث عند كل مستوى. ويمكن أن نجد تحليلا حديثًا، وإن كان ربما أكثر تعقيدًا، فى مؤلف بيير بورديو Pierre Bourdieu التمييز: نقد اجتماعى للحكم على الذوق Discrimination: A Social Critique of the Judgment of Taste[٢]
ويجادل بورديو Bourdieu بأن الطبقة الاقتصادية ليست هى فقط التى تؤثر على أنماط الاستهلاك، لكن أيضًا ما أسماه "برأس المال الثقافى". وفى رأيه، أن الناس تكتسب رأس المال الثقافى من خلال التنشئة الاجتماعية والأسرية، ومن خلال الخلفية التعليمية. ويشكل رأس المال الثقافى هذا، أذواقهم وما يفضلون. ويصبح الذوق، وكذلك اختيارات المستهلكين المرتبطة به، تعبيرًا عن موقف طبقة. ويقول بيرديوBourdieu:

بينما تعتبر أيديولوجية السحر والجاذبية الشخصية (الكاريزما)، والذوق فى الثقافة الشرعية، منحة من الطبيعة، تُظهر الملاحظات العلمية أن الاحتياجات الثقافية هى نتاج تربية وتعليم: وأثبتت استطلاعات الرأى أن جميع الممارسات الثقافية (زيارة المتاحف، والذهاب للحفلات الموسيقية، والقراءة، وما إلى ذلك)، وكذلك الاختيارات المفضلة فى الأدب، والتصوير أو الموسيقى، ترتبط ارتباطًا وثيقًا بالمستوى التعليمى (تقاس بالمؤهلات أو بطول مدة التعليم)، وتأتى فى المرتبة الثانية بالنسبة للأصل الاجتماعى... ويقابل كل تسلسل هرمى للفنون المعترف بها اجتماعيًا، والذى يضم كل منها أنواعًا أدبية، ومدارس وفترات زمنية، تسلسل هرمى اجتماعى للمستهلكين. وذلك يمهد للذوق لأن يصبح أداة لصنع "طبقات"[٣].

ما هو الدليل التجريبى لوجهة النظر القائلة بأن الطبقة الاجتماعية تشكل الاستهلاك؟ فى الأدب الأمريكى، وإلى حد أقل فى الأدب البريطانى، والأدب الأوروبى، أُفقدت التقاليد السابقة، التى أكدت على الطبيعة الطبقية للاستهلاك، جاذبيتها. لم يتكرر فى العقود الأخيرة، البحث الأمريكى الكلاسيكى، مثل دراسات "مدينة اليانكى" "Yankee City" لدبليو. لويد وارنر W. Lloyd Warner

وزملائه[٤]. ولا توجد فى البلاد الأخرى، استطلاعات للرأى مماثلة لتلك التى يعتمد عليها بورديو Bourdieu فى فرنسا. (ومع ذلك، كانت هناك بعض المحاولات، على نطاق أصغر، مثل عمل دوجلاس هولت Douglas Holt فى الولايات المتحدة)[٥]. وما يوجد بالفعل هو أبحاث التسويق. و قد طورت شركات القطاع الخاص، نماذج تجريبية موسعة. وتهدف هذه الشركات إلى جمع بيانات وتوقعات عن نفقات المستهلكين، وعن الأذواق. ومعظم هذه النماذج مخططات تصنيفية (الرمز البريدى، والرقم الممنوح فى التعداد والرسوم البيانية النفسية) للتنبؤ بأنماط الإنفاق بين القطاعات الفرعية المختلفة لأى مجموعة معينة من السكان. وعلى الرغم من أن هذه النماذج لم تخضع لتحليل آكاديمى دقيق، فإنها مفيدة. وأكثر ما يثير الاهتمام من بينها، هو النماذج السكنية، والتى يكون فيها رقم التعداد ـ وهو وحدة أصغر من الرمز البريدى ـ مؤشرًا قويًا لأنماط إنفاق الأسر. وتُعلمنا خطط التصنيف السكنية، أن الاستهلاك يظل منظمًا بمتغيرات يمكن تمييزها، والتى ترتبط بدورها، بمعايير مختلفة للطبقة الاجتماعية. والأنماط ليست واضحة تمامًا كما كانت قبل ستين عامًا، عندما كان يمكن معرفة الطبقة التى ينتمى إليها الفرد بسهولة: من محتويات غرفة المعيشة. هناك اليوم تنوع أكثر بكثير فى الأنماط، وكذلك هناك سلع أكثر يجب أن توضع فى الاعتبار، وأيضًا اختلافات واضحة فى كيفية حدوث الاستهلاك، بالإضافة إلى ما يستهلك. ومع ذلك، فإن البنية الاجتماعية الأساسية، ما زالت قائمة، وما زلنا نستطيع تمييز الطبقة، وبعض المعايير الاجتماعية الأخرى، عن طريق مجموعة واسعة من المنتجات: طراز المفروشات، أنواع الطعام، مشاهدة التليفزيون المحلى من عدمه، ما يفضل فى الملابس، والسيارات، أماكن قضاء العطلات، ومجموعة أخرى واسعة من الخيارات.

ولا تعكس أنماط الإنفاق التفاوت فى البنية الاجتماعية فقط، لكنها أيضًا تعيد التأكيد عليه مرة أخرى. فامتلاك ذوق سليم، وارتداء الملابس المناسبة، وإظهار بعض السلوكيات الراقية، كلها وسائل للانتماء لمجموعة اجتماعية متميزة، وللمحافظة على هذا الانتماء. وفى كلمات بورديو Bourdieu، الحياة اليومية

مملوءة بأعمال "مصغرة" لأوضاع اجتماعية تؤدى إلى الإدراج فى، أو الاستبعاد من، الجماعات الاجتماعية المفضلة. ويستخدم أفراد الطبقة المميزة عاداتهم الاستهلاكية للحفاظ على هوية طبقتهم، واستبعاد الطبقة الأقل مقامًا. هذا، على سبيل المثال، كان الغرض، منذ عدة قرون، من القوانين الاستهلاكية التى حظرت طرازًا معينًا من الملابس، وأنشطة إنفاق أخرى. الاستهلاك البارز اجتماعيًا، أو الاستهلاك "الواضح"، هو إستراتيجية رئيسية استخدمتها الجماعات ذات الوضع الاجتماعى المتميز، للحفاظ على مكانتهم.

ودور الإنفاق فى إحداث بعض التفاوت بين الطبقات، هو دور حديث للغاية. ففى العصور السابقة، عندما كان يتحدد الوضع الاجتماعى بالميلاد، والتاريخ، والطبقات، لعب الإنفاق دورًا ثانويًا فى الحفاظ على الوضع الاجتماعى. وكان الاستهلاك مقيدًا أكثر بالمكانة الاجتماعية، كما يتضح من القوانين محددة الإنفاق، والمحرمات الثقافية مثل عدم الإنفاق من واقع "منزلة الفرد الاجتماعية" وهكذا. وبحلول القرن العشرين فى الولايات المتحدة، وإلى حد ما فى وقت لاحق فى أوروبا، كان النظام الاستهلاكى قد أصبح أكثر انفتاحًا، وكان من الممكن لمجموعة أوسع من الأفراد الإنفاق، كما تفعل الطبقات الغنية، أو المتوسطة (إذا استطاعوا الحصول على الدخل الكافى). بالفعل، يصبح الاستهلاك أكثر أهمية فى المجتمعات حيث الميلاد، والتاريخ، والطبقة هى أقل أهمية، وحيث تمثل السيولة النقدية المكانة الاجتماعية. وما يجعل الإنفاق يلعب دورًا بارزًا فى إنشاء المركز الاجتماعى والهوية الشخصية، هو التحضر، والتعليم الرسمى، واختفاء العلاقات الاجتماعية التقليدية. وهكذا، تكتسب السلع، فى المجتمع الاستهلاكى الحديث، نوعًا جديدًا من الأهمية الرمزية. (وللاستهلاك أهمية رمزية فى كل المجتمعات، لكن للمجتمع الاستهلاكى، دور فى تكوين الهوية الشخصية والمكانة الاجتماعية، إلى حد ما يحجب دوره الرمزى فى الطقوس، والدين، وهكذا). وأخذ فى التزايد الآن، مفهوم أن ما ترتدى وما لا ترتدى، يحدد من أنت، ويحدد مكان وجودك على الخريطة الاجتماعية. وعلى الرغم من أنه يجب الإشادة بالمرونة الاجتماعية فى الوقت الحالى، فإن هذا ليس بلا ثمن. يواجه الأفراد المزيد من

الضغوط لاستخدام دخلهم من أجل الوصول إلى فئة اجتماعية مرغوبة. وهذه مشكلة، لاسيما فى السياق الذى يحكم فيه على الفرد "بنوعية حياة" منخفضة لفشله فى تحقيق مكانة فى الطبقة المتوسطة. فى تلك الحالات، يمكن أن تكون الضغوط على الأفراد والأسر، لكى تنفق من أجل تحقيق وضع ما، ضغوطًا مكثفة.

وهكذا، يستلزم الآن الانتماء إلى طبقة اجتماعية معينة، استهلاك مجموعة من السلع والخدمات الضرورية. وفى مثل هذا العالم، هناك دائمًا عملية ديناميكية يتم عن طريقها تحديث، هذه المجموعة وتوسيعها وتعديلها من السلع والخدمات. ويشار إلى هذه العملية الديناميكية فى الاقتصاد، باستهلاك الوضع، أو استهلاك المكانة، أو الاستهلاك النسبى، أو فى لغتى، الاستهلاك التنافسى. والميزة الرئيسية فى هذه المناهج، هى أن الاستهلاك يؤدى إلى الرفاهية والرضا، ليس على أساس مستواه المطلق ولكن دائمًا فى علاقته بمستوى الاستهلاك الذى حققه الآخرون. يشكل هؤلاء الآخرون ما أطلق عليه علماء الاجتماع مصطلح مجموعة مرجعية. وهكذا، عندما يحصل جارى على منتج جديد، ينخفض مستوى رفاهيتى، وذلك ليس إلا بحكم تخلفى نسبيًا. ومن أجل تفادى هذا الانخفاض، يجب أن أشترى أنا أيضًا هذا المنتج الجديد، وبالتالى "مواكبة الأمور". وبالمثل، تقوم مجموعة صغيرة من المستهلكين المبتكرين بامتلاك، منتجات جديدة أو تحديثها، وهم بداية يحسنون من وضعهم، من خلال رفع مركزهم النسبى. وفى نهاية المطاف، يصبح امتلاك المنتجات شيئًا عامًا عندما يحاول الناس تغيير الانخفاض فى مستوى رفاهيتهم، الذى نشأ عن فشلهم فى امتلاك منتجات جديدة، إلى الاتجاه العكسى. وهكذا، تنتشر المنتجات بين جميع فئات المجتمع. فيمكن للإعلان والتسويق، اللذين يعززان معلومات عن المنتجات، أو عن انتشارها المتزايد، أن يسارعا من عملية الانتشار، وإن كان انتشارها سوف يحدث حتى بدون هذه الجهود من جانب المنتجين.

فى هذه الحالات، تصبح عملية نقل المعلومات حاسمة. كيف يمكننى معرفة مقتنيات جارى الجديدة؟ هذه المعلومات، فى المجتمعات الصغيرة، المفتوحة، هى،

بشكل أو بآخر، شفافة. فنحن نعرف بعضنا بدرجة كافية تجعلنا نقوم بزيارة منازل بعضنا بشكل متكرر. مما يمكننا من معرفة ما تم شراؤه، ومن الذى قام بالشراء. أما فى الأماكن غير المألوفة لنا، فإن متطلبات المعلومة تكون أكثر تعقيدًا، وتؤدى إلى الحالة التى تحدث فيها الاستهلاكية التنافسية، ولا يكون هذا مع كل السلع، ولكن مع مجموعة معينة من المنتجات. ولكى تنطبق حالة المنافسة، يجب أن يرى الجميع هذه البضائع، سواء عند استخدامها، أو عند تملكها. وتقليديا، كان الملبس، والمسكن، والسيارات، من العلامات المهمة التى تشير إلى الطبقة الاجتماعية، لأن جميع هذه الأشياء فى متناول الرأى العام، ويمكن التحقق من استخدامها بسهولة. أما المدخرات، ووقت الفراغ، والتأمين، والأثاث المنزلى، والأجهزة التى لا يراها الزائرون، فتلعب دورًا صغيرًا فى عملية منح المكانة الاجتماعية. ويعنى الفرق بين سلعة يراها الجميع، وأخرى لا يراها أحد، أن الأولى تلعب دورًا خاصًا، ومميزًا فى العملية الديناميكية. ولأن الأبعاد التنافسية للإنفاق مقصورة على هذه السلع الفرعية، فغالبًا ما يخفض المستهلكون من نفقاتهم على المنتجات التى لا تُبرز الوضع الاجتماعى، والإنفاق على المنتجات التى تقوم بهذا الدور. ويحدث ذلك خاصة فى الفترات التى يشتد فيها التنافس فى الإنفاق.

ويؤكد الوصف الكلاسيكى لما حدث بعد الحرب لعملية التنافس الطبقى هذه، مثل وصف جيمس دوسينبرى James Duesenberry وروبرت فرانك Robert Frank، دور المقارنة التقرُبى، أى، المقارنة بين الأفراد والأسر التى تقترب من بعضها البعض فى الوضع الاقتصادى(٦). وأثار تفسير دوسينبرى Duesenberr، على الأخص، عالم الطبقة المتوسطة التى تسكن الضواحى. وكان هناك تشابه كبير بين العائلات متوسطة الحال. وفى عالم كهذا، كانت الطبقة المتوسطة فى نمو، والتوقعات تقول إنها ستحتوى جميع الطبقات الأخرى. لذا فهناك تجانس بين الأمة وبين أنماط إنفاقها.

بداية من الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تغيرت تلك الظروف. ظهر ما أطلق عليه النزعة الاستهلاكية الجديدة. والنزعة الاستهلاكية الجديدة هى أكثر

رقيًا، بمعنى أن هناك وضعًا استهلاكيًا عدوانيا أكثر منه دفاعيا (وهو مماثل لتفسير فيبين Veblen للوضع الاجتماعى بين المجموعات المتميزة فى مقتبل القرن)(٧). والنزعة الاستهلاكية هى مجهولة أكثر، وأقل اعتدالاً اجتماعيًا عن النظام القديم الخاص "بمواكبة الأمور"، أى مسايرة الطبقة. ويعود ذلك، جزئيًا، إلى أن الجماعات المرجعية أصبحت ممتدة رأسيًا. فالآن الناس أكثر عرضة لمقارنة أنفسهم مع، أو التطلع إلى، أساليب حياة الطبقة الأعلى فى التسلسل الهرمى الاقتصادى. أصبحت شخصيات مثل بيل جيتس Bill Gates? رئيس شركة ميكروسوفت، أو نائب رئيس شركة ميكروسوفت، الهدف الأكثر انتشارًا الذى يتطلع الناس لمحاكاته.

ومن الأسباب الرئيسية لهذا التغيير، هو تراجع دور الجيران كمجموعة مرجعية بارزة. ولأن الأحياء تضم الأفراد من ذوى الدخل المماثل، (المنازل هى الأصول الرئيسية لمعظم الأسر، ويضم الحى منازل ذات قيمة مماثلة)، فاستخدام الجيرة معيارًا، جعل الناس جزءًا متأصلا فى المقارنة التقريبية. لكن، كما تدهور الحى، كمحور للتفاعل الاجتماعى، كذلك تدهور دوره الراسخ، ونشأ بدلاً منه، مكان العمل، كموقع خصب للمقارنة الاستهلاكية. وما أدى إلى التزايد السريع لهذه العملية، هو الأعداد المتزايدة من النساء المتزوجات اللاتى نزلن إلى سوق العمل، ولاسيما فى وظائف ذوى الياقات البيضاء، والوظائف المهنية. فهن يتعرضن فى مكان العمل لمجموعة مرجعية أكثر تنوعًا مما كانت عليها ربة المنزل النموذجية فى الضواحى، وبالتالى أكثر عرضة للدخول فى مقارنة الاستهلاك التصاعدى (على سبيل المثال، مقارنة أنفسهم بالرؤساء الذين يحصلون على دخول أعلى بكثير). ويؤيد هذا المنظور، بيانات استطلاع الرأى الذى قمت به لحوالى ٨٠٠ موظف من شركة اتصالات سلكية ولاسلكية رئيسية (المشار إليه لاحقًا باستطلاع الاتصالات): حيث حددت ٢٪ من العينة فقط، أن جيرانهم هم المجموعة المرجعية الرئيسية لهم، ولكن٢٢٪ حددوا زملاءهم فى العمل(٨).

ولأن الناس أصبحوا يقضون وقتًا أقل فى منازل جيرانهم، وحتى فى بيوت الأصدقاء، فقد جاءت مشاهدة التليفزيون لتحل مقام العلاقات الاجتماعية.

ارتفعت ساعات المشاهدة بنحو ٥٠٪ منذ منتصف الستينيات من القرن التاسع عشر، ويعتقد أنها الآن تشغل ما يصل إلى ٤٠٪ من وقت فراغ البالغين. فى الوقت نفسه، زاد اهتمام الأمريكيين من جميع الطبقات بالخصوصية، وأصبحوا يحصنون منازلهم ضد استراق النظر، بالجراجات، والأسوار. وهكذا زادت أهمية التليفزيون كوسيلة لتوفير المعلومات حول أنماط إنفاق الآخرين. وشخصيات التليفزيون "أصدقاء" التسعينيات، هم المصدر الرئيسى لأفكار الاستهلاك، وللتوقعات، والتصورات والتطلعات والمقارنات. على سبيل المثال، فى استطلاع أقيم فى عام ١٩٩١ وجد كل من سوزان فورنيه Suzan Fournier ومايكل جايرى Michael Guiry، أن ٣٥٪ من العينة، حددوا الإعلانات التليفزيونية وإعلانات المجلات:٢٧٪ حددوا البرامج التليفزيونية بأنها هى "حقا مصدر للأفكار العظيمة"، حيث تساعدهم فى الحصول على، أو شراء الأشياء، التى يحتفظون بها فى قوائم، كرغبات يحلمون بتحقيقها٩. وفى كلمات توماس أو جوين Thomas O'Guinn، وإل. جى. شروم L.J.Shrum، اللذين أجريا أبحاثًا عن المستهلك: "يستخدم التليفزيون رموزًا استهلاكية كوسيلة للاختزال البصرى: تشكل ما تملكه الشخصيات التليفزيونية، والأنشطة التى تشارك فيها، وضعها الاجتماعى. يرى المشاهدون، ويسمعون، ما يملكه أفراد الطبقات الاجتماعية الأخرى، وكيف يستهلكونه، حتى وهم خلف أبوابهم المغلقة"[١٠].

لكن يعطى التليفزيون (كما تفعل وسائل الإعلام العامة الأخرى، مثل الأفلام، والإعلانات، والمجلات الراقية) صورة تميل بشدة لأنماط الإنفاق، وتصور بشكل حصرى تقريبًا، الطبقة فوق المتوسطة والطبقة الغنية. ويؤدى هذا إلى تضخم فى إدراك الأمريكيين لأساليب حياة الآخرين. وعلى سبيل المثال، وجد كل من جوين Guinn وشروم Shrum، أنه كلما قضى الناس وقتًا أطول فى مشاهدة التليفزيون، كان من الأرجح اعتقادهم أن الأمريكيين الآخرين لديهم ملاعب تنس، وطائرات خاصة، وسيارات مكشوفة، وهواتف سيارات، وخادمات، وحمامات سباحة[١١]. وأيضًا للمشاهدين، من مدمنى مشاهدة التليفزيون، تصور مبالغ فيه لنسبة السكان الذين هم من أصحاب الملايين، ويخضعون لجراحات التجميل، ويشتركون

فى صالات الألعاب الرياضية الخاصة. وعلاوة على ذلك، تؤثر أيضًا أنواع البرامج التى يتم مشاهدتها، على التشويه التصاعدى، مثل المسلسلات التى تبث بالنهار أو فى الأوقات المبكرة، التى تساعد على هذا التشويه أكثر مما تفعله البرامج الأخرى.

وجدت فى استطلاع الاتصالات الخاص بى، أن هناك تأثيرًا مباشرًا لمشاهدة التليفزيون: أنه مرتبط بمزيد من الإنفاق، وقليل من الادخار. وتعتقد النظريات الاجتماعية للاستهلاك، أن معدلات التضخم تزيد من التطلعات، وبذلك تؤدى إلى مزيد من الإنفاق. وقد وجدت فى تحليلاتى، أن كل ساعة مشاهدة للتليفزيون فى الأسبوع، تزيد الإنفاق السنوى بما يقدر ب٢.٨ دولارًا سنويًا(١٢). وهناك دليل آخر على الصلة بين الإنفاق ومشاهدة التليفزيون، يشير إلى آن هناك ارتباطًا بين الديون والمشاهدة الزائدة للتليفزيون. وفى استطلاع للرآى أجراه "صندوق أسرة ميرك" فى عام١٩٩٥، صاحب ارتفاع الاستجابة بأنهم "يشاهدون التليفزيون آكثر من اللازم"، بشكل مطرد، ارتفاع فى مستوى المديونية، حيث إن أكثر من النصف (٦٥٪) من الذين ذكروا أنهم غارقون فى الدين، قالوا إنهم يشاهدون التليفزيون أكثر من اللازم(١٣).

ونتيجة لمشاهدة التليفزيون، وعمليات مقارنة جديدة، بدأ الجميع تقريبًا فى المراقبة، والتطلع إلى المعايير التى وضعتها الطبقة المتوسطة العليا وطبقة الأغنياء. ويقترب آسلوب حياة هذه المجموعة، التى تمثل الـ٢٠٪ الأعلى فى توزيع الدخل، من وضع الرموز الثقافية، التى ينظر إليها هؤلاء من ذوى الدخل الأقل، على أنها ضرورية بشكل متزايد وتستحق الاقتناء. ووجد الباحثان، سوزان فورنيه Susan Fournier ومايكل جايرىMichael Guir، أن٣٥٪ من عينة المستهلكين تطمح فى الوصول إلى الـ ٦٪ الأعلى فى توزيع الدخل، و ٤٩٪ أخرى تتطلع إلى الـ١٢٪ التالية. وذكرت١٥٪ فقط من العينة أنها راضية أن "تعيش حياة مريحة" أى، كطبقة متوسطة(١٤).

وثمة مؤشر آخر لرفع المستوى، وهو أنه يميل الناس الآن أكثر إلى الاعتقاد بأن السلع المادية يمكن أن توفر حياة جيدة. وتعتقد أعداد متزايدة من الناس أن

المنازل التى يتم قضاء العطلات فيها، وحمامات السباحة، والسفر إلى الخارج، والملابس الجميلة، والكثير من المال، والسيارة الثانية، هى رمز للحياة الجديدة. وأخيرًا، فإن نسبة السكان التى تحدد المواد الاستهلاكية المختلفة كضروريات وليست كماليات، قد زادت زيادة كبيرة منذ عام ١٩٧٣(١٥). فالانتشار المتزايد، وأهمية العلامة التجارية للسلع فائقة الجودة، (وكذلك السلع الرخيصة المقلدة) هى مؤشر آخر على نمو أنماط الحياة الراقية. ويبدو أن العلامات التجارية قد انتشرت فى مجموعة كاملة من المنتجات، التى كانت من قبل تفتقد مثل هذه العلامات بهذه الكثافة.

أحد الأسباب التى تجعل الـ٢٠٪ الأعلى مهمة جدًا كهدف نمط حياة، هو ازدياد هذا الجزء من نصيب السكان من الدخل القومى بشكل كبير. وبدأ التحول فى السبعينيات من القرن التاسع عشر، ولكنه ازداد باطراد فى الثمانينيات والتسعينيات. وبازدياد الدخل بالنسبة الـ٢٠٪ الأعلى ـ يرجع إليهم الآن ما يقرب من نصف مجموع الإيراد السنوى المكتسب ـ كان دخل الـ٨٠٪ أقل من ذلك. وبالمثل، أصبح النمط، بالنسبة لـ٢٠٪ الأعلى، أيضًا به عدم مساواة، وذلك بسبب مزيد من تدفق الدخل للـ ٥٪ الأعلى، وكان أحد نتائج هذا التغيير تكثيف الإنفاق التنافسى. بدأ الأغنياء والأغنياء السوبر، نتيجة للزيادة فى الدخل، موجة من استهلاك واضح للسلع الكمالية، التى بدأت فى أوائل الثمانينيات. جاء فى ركبهم، من ناحية تقليد الإنفاق الفاخر، أفراد الطبقة فوق المتوسطة. (وهكذا بدأ ما يسمى بعقد الجشع). وبالنسبة للـ٨٠٪ الأدنى، فبينما أحرزت بعض التقدم، لكنها فقدت نسبياً بعضًا من هذا التقدم للطبقة التى فوقها. فليس من المستغرب أن تظهر استياء وتشاؤمًا وتشترك فى جولة تعويضية من مواكبة الاستهلاك.

وهكذا خضع الإنفاق التنافسى، لعملية تغيير رئيسية كبرى منذ ما يقرب من عام١٩٨٠. فقد أصبح أفراد الـ٨٠٪ الأدنى من السكان مع تراجعهم النسبى، أكثر ميلاً لتقليد أصحاب الدخل الأعلى. وازداد، بشكل كبير، الفرق بين ما يتطلعون إليه، والدخل المتاح لهم، الذى يمكنهم من الإنفاق ـ ما أسميه "فجوة التطلع". وتنمو فجوة التطلع بازدياد هيمنة أنماط الحياة الراقية على هذه التطلعات،

فيجد غالبية المستهلكين أنفسهم فى حالة إحباط بسبب أن دخولهم غير كافية لتلبية رغباتهم. وقد اصطدمت هذه الديناميكية بشدة، على الأخص بالأسر ذات الدخل ما بين ٥٠٠٠ دولار و٧٥٠٠٠ دولارًا، مساهمة بذلك فى الضغط الملحوظ، وعلى نطاق واسع، على الطبقة المتوسطة. (وليس من المستغرب، أن تكون هذه هى المجموعة التى ارتفعت فيها بشكل كبير ديون بطاقات الائتمان). وبينما فجوة التطلع كانت فى حدود الـ٢٠٪، فى أيام المقارنة التقريبية، نجدها الآن أعلى من ذلك بكثير. وأظهر استطلاع للرأى عن الأسر فى الولايات المتحدة، أن مستوى الدخل اللازم لتحقيق حلم الفرد، أى لتلبية تطلعاته، تضاعف بين عامى١٩٨٦ و١٩٩٤، وهو حاليًا ضعف متوسط دخل الأسرة[١٦].

ويمكن التكهن بالعلاقة بين فجوة التطلع، ومجموعة السلوكيات الاستهلاكية المفككة التى ازدادت بشكل ملحوظ منذ عام١٩٨٠. وأشير هنا إلى انخفاض مدخرات الأسر، وارتفاع ديون بطاقات الائتمان (خاصة بين الأسر ذات الدخل المرتفع)، والزيادة فى سرقة المتاجر، وزيادة جرائم العنف من أجل الحصول على سلع الرفاهية (أحذية رياضية، وسترات جلدية، ونظارات شمسية)، وحدوث زيادة محتملة فى متلازمة الشراء الجبرى.

فى الواقع، من المغرى التكهن بمشكلة طويلة المدى، وهى التحكم فى المستهلك. وإذا أخذنا منظور القرن العشرين بأكمله، قد يتساءل المرء عما إذا كان يمكن للبشر أن يتحكموا فى أنفسهم بشكل كاف فى هذه الجنة الاستهلاكية الحديثة. فمن ناحية، تآكلت بشكل كبير، القيود التقليدية (أو المسماة البدائية) على الإنفاق بغرض التفاخر والرفاهية، فضلاً عن القيود الدينية والأخلاقية على الاستهلاك. ومن ناحية أخرى، أصبحت جهود المنتجين، والمعلنين، والمسوقين، لإنشاء بيئة إنفاق مغرية، أو حتى لا تقاوم، أكثر انتشارًا وتطورًا عن أى وقت مضى. ما هو التأثير طويل المدى "للدين" الجديد للنزعة الاستهلاكية، الذى ظهر منذ ما يقرب من مائة عام مضت، الذى يكون فيه الإنفاق، والإنفاق بلا حدود، الذى أشيد به كثيرًا، بوصفه شيئًا إيجابيًا، وعلاجيًا، وذا فائدة للاقتصاد؟ قد تكون الإجابة أننا لا يمكن السيطرة على أنفسنا فى مثل هذه البيئة.

وقد اقتصرت مناقشتى حتى الآن، على الطرق التى تغيرت فيها ديناميكية الاستهلاك فى الولايات المتحدة. وأعتقد. على آى حال، أن لهذه التطورات أيضًا صلة بالاقتصاد العالمى الجديد. فالنفوذ المتزايد للشركات متعددة الجنسيات، التى توزع المنتجات الاستهلاكية الأمريكية، وظهور وسائل إعلام شعبية، ونظم اتصالات إلكترونية، فى جميع أنحاء العالم، والاتجاهات العالمية فى عدم المساواة، تشير إلى أن النزعة الاستهلاكية الجديدة قد تنتشر خارج حدود الولايات المتحدة. ولعل ما هو أكثر وضوحًا، هو تزايد نفوذ الولايات المتحدة، وشركات المنتجات الاستهلاكية حول العالم تحث إلى اعتناق نمط حياة استهلاكى؛ فيتم تشجيع الناس على التخلى عن المنتجات العادية، وتلك التى لا تعبر عن وضع اجتماعى مرتفع ، والتحول من الأنشطة غير السلعية (مثل تنظيف الأسنان باستخدام خشب الأشجار) إلى تلك التى تقدم سلع (فرش الأسنان ومعجون الأسنان)؛ أو الحصول على سلع جديدة تقدمها الشركات متعددة الجنسيات الغربية. هذه العملية هى الأكثر تطورًا فى أوروبا، لكنها كذلك تتزايد بشكل كبير فى آسيا، وأفريقيا، وأمريكا اللاتينية، بين كل من الطبقات المتوسطة والطبقات الفقيرة. وكلنا يعرف تلك الأمثلة الدرامية والفاضحة مثل: الارتباط بين معدل وفايات الأطفال الرضع، ووصفات الرضاعة الطبية، ووجود ما يعرف بسوء التغذية التجارى الجينى، حيث يستبدل الناس الأغذية الصحية التقليدية، بالكوكاكولا ورقائق البطاطس، أو السيدات اللاتى يروجن لمنتجات شركة "إفون" Avonللتجميل، اللاتى يعبرن نهر الأمازون لحث النساء الفقيرات لكى ينفقوا جزءًا كبيرًا من دخولهن الضئيلة على شراء مستحضرات التجميل(١٧).

ولكن، حتى بغض النظر عن هذه الأمثلة المثيرة، فمن الجدير الأخذ فى الاعتبار الدور طويل المدى الذى تلعبه تلك المنتجات ذات العلامة التجارية الغربية. وعلى الرغم من أن تلك المنتجات ذات العلامة التجارية، تمثل حاليًا فقط نسبة ضئيلة من مجموع الاستهلاك خارج الدول الصناعية، فإنها تعتبر أساسية لتفعيل نموذج الاستهلاك التنافسى، ويضع نموها الأساس لانتشاره وتعميقه. وعلاوة على ذلك، فإن الجوانب السلوكية الأخرى للشركات الأمريكية تستحق

النظر. وهذه تشمل، نقصًا فى دورة حياة المنتج، ومستويات عالية من الدعاية والتسويق بالنسبة لتكاليف الإنتاج (أى مضمون رمزى عال للبضائع)، وتركيزًا على ما يسمى بجماليات السلعة (أى الاستثمارات الضخمة فى جماليات التصميم)، وعدم المؤازرة البيئية فى الإنتاج والاستخدام.

وأخيرًا، بما أن وسائل الإعلام الأمريكية، وغيرها من وسائل الإعلام الغربية الشائعة بين الناس، أصبحت أكثر أهمية فى جميع أنحاء العالم، فيمكننا أن نتوقع منها أن تلعب دورًا متزايدًا فى تحديد تطلعات المستهلك. ويمكن لمجموعة الـ٢٠٪ من الغرب، أن تصبح، بشكل متزايد، مستوى قياسيا للتطلعات فى جميع أنحاء العالم. كما يعتقد الأمريكيون الذين يشاهدون التليفزيون بكثرة، أن حمام السباحة، أو السيارة الفاخرة، هى معيار الاستهلاك الأمريكى، كذلك أيضًا القرويون فى الصين، والبرازيل. ويبدو نمط حياة ثرى وصعب الوصول إليه بشكل متزايد، طبيعيًا، وبالتالى من الضرورى تحقيقه. وقد ظهرت بالفعل فجوة تطلع عميقة، وقد تأخذ فى النمو. وتؤدى هذه الفجوة إلى تفاقم الضغط من جانب مجموعة طبقة النخبة، والطبقة المتوسطة، لزيادة حصتها من الدخل القومى.

وهكذا، عالميًا، فإن ثقافة الاستهلاك قد تكثف عملية الإنفاق التنافسى، حيث توجد فقط بعض الحدود القليلة، تكون فيها فجوة التطلع واسعة الانتشار، وفى حالة نمو دائم، وتكون فيها البدائل، التى ثبتت أنها تسهم كثيرًا فى رفاهية الإنسان (أوقات الفراغ، والادخار، والسلع العامة)، مكتظة بسلع الطبقة المتميزة. ومن شأن ذلك أن يشكل فشلا عميقًا فى قلب الاقتصاد العالمى.

يقترح التحليل السابق عددًا من الأسانيد لإقامة نقد أكثر صرامة، وأكثر إقناعًا، ويكون شاملاً للمجتمع الاستهلاكى أكثر مما هو فى نقد الأدب. وهناك ثلاث حجج تطرح نفسها. أولاً، هناك جانب من هزيمة الذات فى الاستهلاك التنافسى. وإذا كان ما يهم هو المستويات النسبية، بدلاً من المستويات المطلقة للاستهلاك، نجد أن الزيادة العامة فى الإنفاق لا تزيد المنفعة، ولكن تترك الناس فى الوضع نفسه الذى كانوا عليه قبل هذه الزيادة. وفى الحالات القصوى، حيث تكون المنفعة موضعية، لا تمنح الزيادة العامة فى الإنفاق أى منفعة إضافية على

الإطلاق. هذا ما يسمى بسمة نموذج "معضلة السجناء" - حيث يكون الجميع أفضل حالا إذا تعاونوا، لأن الاستهلاك له تكاليف، مثل العمل المستهلك، والموارد الطبيعة المستخدمة، وهكذا. لكن بدون كيان لخلق تعاون، تكون النتيجة سيئة للجميع. والمدى الذى يقوم به سيناريو "معضلة السجناء" بتمييز الاستهلاك الحالى، هو بطبيعة الحال، مسألة تجريبية، لكن الأدلة التى تم جمعها، فيما يختص بالدخل والسعادة، تشير إلى أن الزيادة العامة فى الدخل لا تؤدى إلى تحسن فى مستوى السعادة الذاتية، وفى مستوى الرفاهية. والأدلة متسقة للغاية مع نظام هزيمة الذات، وهى فى الواقع حلقة مفرغة.

والمشكلة الثانية للاستهلاك التنافسى هى أن الضغط لمواكبة الحصول على السلع المظهرية، وتلك الخاصة بالطبقة العليا، يزاحم الاستخدامات الأخرى التنافسية للدخل. والاستخدامات الأربعة الرئيسية التنافسية للدخل هى: أوقات الفراغ، والادخار، والسلع العامة (بما فى ذلك البيئة). وتشير تجربة العقدين الماضيين فى الولايات المتحدة، إلى معقولية هذه الديناميكية. فقد ارتفعت ساعات العمل إلى حد كبير، وبلغ معدل ادخار الأسر فى عام١٩٩٧ (٢,٩٪)، وهو الأدنى خلال ستين عامًا؛ ومن أجل تخفيض الضرائب والعجز العام، تم تخفيض الإنفاق العام بشكل كبير. إذا ظهرت نوعية حياة راقية، من خلال مجموعة متنوعة من الاستخدامات للموارد الاقتصادية، بما فى ذلك وقت الفراغ، والسلع العامة عالية الجودة، والأمن المالى، فإن تكثيف الضغوط للإنفاق على السلع الخاصة بالطبقات المميزة، ينتج عنه نتيجة تنافسية مؤسفة.

وأخيرًا فإن ظهور فجوة التطلع، تسببت فى عدم الارتياح المستمر بين المستهلكين، والذى لا يمكن علاجه على أى مستوى من الدخل المطلق. إذا كان ما يريده الناس، يتحدد إلى حد كبير، بما لدى المجموعة الثرية ذات الدخول المتزايدة، فسيكون مازال لدى أعداد كبيرة من الناس، الاعتقاد بأنها لم تحقق ما يكفى. هذا التطلع، إلى جانب، فى بعض الأحيان، السلوكيات المدمرة المرتبطة به، يخلق مأساة مستمرة فى المجتمع الاستهلاكى الحديث.

الاستهلاك من أجل الحب

إدوارد إن. لو تواك

يعلن الأمريكيون حبهم الكبير للحرية الفردية، وهم فى ذلك يلجأون لتبريرات تاريخية كثيرة. ومع ذلك، فإنهم مستعدون لبيع أنفسهم للشيطان من أجل مجرد تجميع كل ما هو ليس من الأساسيات، بدءًا من الشاحنات الكبيرة والقوية، المستخدمة فقط سيارات ملاكى، إلى بعض الأشياء التافهة المصنوعة من الخزف، والتى يعلن عنها فى التليفزيون ("المتاع القيم والفورى مقابل فقط خمس دفعات سهلة مقدارها١٩,٩٩دولارا!"). ولكى يدفعوا مقابل عادتهم الشرائية، يعمل الأمريكيون، خلال عام، ساعات أكثر من أى شعب متقدم آخر على وجه الأرض، فيما عدا اليابانيين. وفيما يتعلق بالعطلات، يأتى اليابانيون مرة أخرى فى المقدمة، بمعدل ٢٥يومًا فى العام، مقابل٢٣ يوما للأمريكيين ـ هذا جزء هزيل من وقت الفراغ، بالمقارنة بالألمان ٤٢ يوما، و٣٨ يوما للفرنسيين الذين يعتبرون أن ذلك غير كاف.

حقيقى، أن البعض يشعر بالرضا الكامل عن وظائفهم، فهم يعيشون لكى يعملوا. لكن كثيرًا من أولئك الذين يعملون من أجل المال فقط، حريصون على العمل ساعات إضافية، ويسعون حتى للحصول على وظائف ثانية، مضحين بحريتهم الشخصية، والحياة العائلية، لمجرد تمكنهم من الاستمتاع باستهلاك أكثر. فى الواقع، لا يختار كثير من الأمريكيين العمل من أجل الشراء ـ فهم يجب أن يعملوا ليدفعوا الفوائد، وليسددوا أصل الدين على ما قاموا بشرائه بالفعل.

ويوفر المقتصدون من شرق آسيا جزءًا كبيرًا مما يكسبونه، ويضعون جانبًا ما يصل فى الصين إلى نصف دخلهم الشهرى، وفى اليابان إلى ثلث الدخل، الذى يعتبر أكبر من الدخل فى الصين. ويوفر الأوربيون ما يقرب من ربع الدخل. وبالمقارنة، يوفر الأمريكيون القليل جدًا، وهذا المبلغ آخذ فى الانتقاص ـ مؤخرًا أقل من واحد على عشرين من الدخل الشخصى. وحتى هذه النسبة المنخفضة بشكل هائل. تمثل متوسطًا يميل للانحراف بشدة بسبب المدخرات الكبيرة للأسر ذات الدخل المرتفع. فى الواقع، يوفر معظم الأمريكيين، أقل القليل، ويقترضون بكثرة، من كل المصادر الممكنة: من مصدر بطاقات الائتمان بفائدة عالية جدًا، ومن مصادر تسليف الإسكان، مع المجازفة بفقد مساكنهم، ومن المصارف واتحادات الائتمان. وتصل القروض إلى حد الائتمان، ومن مقرضى الرهن العقارى، بالنسبة للمبالغ الكبيرة، ومكاتب المرهونات للمبالغ الأصغر.

لم يخترع الأمريكيون وسيلة الدين، ولكن هناك ثلاث سمات فريدة بشأن مديونيتهم. السمة الأولى المميزة للدين هى الأبعاد الجامحة، التى تستمر فى الازدياد. بحلول منتصف عام١٩٩٧، وصل مجموع الدين لجميع الأسر الأمريكية إلى مستوى غير مسبوق، وهو ٨٩٪ من إجمالى دخل الأسر. وليس من قبيل المصادفة أن الديون الخارجية للولايات المتحدة الأمريكية الآن، أكبر بكثير من أى رقم مسجل فى أى بلد آخر، فى أى وقت فى التاريخ، لأن المدخرات المحلية، صغيرة جدًا بالمقارنة لكل من ديون الأسر، والدين الحكومى. على النقيض من ذلك، فإن الديون الحكومية الإيطالية الضخمة، نحو١٢٠٪ من الناتج الإجمالى القومى، يعوضها مدخرات محلية ضخمة مساوية لها، بحيث أصبحت إيطاليا بالفعل مصدرًا لإقراض بقية العالم.

والسمة الفريدة الثانية للمديونية الأمريكية، هى انفصالها عن الفقر، السبب التقليدى للدين الفردى والأسرى. والواقع، أن أفقر ٢٠٪ من الأسر الأمريكية لا يدينون بأى شىء، لأى شخص، باستثناء مقرضى الأموال الصغيرة، إذ إن الشروط الصارمة لا تسمح لهم بأى قروض ائتمان. الزيادة الأخيرة، فيما يسمى بقرض الرهن العقارى، والذى يحمل على وجه الخصوص فائدة عالية، ويستخدم كثيرًا

فى بيع السيارات المستعملة، تعكس إلى حد كبير اقتراض الـ٢٠٪ من الأسر الأمريكية التى تأتى فى المرتبة التالية من الفقر ـ والتى هى بعيدة كل البعد عن الفقر، وفقًا لأى معايير تاريخية، أو دولية. معظم المقترضين الأمريكيين ليسوا فقراء على الإطلاق، أو بالأحرى، أنهم لن يكونوا فقراء، لو أنهم لم يقترضوا لكى ينفقوا أكثر مما يكسبون.

والسمة الثالثة هى الاستخدام الخاص للمبالغ الهائلة المقترضة. يقترض الفلاحون الهنود من أجل إطعام أسرهم بسبب الرياح الموسمية، وكذلك لتزويج بناتهم؛ ويقترض الأزواج من الشباب فى جميع أنحاء العالم؛ لشراء الضروريات المنزلية الأساسية. وبالمثل، يتكون جزء كبير من ديون الأسر الأمريكية من قروض عقارية وقروض جامعية، لكن يذهب الكثير منها لشراء سيارات باهظة الثمن، وملابس وساعات من إنتاج مصممين، وأدوات ترفيهية متنوعة، وجميع الأشياء الأخرى التى هى، وفقًا لتعريف أى شخص، بالكاد من ضروريات الحياة. والاقتراض بفائدة ١٨٪، أو أكثر، لشراء الملابس الفاخرة هو أمر مألوف فى الحياة الأمريكية، أما ما هو غير مألوف بأى حال من الأحوال، هو استنفاذ الحد المسموح به فى الرهن العقارى للمرة الثانية، لشراء سيارة فخمة، دون ترك أى هامش للوقاية من العوز والفقر. ولا يجد حتى تجار سيارات مرسيدس بنز، وبى إم دبليو BMW، من يشترى سياراتهم نقدًا، باستثناء البعض القليل.

خوفًا من النتيجة الحتمية للادخار القليل جدًا، والإنفاق الضخم، بحيث تتخطى الديون الخارجية للولايات المتحدة ١ تريليون دولار، وهى فى طريقها لضعف هذا المستوى، بدأ حتى خبراء الاقتصاد من الأكاديميين مؤخرًا ينادون همسًا بالمزيد من الادخار، وآخرون أكثر جرأة، طالبوا باستعادة جميع أشكال التقييد الكالفينى (نسبة إلى الفيلسوف كالفين): الإكراه الكالفينى، والعقاب الكالفينى. وقد تم لهم النجاح الهائل فى جميع المجالات، فيما عدا مجال واحد. وتتقدم بقوة حملات مكافحة المواد الإباحية، ومكافحة التدخين، ومكافحة الدهون، ومكافحة التعرى على الشاطئ، ومكافحة السكر، ومكافحة الجنس، ومكافحة المخدرات، مكافحة الكحول، بينما الكثير من الأحكام بالسجن، وعقوبة

السجن مدى الحياة، والعشرات من القوانين الجديدة لعقوبة الإعدام، وعمليات الإعدام المستعجلة، وحتى العودة إلى سلسلة العصابات، كل هذا يكشف عن كيف تم التنفيس عن انعدام الأمن الاقتصادى اليوم "للرأسمالية السريعة".

كان يمكن إنجاز ذلك ببساطة أكثر فى الماضى، باضطهاد مجموعة الأقلية، ويفضل أن تكون مميزة عرقيًا، الذى دفعت وحدها ثمن الانخفاض النسبى فى الدخل لكثير من الأمريكيين، وفقدان الأمن الوظيفى لكثيرين آخرين، فى الاقتصاد الشجاع الجديد من المنافسة غير المحدودة، والتغيير الهيكلى اللانهائى. ويوفر هذا الاقتصاد الجديد فرصًا رائعة لأصحاب الألعاب المالية البهلوانية، لكن يبقى كثير من الأمريكيين لا يستطيعون النوم ليلاً، يتساءلون بخوف عن ماذا سيأتى به الغد.

اليوم، على أى حال، مع استبعاد اضطهاد الأقليات والكثير من القوانين، يمكن أن تجد كل تلك المخاوف غير المعبر عنها، وكل هذا غضب من الذين يبحثون عن لقمة العيش ولا يشعرون بالأمان، متنفسًا فقط فى حظر كل ما يمكن حظره، بما فى ذلك مواقع العرى على الإنترنت، والعقوبات القاسية عن طريق ما يسمى بنظام العدالة الجنائية، الذى يحتجز الآن ١,٨ مليون أمريكى وراء القضبان.

وهناك نموذج واحد فقط من القيد الكالفينى لم يتقدم على الإطلاق: جدار صلب من الرأى التقليدى، الذى يؤيد بصوت عال كل الحملات "المضادة"، لكن لم تحاول، حتى مجموعة هامشية، إدانة عادة الاقتراض والشراء، والتى هى أكبر عادات الإدمان الأمريكى. وهكذا، فإن الادخار، الذى هو من أهم الفضائل الكالفينية الأصلية ـ وتراكم رأس المال، والاستثمار، بدلاً من الاستهلاك ـ هو الشىء الوحيد الذى يظل فى طى النسيان. وميول الإنجيليين المهنيين، الذين يقودون الكثير من حملات "المكافحة"، هى بلا شك أحد العوامل ـ يتردد البعض من المتلهفين على شراء وحدات سكنية على الشواطئ، وشراء مجوهرات، والسيارات باهظة الثمن بمساهمات التابعين لهم، فى شجب أى شكل من أشكال المادية. هناك عامل مهم أيضًا، وهو الربط الأمريكى البالغ، بين الأخلاقيات والجشع، وهو نسخة محرفة من المعتقد الكالفينى الأصلى أن الفضيلة تكافأ بالثروة.

ومع ذلك، لابد من الاعتراف، إنصافًا للإنجيليين الماديين ولمعلمى الأخلاق، بأن هناك مبررًا قويًا لفشلهم فى تضمين إدمان المستهلك فى إدانتهم المكتسحة لكل شكل من أشكال الانغماس الذاتى. لأنه لا يوجد شىء تافه فى عادة الشراء، قد يكون هذا انغماسًا فى الذات، لكن دوافعه مستمدة من أكثر الحاجات الإنسانية عمقًا. والإنسان الأمريكى Homo americanius، مبرمج جينيًا للعيش بالدعم العاطفى المستمر من جانب العائلة بأكملها، كما هو الحال مع الإنسان Homo sapiensالقادم فى النرويج وإيطاليا، لكن غالبًا ما يعيش هذا الإنسان، فى حالة من العزلة النفسية التى لم يتكيف معها الجنس البشرى بعد.

تكون الحيوانات من الفهود على ما يرام فى العزلة المعتادة، إلا إذا كانت أمهات تربى الأشبال قبل فطامهم السريع جدًا. أما الضباع وقردة البابون، على الجانب الآخر، لا يستطيع أفرادها العيش منفردين، لكن يعيشون بوصفهم أعضاء فى أسر ممتدة، أو فى جماعات تدلل فيها بشكل مختلف، وتشعر بالارتياح، والحماية، والاطمئنان، والانضباط، ويتبعها بطاعة، فى مراحل مختلفة من الحياة، أجيال متعددة كاملة من أفراد تربطهم علاقة الدم. هناك، بالطبع، ضباع وبابون، انفصلت لسبب أو آخر عن جماعتها؛ وهم إما يموتون بسرعة، أو يبقون على قيد الحياة منبوذين، وفى حالة هياج وعصبية شديدة. وفى حالة تطوره الحالية، الإنسان العاقل هو تمامًا مثل الضباع والبابون. ومع ذلك يعيش معظم الأمريكيين بدون الدعم العاطفى الذى تتطلبه جيناتهم.

فى المجتمعات البشرية العادية، التى يتم الحفاظ فيها على الروابط العائلية الممتدة، عن طريق القرب الجغرافى من الولادة حتى الموت، أو عن طريق دعم من أولئك الذين يغادرون مقر العائلة ليقيموا فى مكان آخر، يمتلئ التقويم السنوى بسلسلة من احتفالات أعياد الميلاد، أو احتفالات دينية أو مهرجانات، وأعياد زواج ومآتم، وكلها أيضًا بمثابة لم شمل الأسرة. وبمعانقة الأطفال الصغار وتقبيلهم، وتعهد ضمنى بالمعاونة المتبادلة، والتشجيع للشباب، يتم الحفاظ على الروابط الأسرية، وإصلاحها، وتعزيزها. كما يتم تعزيز دور الأعمام والعمات كآباء وأمهات، تمامًا كما هو الحال مع أبناء العم، أو أبناء الخال، يعتبر أولادهم تجمعًا

للإخوة من الدرجة الواحدة. ويحتل الأعمام والعمات الكبار مكانة الأجداد، ومازال يعتبر حتى ابن العم، أو بنت العم، من الدرجة الثانية، بمثابة أقارب دم. ويتضح من كل ما سبق، أن الدعم المادى، والعاطفى، متوقع، ووارد، ومتبادل.

وفى مقابل هذا، أى هذا السلوك الإنسانى العادى ـ فإن معظم الأمريكيين محرومون عاطفيًا، ويعانون من الفقر فى علاقاتهم الأسرية، تمامًا مثل ما يعانى الأفغان والسودانيون، من الفقر من الناحية المادية.

بالطبع، لا يزال كثير من الأمريكيين يتزوجون، لكن زواج اليوم، هو الآن من المفترض أن يكون هشًا حتى إن لم يكن محطمًا، يسبب الكثير من القلق، ولكن أيضًا كثيرًا من الدعم، ويفشل فى أن يكون جزءًا من الأسرة الذى يحل مكان الأسرة الكاملة.

وبالنسبة للأطفال للأمريكيين، فإن الأعمام، والعمات، لهم، فى معظم الحالات، وجود، لكنه وجود متباعد. هم، فى أفضل الأحوال، مصادر للهدايا الصغيرة النادرة، وأحيانًا هم مواضيع للتندر المرح: ("ذات مرة، زرنا العم تشارلى، الذى يعيش فى كاليفورنيا، وعلى الرغم من أنه كان يومًا حارًا ...")، أو القصص الخبيثة: ("سمعت أن العم بيل ـ الذى لم ألتق به لأنه يعيش فى ولاية ماين ـ اتُهم ب...") وذلك بدلا من أن يكونوا مصدرًا للرعاية الشبه أبوية، ومصدرًا للدعم. أما بالنسبة لأبناء العمومة من الدرجة الثانية، فهم أكثر من غرباء، هذا إذا كانوا يعرفون أصلاً بعضهم، ونادرًا ما يقبل أبناء العمومة أى التزام متبادل. وحتى الأشقاء يحدون من مسئوليتهم تجاه بعضهم البعض ـ ولدى عدد ليس بقليل من المشردين، الذين عثر عليهم أمواتًا بعد ليلة شتاء باردة، إخوة، أو أخوات يعيشون فى رغد من العيش، لكنهم تحرروا من جميع أعباء الأخوة منذ فترة طويلة، ربما قد يعطون ، على مضض، القليل من الدولارات، من خارج عتبة الباب، دون السماح لهم بدخول المنزل.

وبالطبع، للآباء الأمريكيين أطفال، لكن أن تحضن طفلك، ليس كما يحضنك الطفل. علاوة على ذلك، فإن الشروط الاجتماعية نفسها التى تجعل الآباء

يعيشون فى عزلة، هى التى تحث الأولاد على العيش بعيدًا عنهم - فى الواقع. لا تعتبر إقامة الشاب فى منزل أبويه إلى ما بعد سن المراهقة، نوعًا من الاهتمام بالأبوى، لكن يعتبر مشكلة، بل وإحراجًا للأبوين.

قد تكون هذه المحنة مؤقتة فقط. قد يتكيف جيدًا، الإنسان العاقل فى غضون ٢٠٠٠ سنة، أو نحو ذلك، مع الحالة الراهنة لحياة معظم الأمريكيين. وحتى ذلك الحين، مع كثير من البراعة، استطاعت الأغلبية العظمى من الأمريكيين المتضررين أن تجد الوسائل المتنوعة للهروب من العدوان الانتحارى، أو الكآبة القاتلة التى تصيب الضباع والبابون المنعزلة. أولا، فهم يساهمون فى تفكك الروابط الأسرية: عن طريق الذهاب إلى حفلة رقص، أو لصيد الأسماك أو للعب الجولف بدلاً من حفلات التعميد، وحفلات الزفاف، وحضور الجنازات؛ أو عن طريق الرحيل إلى أماكن بعيدة من أجل تقدم اقتصادى بسيط؛ أو عن طريق الذهاب إلى متنزه، أو قضاء عطلات بمنتجع، بدلاً من جولة من الزيارات العائلية؛ أو عن طريق مكالمات هاتفية لا تتم، ورسائل غير مكتوبة، وهدايا غير مهداة. وبعد القيام بذلك، يجدون البديل، الذى قد يكون فقط فى الجبن المطبوخ، بدلاً من البرى (جبن أبيض مملح) أو الستيلتون (جبن شبيه بجبن الروكفورت)، لكن الذى بالتأكيد به الفضائل الأمريكية التى تجعل له السيادة: الرخص والتوافر الفورى.

تقوم بعض الجهات بتوفير المعادل العاطفى مثل الكنائس، والمعابد، والمعتزلات الدينية، والمقدسات، والجماعات شبه الإنجيلية، وجماعة "العصر الجديد"، وجماعات شبه الهندوسية، وشبه المسيحية، وشبه البوذية، وشبه الإسلامية، والكاثوليكية، وشبه العلمية، وشبه السياسية، والكثير من الطوائف الأخرى. وتمتلئ الولايات المتحدة بهؤلاء. تقوم كل جهة من هذه الجهات، بتقليد كاريزمى، متواضع، أو صريح، لدور الأب الذى يرشد أبناءه، مستخدمًا مزيجًا من الشدة والحب الأبوى. تسعى كل منها جاهدة لتكون العائلة البديلة. وغالبًا، ما يكون هناك الكثير من التشجيع على المعانقة، والتقبيل، أو على الأقل، إمساك الحاضرين يد بعضهم البعض، على الرغم من أن بعض الطوائف تتمسك ببعض

الأنماط المتشددة من الطاعة الشديدة للقواعد الصارمة، والقليل منها يقدم فقط بعض الأيديولوجيات المتشددة. وتروج معظم الطوائف لنفسها على أساس أنها تقدم رعاية متبادلة، بل والحب، وعلى النقيض من التركيز الدينى القائم على طاعة الله أو غير الله. وتؤكد كلها تقريبًا، على الدفء العاطفى للحضور، خلافًا للطقوس الباردة للكنائس التقليدية.

وربما تتجاوز الإيرادات المجمعة لقائمة اليوم من الطوائف الأمريكية، إيرادات صناعة الكمبيوتر ـ والتى يصل البعض منها إلى ٣٠٠ مليون دولار سنويًا، والكثير منها يصل إلى عشرات الملايين. ويعتبر هذا، وفقًا للمعيار الوحيد الذى يهم معظم زعماء هذه الطوائف وقادتها، هو بالتأكيد نجاح كبير لهذه الطوائف.

لكن هذه الطوائف أيضًا، فى كثير من الحالات، مكلفة بالنسبة للتابعين لهم. إذا وضعنا المال جانبًا ـ على الرغم من آن بعض الطوائف تطلب مبالغ كبيرة منه ـ فإن التكلفة الوحيدة هى التى تتعلق بالفكر. من أجل أن يعتنق التابعون لتلك الطوائف معتقدات غير قابلة للتصديق، وأحيانا تكون فى غاية الغرابة، يجب أن يعطلوا، طواعية، قدراتهم النقدية. ومع ذلك. هذه التضحية عادة ما تتكلف أقل بكثير، من حيث الوقت، والاهتمام، وحتى بالنسبة للمال، بالمقارنة بسنوات المعانقة، والتقبيل، والاتصال الهاتفى، والكتابة، والعطاء، والسفر، والزيارة، والاستماع، وزيارة المريض، التى يتطلبها الحفاظ على الأسر الطبيعية. بدلاً من كل ذلك، يحتاج معظم أعضاء الطوائف فقط إلى القيادة مسافة قصيرة إلى مقر الطائفة التى يختارونها، وإيقاف سياراتهم هناك. ويمكن أن يندمجوا فى أسرة بديلة فورية، وفى كثير من الأحيان، يجدون فيها التعبير عن الحب، والاهتمام من الزملاء فى الطائفة.

ولا يمكن للكنائس التقليدية، أن تتجاهل النجاح الكبير لهذه الطوائف فى جذب هذا الجمهور المنعزل. وكان رد فعل الكثيرين ذكيًا، كما هو الحال دائمًا مع المتنافسين. فهم، أيضا، الآن يفضلون مسك الأيدى والمعانقة. ويصاحب هذا، بشكل أو آخر، تغيير فى التركيز، من تقديم الطاعة، والمحبة لإله، لتوفير المحبة للتابعين أنفسهم، هذه المحبة التى تقدمها الجماعة لبعضها، إلى جانب تلك التى

تقدمها طقوس العبادة. ويمكن الحصول على الوجبات العاطفية السريعة الآن، من الكنائس القديمة التى تعدى إنشاؤها الألف عام، أو على الأقل الكنائس العلمانية، هذا بالإضافة إلى عدد لا يحصى من الطوائف الأقل قدمًا.

ويتأقلم أمريكيون آخرون مع هذه الوحدة والعزلة، بطرق أكثر خطورة، وذلك بالاستعاضة عن الأمن العاطفى المفقود، بخلق عالم قائم على الإدمان الدائم، أو المؤقت، أو العابر، للكحوليات والمخدرات. هذا الاستبدال، على عكس ما يقال، هو أيضًا ناجح فى معظم الأحوال. فبدلاً من العيش حياة قصيرة، مثل الضباع وقرود البابون، التى تقتل فى أول هجوم إذا غفلت، بدلاً من استعدادها للموت، كما تفعل الحيوانات المحبوسة فى أقفاص فى كثير من الأحيان، يحتسى الأمريكيون، المنعزلون عاطفيًا، الخمور، أو يتعاطون المخدرات، حسب ما يقتضى الأمر، وفى الوقت نفسه، يعيشون حياتهم، ويحافظون على جزء من حياتهم الأسرية ـ حياة الأسرة نفسها التى يعيشها الأمريكيون غير المدمنين. أما بالنسبة للتكلفة المالية، فغالبًا ما تكون هذه تافهة. حتى أفخم المواد المخدرة، من الصعب أن يكون لها تأثير فى ميزانية الكثير من متعاطيها، وبعضهم من أصحاب الملايين، والكثير منهم أثرياء فقط. فمدمن المخدرات المحطم الذى يوشك على الوفاة مفلسًا فى أحد الأزقة القذرة، هو أسطورة، فلا وجود له. وإذا كان هذا غير صحيح، وإذا كان متعاطى المخدرات من المنبوذين والعاطلين عن العمل، فضلا عن مرتكبى الجرائم البسيطة، فيجب إذًا على أباطرة المخدرات الكولومبيين أن يقنعوا بالمسكن والدراجة، بدلاً من القصور الفخمة والطائرات النفاثة.

والمشكلة فى الطوائف، والمواد الكيماوية التى تعمل على العقل، أن كليهما يوفر فقط راحة مؤقتة من العجز العاطفى المزمن لنوع من الجماعات التى تعيش فى عزلة غير طبيعية. إلى جانب ذلك، يرفض الكثير من الأمريكيين كلا الخيارين لأسباب تتعلق بالمزاج، والعقل، أو الحكمة.

ليست كل العلاجات الكيميائية مدمرة أو غير قانونية. ووفقًا لآخر الإحصائيات عن السمنة، يجد نصف الأمريكيين وجبتهم العاطفية السريعة فى الطعام السريع، أو بالأحرى، فى جميع الأطعمة ـ السريعة، والبطيئة، والفورية،

يجدونها فى الوجبات الخفيفة، أو فى الحلوى. والأمريكيون هم موضع حسد فى كثير من أنحاء العالم لنجاحاتهم فى مجال السياسية، والاقتصاد، وفى المجالات العسكرية، لكن هيئتهم وحدها تبين أنهم (باستثناء الذين ترجع بدانتهم لخلل فى الغدد الصماء)، يعتبرون أنفسهم فاشلين وميئوسًا منهم.

وهناك، بطبيعة الحال، العمل، والإشباع الذى ينتج عن هذا العمل، والذى يمكن أن يتغلب بالتأكيد على أى عجز عاطفى، أو حتى يمكن استغلاله لبذل مزيد من العمل. وتقليديًا، يعتبر حل العمل، كحل للعجز العاطفى، أكثر قبولاً من حل الطوائف، والمواد الكيميائية، والإفراط فى تناول الطعام، والإفراط فى أداء ساعات إضافية فى العمل، هو علاج غريب للروابط العائلية الميئوس منها، لأن العمل، فى حد ذاته، مدمر للروابط العائلية. لكن ذلك لا يجعله أقل فعالية كبديل ـ لكنه فقط كذلك بالنسبة للأقلية التى تقوم بأعمال مثيرة باستمرار، أو تلك التى يتطلب عملها تركيزًا عميقًا، مثل سائقى سيارات السباق، والعلماء المنكبين على أبحاثهم، وكبار رجال الأعمال، وتضم القائمة أيضًا الممرضات المتفانيات فى أعمالهن فى المستشفيات.

كل من العلاجات السابقة فعالة إلى حد ما، لكن أكثر العلاجات شيوعًا، وأهمية هو رفع الروح المعنوية عن طريق التقديم المستمر للهدايا.

إنه شىء لطيف جدًا أن تتلقى دائمًا الهدايا، لكن الهدايا هنا ليست هبات: فلا يقوم بإهدائها الآخرون. لأن الوضع نفسه يعنى أنه، للأسف لا توجد رعاية، أو محبه أبوية، كذلك لا توجد محبة من جانب الأبناء، والأعمام، وأبناء الأعمام. بدلاً من ذلك يشترى الأمريكيون لأنفسهم الهدايا، ويفعلون ذلك ـ ليس من خلال المحلات والمتاجر، لكن من خلال الإعلانات، والكتالوجات المرسلة بالبريد ونداءات الهاتف؛ ومن خلال الاتصال الهاتفى لطلب السلع التى يتم عرضها فى برامج التسوق التليفزيونية ؛ وكذلك، فى الآونة الأخيرة، عن طريق الطلب من خلال شبكة الإنترنت ـ مقدارًا هائلا من الملايين المتعددة من الدولارات.

فقد الطابع الأساسى للسلع الاستهلاكية المعروضة وظيفته لأن أكثر ما يقوم الأمريكيون بشرائه هو من هدايا، بما فى ذلك بعض الهدايا للآخرين. اختفى الشكل الأساسى لكثير مما يشتريه الأمريكيون هذه الأيام، تحت وطأة ثقافة الباروكى، أى البهرجة المفرطة، مثل ملابس رخيصة مزخرفة، أى ببساطة، التصميم المفرط للأشياء. وهناك أنواع كاملة من المنتجات التى كانت فيما مضى منتجات عملية، تتدرج من الأمتعة إلى أدوات الكتابة، التى تظهر الآن مختفية تحت ستار "لعب الأطفال التنفيذية". أما غضب المتزمتين بسبب تمتع بعض الأشخاص الآخرين بالسلع الفاخرة، هو حقًا خارج الموضوع. ولتفضيل المشترى الأمريكى لبعض الأشياء الغريبة عواقب اقتصادية هائلة، لأنها تعوق الصادرات الأمريكية من السلع الاستهلاكية. المشترون فى جميع أنحاء العالم، الذين ليسوا فى حاجة لرفع معنوياتهم، يرفضون شراء "هدية" ما هى إلا نسخه من الأشياء التى يسعون إليها، وأبرزها، تنتج اليوم مصانع السيارات الأمريكية، عددا قليلاً جدًا من السيارات التى ليس بها بهرجة، والتى تهدف فقط إلى توفير وسيلة من وسائل النقل. بدلاً من ذلك، تنتج "شاحنات" الركاب ذات الوزن الثقيل الفخمة، و"الشاحنات العائلية" الضخمة، والسيارات المكشوفة، والسيارات الرياضية، وكذلك عددًا ضخمًا من سيارات السيدان الفارهة.

يحصل الجميع على متعة كبيرة، لكن مشترى السيارات فى البلاد الأخرى يرفضون هذا الطراز من السيارات، لأسباب ترجع إلى الاقتصاد فى الوقود، أو الاقتصاد العادى، أو مجرد الذوق السليم. والنتيجة واضحة فى أرقام تجارة الولايات المتحدة. بدلاً من المساهمة فى الميزان التجارى إيجابيًا، فإن صناعة السيارات، التى هى، إلى حد بعيد، أكبر الصناعات الأمريكية، هى أضعف الصادرات، لدرجة أن هذا القطاع يعتبر مسئولا عن أكبر بند فى استمرار العجز التجارى للولايات المتحدة. استوردت الولايات المتحدة، وفقًا لآخر الأرقام، وقت كتابة هذا التقرير، بين الفترة من يناير إلى يوليو ١٩٩٧، سيارات بإجمالى٦٥،٣ مليار دولار، فى مقابل ٣١،٨ مليار دولار فى الصادرات، مما أدى إلى عجز قدره٣٣،٥ مليار دولار، ما يقرب من ثلث العجز التجارى الإجمالى وقدره١٠٨،٤مليار دولار خلال تلك الفترة.

وينطبق الشيء نفسه على فئات أخرى من السلع الاستهلاكية، لدرجة أن الولايات المتحدة هى الآن المصدر الرئيسى لمعدات رأسمالية، من أبرزها طائرات ركاب . وآلات دقيقة، ومعدات توليد كهرباء، فضلاً عن المواد الكيماوية -كل القطاعات التى لم تلوثها ثقافة الباروكى، أى البهرجة، التى يعتنقها المستهلك الأمريكى الذى، يخرج لشراء هدايا لنفسه.

تكشف الصورة الاقتصادية الشاملة عن عواقب آكبر. فى الاقتصاد المزدهر للولايات المتحدة فى عام ١٩٩٦، التى بلغ إجمالى الناتج المحلى ٦,٩ تريليون دولار، وصلت نفقات الاستهلاك الشخصى للسلع، ونسبة متزايدة من الخدمات إلى ٤,٧ تريليون دولار ـ وهى نسبة عالية بشكل غير عادى (٦٨٪) وفقًا للمعايير العالمية.

ولا يكون استهلاك بعض الخدمات، بطبيعة الحال، شيئًا اختياريًا تمامًا، كما فى حالة الطوارئ، والحالات الطبية المزمنة وفى المراحل النهائية من الأمراض، فضلاً عن الخدمات القانونية التى يجب أن يشتريها الكثير من الأمريكيين للدفاع عن أنفسهم فى الدعاوى القضائية. وعلى الطرف المقابل يتم شراء الخدمات الشخصية للغاية، مثل الهدايا التى نقدمها لأنفسنا (العناية بالشعر، والتدليك، والعناية بالأظافر(المانيكير). وبين هاتين الحالتين المحدودتين، هناك فئتان من نفقات الاستهلاك مثيرتان للاهتمام: خدمات المسنين، والسفر السياحى.

ينفق الأمريكيون المزيد والمزيد على دور المسنين، والمساكن الاقتصادية، وأشكال أخرى مماثلة من المشاركة المحمودة. وتقليديًا، يتم تفسير الاستهلاك المتزايد لهذه الخدمات على أنه ظاهرة ديموجرافية مباشرة. وهو بالفعل هكذا، على الرغم من أنه معدل بشكل كبير، نتيجة لانهيار العائلة ـ فإن العائلات المعنية تعتبر نفسها عائلات طبيعية جدًا وغير محطمة، وتعتبر نفسها حتى نموذجًا مثيرًا للإعجاب للحياة الأسرية.

وقد تطورت الأمور الآن، لدرجة أن عبارة انهيار الأسرة يشير إلى الأسر من الطبقة الدنيا، حيث تقوم النساء، اللائى بلا أزواج، برعاية الأبناء والأحفاد،

بمساعدات قليلة، وغالبًا ما تتوقف هذه المساعدات فيما بعد. ومن ناحية أخرى، لا يعتبر الأزواج الأثرياء، الذين يعيشون فى منازل فسيحة فى الضواحى. ومع ذلك يوكلون رعاية آبائهم لغرباء، أنهم أسرة مفككة. ولا يشير تفضيل كثير من الآباء المسنين، العيش بعيدًا عن أبنائهم، وبعيدًا عن أحفادهم، باستثناء بعض الزيارات من وقت لآخر، إلى شىء سوى إلى للدرجة التى وصل إليها اعتبار التفكك الأسرى شيئًا طبيعيًا. وأحد ضلالات التجارة الوطنية، بالمناسبة، هو أن الناتج القومى الأمريكى هو أكبر، نتيجة لأن رعاية المسنين هى من المعاملات التجارية التى تولد مبيعات مسجلة. وفى المقابل، فإن إجمالى الناتج القومى فى أسبانيا، على سبيل المثال، يتضاءل بسبب أن الأجداد يعيشون مع أبنائهم وأحفادهم. إنهم لا يقدمون أرقامًا يمكن لرجال الإحصاء جمعها، لكن يقدمون أقوى أساس ممكن للأمن العاطفى للجميع.

أما بالنسبة لنفقات السفر السياحى، فإن الأمريكيين أقل تواضعًا، بشكل ملحوظ، مقارنة بالأوروبيين، الذين هم، بالإضافة إلى قيامهم بقدر كبير من الزيارات الأسرية، أكثر ميلاً للسفر إلى جهات غريبة، وعلى أى مستوى طبقًا للدخل المتاح. هذا هو استثناء مثير للاهتمام، لأن السفر السياحى نادرًا ما يكون فرديًا؛ والأكثر غرابة بالنسبة للأزواج، هو عدم السفر معًا، ومع، أو بدون أطفال. وأحد النتائج هو أن هذا النوع من النفقات لا يتيح الفرصة لكى يقدم المرء الهدايا لنفسه، والمقصود منها تهدئة العزلة العاطفية التى يعانى منها.

وعلى أية حال، فإن ما تم ضغطه، عن طريق الكثير من الاستهلاك الشخصى للسلع والخدمات، هو الإنفاق الحكومى والاستثمار (٢,١تريليون دولار فى عام١٩٩٦)، والاستثمار الخاص (٠,١تريليون دولار فى عام ١٩٩٦)، وهو عام ازدهار أيضًا). هذا على الرغم من مساهمة متواضعة، لكن مفيدة، من العالم الخارجى بـ١٤٤ مليار دولار من العجز التجارى فى السلع والخدمات- على الائتمان، وبالطبع ـ بحيث إنه خلال عام ١٩٩٦، أضافت الولايات المتحدة مرة أخرى للإجمالى ديونها الخار. ية، بالاستهلاك الزائد.

يؤدى المستوى المنخفض للإنفاق الحكومى، وعائدات الاستثمار، لمفارقة، وهى أن بلدا غنيا جدًا به دولة فيدرالية، ومع ذلك فإن المستويات المحلية للحكومة من الفقر بحيث إنها لا تستطيع توفير الرعاية الصحية للمواطن كما تفعل الدول المتقدمة الأخرى، بشكل أو بآخر، أو مساعدة الفقراء كما يتم مساعدتهم فى كل البلاد الغنية.

أما بالنسبة لتدنى مستوى الاستثمار الخاص، فإنه على الأقل يسهم فى تأخر إنتاجية العمل، التى كثر الجدال والنقاش حولها. وهذا هو المعدل البطىء (١٪ فى العام) فى الزيادة فى إجمالى الناتج الذى يمكن الحصول عليه من قدر معين من العمل.

وأكبر ادعاء عن مرونة الأمريكيين، وبالتالى سوق العمالة الأمريكى ـ أى رغبة الأمريكيين فى الانتقال من مكان لآخر، لتغيير تجارتهم، أو حتى مهنتهم، وقبول أجور منخفضة من أجل الاستمرار فى العمل ـ هو بطبيعة الحال، كفاءته الاقتصادية. لا أحد يدعى أن الآثار الشخصية والاجتماعية لكثرة التنقل، والقدرة على التكييف الإيجابى، هى شىء مرغوب فيه، فى حد ذاته.

ومع ذلك، عندما يتم تتبع سلسلة الانعكاسات خطوة بخطوة، بدءًا من نظام اقتصادى يحقق كفاءة من خلال فرض التغيير الهيكلى المستمر، إلى تجزئة الحياة الأسرية، إلى الآثار النفسية الناتجة عن ذلك، وعادات الاستهلاك التى تترتب على ذلك، ومن ثم تأثير هذه العادات على النظام الاقتصادى، عن طريق المدخرات المنخفضة وتفضيل المستهلكين لألباروك، قد خلصت إلى أنه يمكن أن يكون الاقتصاد أكثر جمودًا، ولكن أكثر استقرارًا، أكثر كفاءة. وتكون تكاليف العمل أعلى، لكن يزيد ارتفاع معدلات الادخار، لكونها أقل حركة، والموظفين أكثر أمنًا وأكثر عرضة للتخطيط للمستقبل، والحفاظ على الروابط الأسرية، والحد من نفقاتها الاستهلاكية التى تحركها دوافع عاطفية، من رأس المال، مما سيؤدى بدوره إلى زيادة إنتاجية العمل، وتعويض ارتفاع تكاليف الأيدى العاملة.

وفى الوقت الذى يحتفى فيه بشكل كبير "بالرأسمالية السريعة" للاقتصاد الأمريكى اليوم، المحرر، والمعولم، يمكننا التذكر أنه، حتى أواخر السبعينيات من

القرن التاسع عشر، كان اقتصاد الولايات المتحدة أكثر صلابة، وأكثر استقرارا. وهذا لأن صناعات كثيرة وكبيرة، من شركات الطيران، لشركات الغاز الطبيعى، لجمعيات الادخار والقروض، كانت تخضع لنظم مفصلة، وبالتالى كانت ثابتة، مثل ما كانت القوى العاملة بها. فى ذلك الوقت، استوعب الإنفاق الاستهلاكى بكل أنواعه، الجزء المنخفض من الدخول. وهكذا كانت معدلات الادخار أعلى - وكذلك كان النمو، لعدم كفاية التنظيم المفترض. كانت هناك فرص أقل، للبهلوانية المالية، لجمع ثروة هائلة (حصل كبار المسئولين التنفيذيين فى شركات الطيران المنظمة، على مبالغ زهيدة، فقط ١مليون دولار سنويًا)، وكان الموظفون بشكل عام آمنين اقتصاديًا، لأن صناعات ثابتة تعنى وظائف مستقرة. ونستطيع أن نحكم، بناءًا على انخفاض الإنفاق الشهوانى خلال هذه الفترة، بأن الأمريكيين أيضًا كانوا أكثر سعادة.

روابط زائفة

اليكس كوتلويتز

تخرج بدرس قصير عن التخطيط الأمريكى الخاطئ وأنت تقود سيارتك عبر شارع شيكاغو ماديسون قادمًا غربا من البحيرة، حيث تتجاور الأجناس والطبقات الاجتماعية المختلفة، يمر الميل الأول من الشارع بوسط المدينة ـ الحلقة كما تسمى محليًا ـ متجاوزًا المرتفعات العليا المقام عليها البنوك، والشركات القانونية، وشركات الدعاية، والشركات الاستثمارية. والميل الثانى تحده الفنادق والمطاعم الرخيصة التى التصقت الآن بالمناطق المجاورة شرقًا وأصبحت قبلة للفنانين، حيث المطاعم الجديدة لشباب الهيبيز. وغربيًا، بعد المركز المتحد، ينحدر الطريق إلى المناطق المنخفضة المجاورة، حيث اختفت مقار الأعمال وتتراص المبانى بعضها بجانب البعض. ويجد صناع أخشاب الأبلكاج هنا عملاً كثيرًا فى إصلاح المبانى الخربة. وفى المساء، تستولى مجموعة العصابات على النواصى، حيث يقومون بعرض سلعتهم، التى تتنوع ما بين المخدرات وما شابهها طبقا لمتطلبات الوقت، فكل شىء معروض للبيع. وتقف فى أحد الشوارع بعض النساء، بأرجلهن الطويلة العارية التى تلمع تحت ضوء المصابيح، يبتسمن بإغراء متمتمين، بكلمات تصف وصفًا بليغًا المتع التى يعدن بتقديمها.

هذا هو الفساد، نتاج الحضارة، وهذه فيما يبدو هى بقايا النسخة الأمريكية للفقر، وهو ليس فقط "فقر الجيوب" لكن أيضًا، كما قالت الأم تريزا عندما زارت هذه المنطقة من المدينة، هو "فقر النفوس".

لكن أكثر ما يلفت نظرك وأنت تقود السيارة هبوطًا من شارع ماديسون، هو هذا العدد القليل جدًا من البيض الذين يقودون سياراتهم فى هذا الشارع، حيث

يقع الحى الغربى من شيكاغو، مثل كثير من الأحياء الأخرى فى المدن المركزية، بعيدًا عن كل شىء وكل شخص. لقد أصبح سكانه معزولين جغرافيًا وروحيًا عن كل ما يحيط بهم، فهم جماعة منعزلة داخل أنفسهم. وحتى العنف ـ الذى يهددنا جميعًا لا يخرج عن حدود المنطقة. فيطلق تجار المخدرات النار على بعضهم البعض، ويضرب أعضاء العصابات بعضهم البعض، فيقع الأبرياء من العابرين من سكان المنطقة مصابين أو صرعى من جراء تبادل إطلاق النار. إنها تلك العزلة التى أدهشتنى عندما بدأت أقضى بعض الوقت فى مساكن هنرى هورنر، وهى مجمع المساكن العامة بشيكاغو والتى تقع على طول شارع ماديسون. فالصبيان لافايت وفارو، اللذان كتبت عنهما فى كتابى لا يوجد هنا أطفالٌ There are no Children Here، لم يذهبا أبدًا إلى الحلقة التى تبعد ميلاً واحدًا، ولم يجوبا أبدًا صالات عرض معهد الفن فى شيكاغو، ولم يشعرا أبدًا بالرزاز المتناثر من نافورة باكينجهام، ولم يشاهدا أسماك القرش المعروضة فى معرض جون جى شيد للأحياء المائية، ولم يقفا أمام الخيول المحنطة فى متحف الميدان، كما لم يذهبا أبدًا للضواحى ولم يذهبا أبدًا إلى الريف. و فى الواقع، لم يشعرا من قبل بمتعة الاستحمام تحت الدش إلا بعد أن أقمنا فى فندق فى أحد أيام الصيف خلال رحلتهم الأولى لصيد الأسماك (فشقق مساكن هنرى هورنر بها أحواض استحمام فقط). وفى وقت ما، كان هؤلاء الصبية، متأكدين تمامًا أن أسلوب حياتهم هو الأسلوب الوحيد للحياة، وأصروا أنه يجب أن تحكم العصابات الحى الذى أقيم فيه، وهو مجتمع أرستقراطى فى الحى الشمالى للمدينة، وذلك لأنهم لم يعرفوا شيئًا آخر غير ذلك.

ومع ذلك فإن الصبية من أمثال لافييت و فارو تربطهم صلة بالاتجاه الأمريكى السائد وهو أنهم بصفتهم مستهلكين فإنهم يعيشون فى قاع المدينة منفصلين تمامًا عن العالم حولهم، يعرفون أنفسهم ليس بأنهم أبناء حى الجيتو Ghetto Kids لكن بأنهم أمريكيون أو مجرد صبية عاديين. وهم مستهلكون بقدر ما هم سلع مستهلكة، بمعنى أنهم يقومون بتقليد أمريكا البيضاء بينما تقوم أمريكا البيضاء بتقليدهم. تقول سارة يونج "يتبنى أولاد قاع المدينة فكرة أن يكون لهم زى

خاص بهم يظهر تواصلهم، ومن ثم ترى طلبة المدارس الإعدادية يعيدون ابتكاره ويحاولون أن يبدو بشكل الهيب هوب" وسارة يونج هى استشارية أعمال مهتمة بدراسة السوق الحضرى. "إنها دورة"[1] كما تقول سارة. ويقترح صديق، وهو شاب أسود يبلغ من العمر ١٩عامًا من الحى الغربى للمدينة، أن هذه الديناميكية تحدث لأن فقراء قاع المدينة يساوون فى الطبقات التى بينهم وبين البيض من الذين يقطنون الضواحى بينما وهؤلاء يساوون شباب الهيبز بفقراء قاع المدينة. إذا كان هذا الصديق مصيبًا، فإن هذا يعنى أن التجارة قد تكون هى أكثر الروابط قوة، والتى فى النهاية تؤكد على وتطيل من الأساطير، التى بنيناها عن بعضنا البعض.

يقع على طول شارع ماديسون، إلى منتصف المسافة بين الحلقة وحدود المدينة، شريط من المحلات القديمة والمتهالكة به محلات صغيرة مؤقتة وهى تفتح وتغلق تقريبًا موسميًا ـ البالونات هى علامة الافتتاح بينما الإعلانات عن "البيع بأسعار مخفضة بمناسبة إغلاق المحل" تشير إلى إغلاق المحل ـ حيث إن ملاك المحلات من الأمريكيين الإفريقيين والمهاجرين من الشرق الأوسط يركبون موجة الموضات الغريبة، مثل GQ للملابس الرياضة، والملابس ذات التأثير القوى، والملابس الكلاسيكية الراقية. ويزدحم المركز التجارى فى فترات بعد الظهيرة فى عطلة نهاية الأسبوع بالمستهلكين فى حالة من الابتهاج لكن غير مدركين أن أصحاب المحلات والأسماء قد تكون تغيرت منذ زيارتهم الأخيرة. الأمهات الصغار يسحبون أطفالهن، والسيدات الأكبر عمرًا يسعون إلى شراء سلع محددة ويشقون طريقهن بين مجموعة من المراهقين الذين يضحكون ويهرجون، دافعين بعضهم البعض داخل المحلات، وأذواقهم الغريبة هى مثار للفضول الشديد من دارسى التسويق وملاك المحلات ومخططى الشركات.

ومؤخرًا بعد ظهيرة يوم من أيام الربيع، بينما أنا فى طريقى لشارع ماديسون تجاه محلات توبس أند بوتمز Tops and Bottoms، أحد محلات المنطقة ذات الشعبية الكبيرة، استطعت تمييز رائحة دخان الماريجوانا وبالقرب من جانب المبنى. كان هناك صبيان مراهقان يدخنان سجائر فى أحد الحانات تسمى بحانة

التبلد. والمحل طويل وضيق وحوائطه مغطاة بأرفف متراص عليها أحذية وقبعات. ووسط المحل آرفف عليها قمصان وجينز وسترات جلدية. مالك المحل مهاجر فلسطينى. تعرف على من زياراتى السابقة مع لافايت وفارو. قال لى متسائلا: "أنت ضابط مراقبة، أليس كذلك؟". أخبرته بعلاقتى بالأولاد. وبعد أن أكمل بيع قلنسوة أومأ إلى لأذهب خلف المتجر، حيث نستطيع التحدث دون مقاطعة من أحد.

ويصطف خلف المتجر حوالى ٢٠٠ من الأحذية والأحذية الخفيفة التى تغطى الحائط من الأرض إلى السقف. كانت هناك الماركات المعروفة: نايك Nike، فيلاFila، وريبوك Reebok، وهى الأحذية التى تحدد سمات (وتقريبًا تسببت فى إفلاس) جيل بأكمله. وكانت هناك أيضاً الأحذية الثقيلة من ماركات تمبرلاند Timberland ولوجز Lugz التى أصبحت شائعة بين مراهقى المدينة. ولكن كان تنسيق الأحذية التى أمامى مباشرة، وهى مجموعة أحذية من ماركة هاش بابيز Hush Puppies، هى التى أشار إليها صاحب المحل، متسائلاً: "هل ترى هذه؟ إنها تمثل الرزق الوفير لنا". حقا، لقد كانت منتجات هاش بابيز Hush Puppies، التى كانت فى وقت ما بدرجات الألوان الترابية، أصبحت الآن ذات شعبية بين المراهقين السود فى المدينة ـ وقد استجابت الشركة المنتجة وقامت بإنتاج أحذية بألوان صارخة ولافتة للنظر، مثل البرتقالى الفاقع والأحمر القانى. وأتذكر أول مرة ظهر فيها فارو مرتديًا زوجًا من أحذية هاش بابيز Hush Puppies باللون الأخضر الليمونى ـ لقد صدمنى هذا فى أول الأمر، ولكن تذكرت ملابسه الأخرى: قمصان تومى هيلفيجرTommy Hilfger، ومحافظ كوتش Coach، وجينز جس Guess، وكانت هذه أزياء هؤلاء ذات المستوى الاقتصادى المرتفع، هؤلاء الذين استطاعوا "الوصول"، وقد وجد فارو، الذى يدرس الآن فى الخارج بالكلية، فى النهاية طريقه. أما بالنسبة لهؤلاء الذين لم يغادروا الحى، فإن هذه الأزياء هى طريقهم للتواصل، فهى تربطهم بعالم أكثر أمنًا، وأكثر رخاء، عالم لم يستطيعوا أن يشاركوا فيه ـ إلا بوصفهم مستهلكين.

تقول سارة يونج، التى تضمن قائمة عملائها الشركة التى تصنع منتجات هاش بابيز Hush Puppies، إنه "بالنسبة لكثير من هؤلاء المراهقين، ما يرتدون هو الذى

يدل على ماهيتهم. لأن ذلك هو كل ما يربطهم بباقى المجتمع الأكبر. إنه رمز لوضعهم، لأنه لا يوجد لديهم الكثير خلاف ذلك"(٢)

إنها بالطبع حالة زائفة. فهم يتمسكون بفكرة أن "تصل"، يعنى أن تستهلك عند الرغبة. وأن تشترى محفظة كوتش Coachبمبلغ ١٠٠دولار، أو قميص تومى هيلفجر Tommy Hilfgerبمبلغ ٨٠ دولارًا. وشركات الماركات التجارية هذه، تعرف أن لديها شيئًا مربحًا، وتستثمر شعبية هذه الماركات بين الفقراء فى المدينة، الذين على الرغم من معاناتهم صعوبات اقتصادية يمثلون سوقًا مربحًا بشكل مدهش. وتوجه الشركات دعايتها لهذا القطاع من السوق. والأشخاص، مثل سارة يونج، يعززون علاقاتهم مع فنانى "الراب" الذين يغرونهم لارتداء بعض أنواع الملابس. عندما كانت الشركة التى تصنع منتجات الهاش بابيز Hush Puppies تتطلع إلى زيادة وجودها فى السوق الحضرى، ساعدت يونج بإقناع، ويكلف جين Wyclef Jean مغنية مع فرقة الفوجيز Fugees، بارتداء حذاء بريدجبورت تشاكاس Bridgeport chukkas، الأزرق الفاتح، الذى يحمل تشابهًا خفيًا مع أحذية ولابى Wallabee المعروفة لعدد من أفراد جيلى. وتوجد فى إصدار حديث لمجلة فيب Vibe، وهى مجلة تستهدف الأسواق الراقية، صور لمغنى الراب بينى مان Beenie Man، ووبونتى كيلرBounty Killer، وهما يرتديان قبعات من صنع رالف لورين Ralph Lauren، وسترات أرمانى Armani منحشرة وسط صور مغنى راب آخرين مرتدين نظارات شمس كالفين كلين Calvin Klein وأحذية كينيث كول Kenneth Cole وتملأ الصفحات الثلاث الأولى من هذا الإصدار نفسه، إعلانات لخط إنتاج هيلفيجر Hilfger الرياضى، وحقائب يد كوتش Coach (مع صورة لمغنية الجاز كاسندرا ويلسون Cassandra Wilson وهى تسير وحقيبتها الكوتش Coach معلقة بكتفها)، وملابس بيرى إليس Perry Elis غير الرسمية (مع رجل أسود وثلاثة أطفال صغار يتسكعون على الشاطئ). وهذه، كما أخبرنى فارو، طبقة اجتماعية ـ وتمثل كما قالت يونج، العلاقة الوحيدة للأطفال الذين يكبرون فى وسط أطلال قاع المدينة، بعالم أكثر رخاء وأكثر أمنًا. إنهم، بوصفهم مستهلكين، يطالبون بالمواطنة. ومع ذلك، فإن حقائب يد كوتش Coach، أو قمصان تومى

هيلفيجرTommy Hilfger، أو بيرى إليس Perry Elis، لا تغير شيئًا من الواقع القاسى لنموهم كفقراء وسود. ذلك يذكرنى بالجداريات المصورة على الأبنية المهجورة فى جنوب مدينة برونكس Bronx: صور زهور، وظلال نافذة، وستائر وغرف نظيفة ومرتبة . وكما لاحظ جوناثان كوزول Jonathan Kozol فى كتاب النعمة المدهشة Amazing Games، قد تم رسم هذه اللوحات ببراعة فائقة، لدرجة أنك عندما تنظر إليها للمرة الأولى، يخيل إليك أنك ترى ما بداخل المنازل - منازل جميلة الشكل والمنظر، وفى الواقع، لها بوضوح مظهر الطبقة المتوسطة[٣].

لكن فقراء المدينة هم أكثر من مجرد مستهلكين، فهم يساعدون أيضًا فى ترويج الأزياء. وأساسًا يستهدف خط ملابس تومى هيلفيجرTommy Hilfger المراهقين بصفة خاصة، وأصبح رائجًا فى المناطق الفقيرة من المدينة، وساعد على ذلك فنانو الراب الذين يرتدون الثياب الأنيقة والملونة، التى تنتجها المصانع. وطبقًا لمقالة نشرت فى مجلة فوربس فى عام١٩٩٧، فإن نسبة ٤٧٪ ارتفاع فى عوائد هيلفيجر Hilfger على مدى التسعة شهور الأولى من العام المالى١٩٩٦ - ١٩٩٧، له علاقة بشعبية خط الملابس الرائج بين المراهقين الذين يتسوقون من محلات شارع ماديسون بشيكاغو. فجأة، أصبح تومى هيلفيجر Tommy Hilfger رائجا، ليس فقط بين المراهقين فى المدينة لكن أيضًا بين نظرائهم فى الضواحى. وتقول سارة يونج: "إن ذلك يشعرهم بالفخر، لأنهم السبب فى رواج هذه الموضة "، لذلك يجد الذين ليس لديهم شىء آخر يتحكمون فيه، التعازى على الأقل، فى التحكم فى شىء ما - الموضة.

هناك أيضًا وجه آخر لذلك: بعض المراهقين البيض وجعلوا من فكرة الفقر فى المدينة فكرة رومانسية. قام مجموعة من المراهقين بسانت جوزيف بولاية ميتشيجن، وهى مدينة كل سكانها من البيض تقريبا ويبلغ عددهم ٩,٠٠٠ شخص يقطنون المنطقة الجنوبية الغربية للولاية، بتقليد أسلوب جيرانهم وأزيائهم عبر النهر فى بنتون هاربور بولاية ميتشيجن، وهى مدينة كل سكانها تقريبًا من السود، وقد تم تخريبها اقتصاديا بإغلاق المصانع المحلية والمسابك. يطلق هؤلاء

المراهقين على أنفسهم "ويجرز wiggers"ويحاول البعض من المراهقين البيض التشبه بأحد عصابات بنتون هاربور، وقد تم القبض على أحد العصابات يحمل كل أفرادها بندقية بى بى، وقد أطلق عليهم أحد مفتشى البوليس المحليين بسخرية "ونابيز" wannabees "المتطلعون". ويُحيى الويجرز فى مدرسة سانت جوزيف العليا، بعضهم البعض بتحية ضرب كف أحدهما بكف الآخر، أو بإيماءة من الرأس وهم يقولون "مرحبًا، أيها الزنجى، هل من جديد ؟"

لكنهم كانوا يتماثلون أكثر مع قرنائهم عبر النهر عن طريق الأزياء ـ لكن فقط بوصفهم مستهلكين. فهم يرتدون أزياء الهيب ـ هوب التى أصبحت لها شعبية بفضل إم. سى. هامر ومُغنى الراب الآخرين، يرتدون بنطلونًا جينزا أزرق كبيرا يكفى لشخصين، ساقط إلى الركبتين، (نشأت موضة البنطلون الساقط بدون حزام ومتدل من على الأرداف، كما يعتقد الكثيرون، فى السجن، حيث لا يسمح للنزلاء بارتداء الأحزمة.) ويرتدى الفتيان سترات وقبعاته ستارتر، وهو الطراز السائد فى ذلك الوقت. أما الفتيات فيعلقن قلادات ذهبية مجدولة حول عنقهن ويصففن شعرهن على شكل تموج عريض، أو على شكل ضفائر. وبالنسبة لهؤلاء المراهقين، فإن حياة أولاد الأقليات عاصفة وخطيرة ـ وهو كل ما يتوق إليه المراهقون. لكن هل يعلمون كم هو عاصف وكم هو خطير؟ فهم لم يكن عليهم أبدًا مواساة صديق يحتضر، ينزف من الرأس، لأنه كان مع الجانب الأضعف. وهم لم يجلسوا أبدًا فى فصل دراسى المناضد به مصطفة بحيث يتجنب أى طالب الإصابة بقطعة من السقف المتساقط، ولم يكن عليهم أن يقولوا "نعم، يا سيدى"، أو "لا، يا سيدى" ردًا على تساؤل ضابط بوليس يقطر سؤاله سخرية: "أيها الزنجى، من أين حصلت على المال الكافى لشراء هذه السيارة الجميلة؟". فهم يعتقدون ـ بوصفهم مستهلكين ـ أنهم هيب hip ـ وكلمة "هيب" كما تم تعريفها، هى ما يرون فى نظرائهم من الحضر. هم يجدون بعض التواصل فى الجينز الساقط إلى الركبة، و قبعات البيسبول، والقميص مفتوح الصدر. وعلى الرغم من ذلك فهو فى النهاية تواصل زائف.

إن الصبية السود الفقراء، بوصفهم مستهلكين، يدعون انتماءهم للمجتمع الأكبر ويعتقدون أنهم بوصفهم مشترين للماركات الرائجة، يستطيعون أن يتجاوزوا وضعهم البائس. وفى أواخر الثمانينيات، حيث بدأت تجارة المخدرات تزدهر فى الأحياء المجاورة، مثل الجانب الغربى من شيكاغو، فإن السيارة المفضلة لأصحاب المشاريع الكبار، والتى تعتبر رمزا للاستقرار الحضرى، هى السيارة الشيفرولية بليزر. ولأن مجتمعاتهم كانت منحلة جزئيًا بسبب تجارتهم، فقد سعوا إلى التواصل مع الجانب الآخر المستقر، وذلك بالطريقة الوحيدة التى يعرفونها، والطريقة الوحيدة المتاحة لهم وهى، بوصفهم مستهلكين. ويتوق مراهقو قاع المدن إلى المشاركة فى المجتمع؛ فهم يسعون إلى الانتماء.

وبالنسبة للمراهقين البيض أمثال هؤلاء المراهقين فى سانت جوزيف، فهم كجميع المراهقين، يريدون أن يشعروا أنهم يعيشون على الحافة، وليس هناك طريقة أفضل من بناء نوع من العلاقة ـ مهما كانت مصنعة ـ مع معاصريهم عبر النهر، عن طريق الشراء بأمان كامل، كل الإكسسوارات المرتبطة بالأزياء، ويعتقدون أنهم بذلك متواجدون مع هؤلاء البؤساء، وأنهم مروا بالرعب والألم الذى يشعر به السود والفقراء. بالطبع لا شىء يمكن أن يكون أبعد عن الحقيقة، فهم لا يعرفون شيئا عن الصراعات التى يتحملها جيرانهم.

من ناحية آخرى، فإن الأزياء فى النهاية هى مجرد أزياء. يشتاق الصبية أحيانًا لارتداء الجينز الفضفاض (الباجى) أو قميص تومى هيلفيجر Tommy Hilfger، ليس لما تمثله تلك الأزياء لكن لأنها أزياء أقرانهم. هؤلاء "الويجرز" wiggers. وعلى سبيل المثال، سراويلهم هى سراويل جيرانهم نفسها عبر النهر، لكن الصبية الأصغر سنًا يقلدونهم بقدر ما يقلدهم نظراؤهم السود. يمتد تأثير الأزياء لتغطى مسافات كبيرة، لكنها فى النهاية هى مرتبطة بجذورها وتوضح القيادة فى شارع ماديسون، التخطيط الخاطئ الذى يظهر جليًا. ولا يسع المرء إلا أن يتعجب من شأن المسافة الروحية التى تفصل بين الذين يتسوقون فى محلات توبس وبوتمز Tops and Bottoms فى الجانب الغربى المبتلى، والذين يستعرضون السلع فى المحلات مرتفعة الأسعار وسط البلد النشيط. ومع ذلك فعلى طول شارع

ماديسون، يراقب المراهقون من كل جانب نظراءهم، معتقدين أنهم يعرفون حياة الطرف الآخر، مقلدين بعضهم البعض فى طريقة الملبس. لكنهم مخدوعون فهم لا يعرفون، وليست لديهم فكرة. هؤلاء الذين يبحثون فى آرفف ماركات هاش بابيز Hush Puppies فى محلات التوبس والبوتمز Tops and Bottoms. يعتقدون أنهم يملكون المفاتيح التى تجعلهم أعضاء فى هذه الأمة المزدهرة. وهؤلاء الذين يرتدون الجينز الواسع الذى يسع اثنين، يدعون معرفة ماذا يعنى أن تكون هيب hip، وماذا يعنى أن تعيش على الحافة. وهكذا، بدلاً من إقامة روابط حقيقية - عن طريق إتاحة فرص أو إعادة بناء مجتمعات - أقمنا روابط عن طريق بعض الأسس المشتركة بوصفنا مشترين للعلامات التجارية.

هذه الروابط هى، فى أحسن الأحوال، روابط ضعيفة وفى أسوأ الأحوال، هى روابط زائفة، فهى تجعلنا نعتقد أننا متواصلون بينما المسافة، فى الواقع، أبعد بكثير مما يتخيله أحد.

الاستهلاك والأمريكيون من أصل آسيوى

باهاراتى موخيرجى

فى عام ١٩٧٨أسر لى مالك كشك صغير لبيع الكباب فى أحد مجمعات المطاعم ذات الطابع الجنوب آسيوى، أن طموحه فى الحياة هو أن يؤسس سلسلة مطاعم للكباب فى جميع أنحاء كندا والولايات المتحدة. كنا فى ذلك الوقت نحاول أن نخترق طريقنا بين حشد من الناس يتناولون الطعام بشراهة أثناء حفلة تنكرية. كان ذلك ليلة السبت، وكان يبدو وكأن جميع المقيمين فى مدينة تورنتو والضواحى التى يفضلها الكنديون من أصل هندى، ومعظمهم قد هاجر خلال أو بعد ذلك العام ١٩٧٢، قد تجمعوا فى مجمع المطاعم . تتراوح أعمار هؤلاء الزبائن، من كبار السن الذين يحتاجون إلى مساعدة فى المشى، إلى الأطفال الذين يجلسون فى عربة الأطفال. كانت العائلات تتجول بين أكشاك الطعام، يقومون بتحية أصدقائهم ويملأون بطونهم بأنواع الطعام المختلفة رخيصة الثمن. وقد بدا وكأن الشبع مرادف للفضيلة فى ذلك المكان، حيث كان الضوء الأصفر المتوهج ورائحة الطعام المتبل تملأ المكان. هكذا وجدت نفسى، مثل جميع الزبائن الآخرين، أتذوق أنواع الطعام المختلفة المقدمة فى أطباق من الورق.

كان مالك كشك الكباب مهاجرًا هنديًا مفعمًا بالحيوية، فى أوائل الثلاثينيات من عمره، يملك أيضًا المبنى الذى تقع فيه منطقة المطاعم، وقد كون ثروته من خلال الاستثمار فى مجال العقارات، وقد اشترى قاعة كبيرة للألعاب الإلكترونية كان الصبية يتسكعون فيها بلا هدف. كان هذا المكان فى منطقة كئيبة معظم سكانها من البيض، كان فيها شقق ذات دورين، ومتاجر، وبارات، وكنيسة، وقاعة

اجتماعات كندية. حول المالك الهندى هذا المكان إلى مجمع كبير لتقديم الطعام السريع من أطعمة الأعراق المختلفة. هكذا تحول ما كان يعتقد فى البداية أنه مجرد مخاطرة أخرى لاستثمار المال ، تحول مع حلول موعد الافتتاح إلى حلم اجتماعى يتحقق. فى ذلك المساء، فى أواخر السبعينيات قابلت المالك الذى ترك عندى الانطباع أنه ليس مجرد مستثمر عقارات بقدر ما هو متحدث باسم متعدد الثقافات. قد أصبح مجمع المطاعم الذى حلم به، أكثر من مجرد مكان لتناول الطعام المتبل، الحريف. لقد تحول إلى مكان لتجمع الكنديين من أصل آسيوى من مختلف الطبقات ، والأعراق ، والأديان. كانوا من الهنود، والباكستان، ومن البنجلادشيين، والسيريلانكيين، وآخرين من مجتمعات مصاحبة لهم من الكاريبى وشرق إفريقيا. فقد أصبح فى إمكانهم التجمع فى مكان واحد، وأصبح هذا المكان مثل جزيرة لتعدد الثقافات الهندية فى محيط تعدد القارات والثقافات الكندية. حيث تفتخر كندا بأن سياستها القومية لتجميع الثقافات فى إطار واحد مثل الفسيفساء، أكثر إنسانية من أسلوب الولايات المتحدة فى إذابة الثقافات لتصبح ثقافة أمريكية واحدة. هكذا بدا أن هدف المالك هو هدف وطنى.

قبل أن أغادر مجمع المطاعم فى تلك الليلة، قال المالك الهندى: "أتخذ من سلسلة مطاعم ماكدونالد مثلاً أحتذى به ، مثلاً أقدم خبز الروتى (Roty) ملفوفًا حول قطعة من الكباب، ولم لا؟ ما رأيك فى قطع الكباب المحشوة فى أنواع الخبز الهندى المتعددة؟ سأوجه أمريكا الشمالية حتى تأكل كباب النان (Naan Kebab)، وباراتا الكباب (paratha Kebab)، وشباتى كباب (Chepati Kebab) سينافس خبز الروتى الذى أصنعه الخبز المكسيكى (التاكو) والبيتزا. ولما لا؟"

هكذا تخيلت أضواء النيون القوية التى ستضىء واجهات سلسلة مطاعم الروتى، التى ستضىء بدورها القارة كلها. نحن لا نتحدث هنا عن أحد أنواع الفن، أو حلم من أحلام الجيل الثالث لكتابة رواية كندية عظيمة، أو عن حديث أحفاد المهاجرين الذين يشعرون بالذنب، والشك، والحاجة إلى البحث عن جذورهم قائلين: "لماذا؟ لماذا لم يجبرنى والدى على تعلم اللغة الهندية؟ من أنا وما هى هوايتى؟ و من يهتم بى؟ ربما فى يوم من الأيام، عندما تتذكر واحدة منهم

طفولتها وهى تجرى فى شوارع المهاجرين فى تورنتو. أو حتى من مئات الأشخاص الذين يسكنون مدينة تورنتو، يتحول كل ذلك إلى رواية هندية ساخرة، تعبر فيها عن ذكرياتها، مثل رواية هنرى روت Henry Rothe سميه النوم Call It Sleep، أو روايته التى تتميز بالمرارة و الحنين حكايات الأوديسا Odessa Taleوالتى سيظهر تأثيرها على المدى الطويل، فى الألفية القادمة. هذا هو الجوهر الحقيقى لتجربة الهجرة. آلا وهى: أن تعمل لساعات طويلة ، تستثمر الأرباح ، تقوم بإزاحة الثلوج، تحرص على أن يكون متجرك مفتوحًا دائمًا، تمارس التجارة بقوة ودهاء، وأخيرًا تجاهل الإهانات وتخطى الصعوبات. تلك هى بداية تجربتى فى الكتابة عن الهجرة، حيث ولدت مع مجمعات المطاعم التى لا تحصى، والمتاجر التى تبيع زى السارى الهندى، و آكشاك البقالة الهندية التى تبدو وكأنها أفاتار (avatar) من رواية برنارد مالامود Bernard Malamud "المساعد" The Assisstant.

كاد تفاؤل المالك يبدو متواضعًا، بينما كنت أنا و زوجى نسير لمسافة طويلة إلى مكان انتظار سيارتنا، لأن عددًا كبيرًا من سيارات رواد المطعم قد ازدحمت حول مجمع المطاعم. تجمع؛ فالذين لم يستطيعوا الحصول على موائد فى الداخل، حول سياراتهم حيث وضعوا كميات الطعام التى قاموا بطلبها من المطعم، فوق أسطح محرك سيارتهم وغطائهم وأخذوا يتناولونها. أضافت ألوان السارى الحرارية، والقمصان المطرزة التى يرتديها هؤلاء الناس، بهجة للأرصفة. ويتسكع البعض، بعد شعورهم بالشبع فى الطرقات الجانبية حتى يطلعوا على آخر أخبار مجتمعهم. فقد تحولت ساحة الانتظار المهملة والوحيدة فى هذا الحى إلى منتزه بدائى. تسمع موسيقى الأفلام الهندية من نوافذ السيارات، وتتجول العائلات منتقلين بين سيارة وأخرى كأنهم يتزاورون من أجل توطيد العلاقات. كانت الأمهات الصغيرات يقمن بتغيير حفاضات أبنائهم الرضع على المقعد الخلفى للسيارات، وكان الرجال الذين يرتدون البدل السوداء، يتبادلون النصائح حول الاستثمار فى البورصة . أما المراهقون من البنات والصبيان، الذين يرتدون السترات الجلدية، وبنطلونات الجينز، فكانوا يقفون فى مجموعات متفرقة، يبدو عليهم اللامبالاة، وعدم الاكترث، كنوع من أنواع السلوك المتعجرف.

هذا المشهد لا يمكن أن تراه إلا فى العالم الجديد، حيث يعكس مزاج هؤلاء الناس نشوة النجاح. ذلك لأن العملة الأولى فى العالم، الدولار، تشترى أكثر بكثير من الروبية، التى لا يمكن حتى استبدالها بعملة أخرى. ها هو مجتمع آخر من اللاجئين الماديين الذين يقيمون نجاحهم وسعادتهم بقوة الدولار. هذه النشوة كانت منتشرة داخل مجمع المطاعم وخارجه، كأن هذا المجتمع يكتفى بنفسه لأنه مجتمع داكن اللون ينجح فى كندا البيضاء.

كان أصحاب هذه المطاعم مجموعة من المهاجرين الصادقين، الذين لا يشعرون بالذنب لأنهم يعبدون الماديات. ليس لديهم أى أوهام عن الأسباب التى جعلتهم ينتقلون من قارة مكتظة بالسكان إلى شبه قارة تكاد تكون قاحلة. تلك الأسباب هى: فرصة عمل أفضل بدخل أكبر، سيارة أو اثنين فى جراج منزل واسع وكبير (مثل منزل الأمير الهندى) ـ اشتريته بقرض من البنك بدلا من أن تدفع ثمنه كاملا من المدخرات التى ادخرتها طوال حياتك، أو بنقود المهر عند الشراء (لهذا السبب لم يتمكن والدك أبدًا من تحقيق حلمه بامتلاك بيته الخاص) ـ تعليم حكومى جيد متاح مجانًا لأولادك، بالإضافة إلى أفضل أنواع التأمين الصحى بدون تكلفة، أو بتكلفة منخفضة لك ولكل من تعولهم. تلك هى بعض الحقوق الأساسية التى يعتبرها كل شخص ولد فى أمريكا الشمالية أمرًا مسلمًا به. لكن إذا عملت بجد ووفرت النقود باجتهاد واستثمرت فى الأماكن الصحيحة، يمكنك أن تتمتع بما هو أكثر بكثير -سيارة مرسيدس، تليفزيون بشاشة كبيرة ، مسجل فيديو، كاميرا فيديو، ونظام موسيقى فى غرفة المعيشة، بالإضافة إلى هاتف محمول، ومفكرة إلكترونية فى حقيبتك الخاصة، وإذا تعاملت مع العالم الجديد بأسلوب صحيح، سيصبح لك مكان على مائدة الاستهلاك الرائعة.

هذا الازدهار فى مبيعات مجمع المطاعم، لم يؤد إلى ازدهار مشابه فى الأعمال، والمحلات الموجودة أصلا فى الحى، مثل محلات الخردوات القديمة، ومراكز التجميل الفاشلة، التى لم يتحسن حالها. كان من المفترض أن النجاح يعم على المجتمع بأكمله، ولذلك ظهرت العداوات. فالمقيمون فى الحى منذ زمن طويل، اعتبروا أنفسهم ضحايا غزو الكنديين الجدد، الذين كانوا يجهلون، أو لم

يكونوا على استعداد لتقبل أصول السلوك العام الكندى. هكذا، كلما زاد نجاح مشروع مجمع المطاعم على مر الشهور، ارتفع صوت الشكاوى، مثل زيادة عدد السيارات فى الحى، وزيادة عدد السائقين الذين لا يجيدون القيادة، والانتظار فى الأماكن الممنوع فيها الانتظار، بالإضافة إلى الأغانى المزعجة التى تصدر من تلك السيارات بلغات ليست هى بالإنجليزية أو بالفرنسية، وازدياد عدد آكلى الكارى الذين يلقون ببقايا طعامهم على الأرصفة.

لذلك عقدت عدة جلسات فى قاعة الاجتماعات لوضع سياسة مضادة، وتم إرسال التماسات لمالك مجمع المطاعم الذى جرؤ على أن يحلم بأن يكون ملك الروتى (Roti) فى أمريكا الشمالية. وقد تمكنوا من الوصول إلى بعض حلول الوسط. اشترى المالك المزيد من صناديق المهملات، وقام بتعيين عدد من أفراد الأمن على حسابه الخاص. بذل أفراد الأمن كل ما يستطيعون من جهد ليمنعوا الانتظار المخالف، وإسراف الزبائن فى تناول الطعام ملأوا صناديق المهملات عن آخرها، حتى غطت الأرصفة بأوعية الطعام المليئة بالمدهون. كما أثارت أغانى أفلام بولى وود (Bolly Wood) (مدينة السينما فى بومباى) الشجون والحنين إلى الوطن.

استمرت الشكاوى، وكان البعض منها يتميز بالحس الثقافى، ولذلك كانت أكثر صعوبة فى التعامل معها: وهى أن الهنود يتصرفون مثل الفلاحين، فيتركون أكوامًا من البصاق والبلغم على الأرصفة، ويلقون بالحفاضات الملوثة من نوافذ سياراتهم (هل هناك رمز أوضح لحرية العالم الجديد أكثر من الحفاضات التى تستعمل لمرة واحدة؟ يمكن أن أتعاطف مع هذا التصرف لأنه يرمز إلى تحرر المرأة الهندية من عبودية الأطفال الرضع، وهى أحد أهم الهموم التى تشغلها، ومع ذلك لا يجب أن يكون إلقاء الحفاضات فى الشوارع.

كان لأصحاب مجمع المطاعم شكواهم الخاصة ضد سكان الحى، فالكثير من العائلات من أصل جنوب آسيوى، وبصرف النظر عن دياناتهم أو مستواهم الاجتماعى أو المادى فى المجتمع الكندى، كانوا يهاجمون بقذائف من البصاق والهتافات العنصرية وهم يسيرون من سياراتهم إلى المطاعم. كما كان هناك، ما

يقرب من أن يكون، مواجهات عنيفة مع المراهقين البيض الذين يحملون عصا الهوكى كأنها سلاح، وقد نظم عدد من المهاجرين السيخ من الشباب، الذين يجيدون استخدام عصى الهوكى، كتيبة لحماية مجتمع الجنوب آسيوى.

طُلب من بعض الوسطاء التدخل، لأن الحوادث المتعلقة بالعنصرية كانت غير قليلة فى تورنتو فى عام ١٩٧٨. ذلك لأنه منذ أربعة أعوام قدم حزب رئيس الوزراء بيير ترودوPierre Trudeau الليبرالى، ورقة عمل تدعو إلى عقد مناظرات فى جميع أنحاء الدولة، لمناقشة مدى قدرة الكنديين على تحمل هذا الخليط من الأجناس، والثقافات المختلفة، وذلك فى تركيبة المجتمع فى المستقبل. وقد بدا لكثير منا أن الجواب المطلوب كان مرتبًا ليكون فى صياغة السؤال نفسه. كان المحرك لتلك المناظرات هو قرار حكومة الحزب الليبرالى بالسماح لألفين من الأوغنديين الآسيويين ممن يحملون جوازات سفر بريطانية، بالدخول إلى كندا. هؤلاء كانوا ضحايا الرئيس عيدى آمين، رئيس أوغندا، الذى أمر بطردهم من بلادهم. كما أنهم كانوا قد حرموا فجأة من الجنسية البريطانية بسبب إدخال فقرة عنصرية فى القانون البريطانى، وهى وجوب حصول الجد على الجنسية. هذا الموقف الإنسانى تسبب فى رد فعل عكسى بين الناخبين الكنديين من ذوى الأصل الأوروبى ، لدرجة أن الكثير منا ـ من الكنديين من أصل جنوب آسيوى ـ تعرضوا لتجارب شخصية، منها إهانات عنصرية فى الأماكن العامة، مثل مراكز التسوق، ومحطات مترو الأنفاق، وأماكن الانتظار أمام محلات الطعام السريع.

حضرت إحدى هذه الاجتماعات الكثيرة التى يحضرها، ممثلو الحى، وأصحاب أكشاك الطعام، وقادة المحليات، وعضو مجلس أونتاريو لحقوق الإنسان. و قد توصل هذا الاجتماع، كما يبدو قد حدث فى اجتماعات سابقة، إلى أنه يجب على الجانبين التحلى بالهدوء قبل مواصلة الاجتماعات. بالنسبة لى، كان هذا الاجتماع بمثابة درسًا عمليًا فى كيف تم التحول، فى تلك الأوقات التى تتسم باتجاهات ما بعد الاحتلال، لتصبح، ليست تورنتو فقط، بل كل مدينة فى أمريكا الشمالية ـ إلى مدينة حدودية جديدة. ومثل أى مدينة حدودية، امتلأت قاعة الاجتماعات بفائزين و خاسرين، من مطاردى الأحلام والهاربين من

الكوابيس. أدركت وأنا أستمع إلى خطبهم الانفعالية أن هناك ـ من الجانبين ـ أصحاب مثل عليا، وطامعين فى الشهرة ، ونصابين، محايدين، ومتطرفين. بالإضافة إلى المنجرفين مع التيار. لكن الدرس الذى أدهشنى هو أن أى مدينة حدودية، بإصرارها على الانقسام إلى "إما نحن وإما هم" كنوع من حماية النفس، لا تستطيع أن تتقبل الولاء الاختيارى للمفكرين المستقلين. فقد تحدد حلفائى وخصومى وأنا فى تلك القاعة، بناء على أصول العرقية وليس بناء على آرائى الشخصية.

بعد مرور الكثير من الأعوام، وبعد آن انتقلت للإقامة فى الولايات المتحدة، وأصبحت مواطنة أمريكية واستقررت فى شمال كاليفورنيا ، وجدت بالصدفة مذكرات والس ستيجنر Wallace Stegner عن نشأته فى مدينة حدودية، لكن من نوع آخر. عنوان المذكرات حيث تغنى الطيور الزرقاء لمنابع الليمون Where the Bluebird Sings to the Lemonade Springs وقد أبدى ملاحظاته التالية:

> **هناك شىء ما يتعلق بالوجود فى ذلك البلد الكبير الذى ولا يجعل المرء فقط يشعر فيه بصغر حجمه، لكنه يذكره باستمرار بمن هو. فى أى وقت أرقد ليلاً مستمعاً إلى أصوات الرياح على زجاج النافذة......... أو نائماً تحت العربة، أشعر بالرياح تمر بين فتحات العجلات. كنت أعى جيداً من أنا أو ما أنا، حتى لو لم يكن لى أى أهمية مثل أى دجاجة فى الفناء، فقد كنت مستهدفاً ولكن من الأفضل احترام هذا الذى يستهدفنى[1].**

إشارة ستيجنر "للبلد الكبير" الذى أسس بمدن مليئة بالأبنية الضخمة الشاهقة التى مولها المهاجرون والأجانب، لكن على الرغم من ذلك تبقى بلدا ذات إمكانيات لا نهائية. فى فبراير من عام ١٩٩٨ أبدى سابير باهنياSabeer Bhatia ـ من كاليفورنيا وهو هندى الأصل، والملياردير المؤسس، والرئيس التنفيذى لشركة هوت ميل Hot Mail وهى شركة تقدم خدمات البريد الإلكترونى، أبدى ملاحظة لصحفى من مجلة "التيارات الهندية" Indian Currents، وهى مجلة مركزها فى

مدينة سان خوزيه قائلاً: "هذا الوادى هو أرض الفرص، و المكان الذى تخلق فيه أساطير جديدة كل يوم. فقد أردت أن أبدأ شركتى الخاصة وأحقق أحلامى". كان هذا الشخص قد أبرم للتو صفقة مربحة مع شركة البرمجيات مايكروسوفت، وكان تم تقديمه للمجتمع، كما جاء فى كلمات الصحفى: "كأحد أصغر المقاولين سنًا الذين نجحوا نجاحًا باهرًا، وحققوا ثروة كبيرة"(٢).

لكن، لسوء الحظ، حتى فى دولتنا الكبيرة والمتقدمة تقدمًا هائلاً، والمتصلة بالكامل بالشبكة الدولية، كان ستيجنر لا زال يراها برؤيته الطولية نفسها، بوصفها مكانًا يجب أن يحمى نفسه فيه. آخر ما سمعته من مالك مجمع المطاعم فى تورنتو هو أنه ينوى أن يبدأ من جديد فى مدينة فلوريدا.

من الممكن أن نفهم نشوة التملك التى يشعر بها المهاجرون من جنوب آسيا، إذا ما نظرنا إلى تاريخ الهجرة . يرجع حلمنا فى الإقامة فى الولايات المتحدة إلى نهاية القرن الماضى فقط. ودخولنا إلى الولايات المتحدة بأعداد ملحوظة، يرجع فقط إلى عام ١٩٦٥، عندما غير النائب العام الأمريكى، روبرت ف.كنيدى قوانين الهجرة التقليدية، التى كانت قائمة على أسس عنصرية، بمعايير جديدة لا تنظر إلى لون البشرة، لكن إلى مدى استحقاق الشخص على الحصول على تأشيرة الدخول.

إن أول دفعة من الهنود الآسيويين رست على شواطئ أمريكا الشمالية، كانت مجموعة من الجنود المنتمين إلى عقيدة السيخ، ومن قرى زراعية فى البنجاب. هؤلاء الجنود شاركوا فى الاحتفال الماسى للملكة فيكتوريا فى إنجلترا فى عام١٨٩٧وبعد ذلك هربوا، وهم فى طريق العودة للهند من على السفينة على شواطئ كولومبيا البريطانية. على مر العقدين التاليين بدأ القرويون من سيخ البنجاب، وعدد قليل من العمال المسلمين، فى الظهور كعمال فى المزارع، وحطابين فى ولايتى واشنطن وكاليفورنيا. على الرغم من أنه كان هناك عدد قليل، لا يكاد يتعدى أصابع اليد الواحدة، من المهاجرين من الطبقات العليا من مدن الهند المتحضرة، من ضمنهم ناشطون للحقوق المدنية مثل تاركانات داس Taraknath Das وأجوى كومارمازومرارAjkoy Kumar Mazumdar، لكنه بحلول عام ١٩٢٠،

كان ٦٤٠٠ مهاجر من جنوب آسيا غير متعلمين ولا يتحدثون الإنجليزية. وكانوا لاجئين اقتصاديين، على استعداد للعمل بجد فى السكك الحديدية، وفى المزارع، بالإضافة إلى تقطيع الأشجار مقابل أجور أقل من أجور العمال الأمريكيين، واليابانيين والصينيين(٢).

وقد واجه هؤلاء الرواد البيض داكنو اللون، عداء النظام القانونى فى الولايات المتحدة. وفى عام١٩٢٠حرم القانون تملك الأجانب للأراضى، بالإضافة إلى سلسلة من أحكام المحكمة العليا التى حرمتهم من امتلاك أى أراضٍ. فى عام١٩٢٩، تم سحب صلاحيتهم للتطبيع، وذلك بعد قضية الولايات المتحدة ضد بهجت سنج ثند Bhagat Singh Thind وبعد ذلك بعام، حُرم المهاجرون من شبه القارة الهندية من حق الدخول، وذلك بسبب مشروع قانون الهجرة لعام١٩٢٤. فى مذكرات ستيجر عن "الدولة الكبرى" فى تلك الفترة الزمنية، كان "الآخر" يعتبر تهديدًا لحق البقاء. فقد كان العمال البيض يهاجمون أفراد طائفة السيخ ـ الذين يرتدون العمامة ـ خوفًا من فقدان وظائفهم. كان هناك ما لا يمكن إلا أن أسميه العداء ضد السيخ. وكان أعنف أشكال هذا العداء هو ما حدث فى عام ١٩٠٧ فى مدينة ياينجهام بولاية واشنطن، حيث تشكلت عصابة استعباد الآسيويين فى سان فرانسيسكو. وقد تلاعبت وسائل الإعلام على مخاوف البيض من تهجين الأجناس، وانخفاض الدخل، وجعلوا مهاجرى وجنوب آسيا كبش فداء، وأطلقوا عليهم لقب "الهندوس"، أو بمعنى آخر مجموعة غريبة لا يمكن استيعابهم فى المجتمع، فهم يحرقون الأرامل ويتظاهرون بالتصوف.

نجح التهديد الجدى والقيود المقننة، فبحلول عام ١٩٤٠ كان هناك أقل من٢٥٠٠ جنوب آسيوى فى الولايات المتحدة، إذا استطعنا الوثوق فى أرقام الإحصائيات. كان كثيرون منهم أميين، ومعظمهم لم يكمل تعليمهم الثانوى. كان هناك، بسبب قوانين منع الزواج بين الأجناس المختلفة فى الولاية، وعدم وجود هجرة قانونية، عدد لا بأس به من هؤلاء "الهندوس" من أصل مشترك ما بين السيخ الهندى والمكسيكى.

كان من ضمن هؤلاء المهاجرين السيخ، بعض من الذين ينتمون إلى جماعة هوراشيوالجيرز Horatio Algers السرية. الذين تعلموا كيف يمكن أن يتغلبوا على هذا النظام العنصرى، وذلك بإيجاد متعاطفين من البيض أو المقاولين لتقديمهم على آنهم المالكون لمزارعهم ولبساتينهم على الورق صوريًا. لكن معظم هؤلاء المهاجرين الاقتصاديين انتهى بهم المطاف معدومين، لا يملكون شيئًا، مشردين بدون عائلة وذلك بسبب الوهم الذى يسمى الحلم الأمريكى.

غير روبرت كندى الثقافة، وتعداد السكان من المهاجرين من جنوب آسيا وتكوينهم. وذلك عندما أدخل عددًا من الإصلاحات على قوانين الهجرة وذلك من خلال مبدأ: لا تسآل فقط ماذا يمكن أن تعمل أمريكا للمهاجرين ذوى التدريب المهنى، لكن آيضا ماذا عمل المهاجرون ذوو التدريب المهنى العالى لأمريكا. لأول مرة أصبحت الجدارة والاستحقاق أهم من لون البشرة. أما فى شبه القارة الهندية، فقد اصطف أمام القنصلية الأمريكية آطباء، ومهندسون، ومحاسبون، ومحللو آنظمة، وخبراء كمبيوتر، للحصول على تأشيرة دخول. كان لكل هؤلاء، من الشباب المسئول عن عائلة، طموحات كبيرة، مع فرص قليلة فى بلادهم المكتظة بالسكان، وكانوا على ثقة بأنهم إذا ما توفرت لهم الفرصة للنجاح، فسوف ينجحون.

وقد نجحوا بالفعل، وكان يرجع جزء من نجاح الموجة الثانية من المهاجرين الهنود إلى تعليمهم العالى وتخصصاتهم المهارية. أما الجزء الباقى فكان يرجع إلى التوقيت الصحيح. كانت بدايتهم الجديدة فى الولايات المتحدة تتفق مع ما جاء فى حركة الحقوق المدنية، وحركة حقوق المرأة، بالإضافة إلى الحركة المضادة لحرب فيتنام. وقد نجحت هذه الحركات فى كبت الآراء العامة الرنانة التى تعبر عن الانحياز العرقى. على سبيل المثال: على الرغم من أن معظم المهاجرين الجدد كانوا ينتمون إلى العقيدة الهندوسية، لكنهم بحلول الستينيات من القرن توقف الناشطون ضد الهجرة عن استخدام كلمة "هندوس" كنوع من السباب. بالإضافة إلى ذلك، كان هؤلاء القادمون الجدد مختلفين عن مزارعى البنجاب الذين هاجروا فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن، الذين كانوا فعليًا مواطنين بريطانيين وبالتالى كان الأمريكيون لا يولوهم أى اكتراث لأنهم ينتمون إلى شعب

ضعيف ومهزوم. هذه العائلات الصغيرة المهاجرة، كانت تنتمى إلى وطن مستقل ذى موقع استراتيجى. وحاولت أمريكا أن تتغاضى عن دعمها الخفى للحكم الاستعمارى البريطانى فى الهند فى العقود الأولى من القرن (خاصة قمعها لأنشطة دعم الاستقلال التى كان يمارسها الهنود المقيمون فى كاليفورنيا، الذين أسسوا حزب "غادر" Ghadar Party. كان الأمريكيون فى الستينيات يميلون إلى الاعتقاد بأن كل الهنود يملكون مقدرة أوتوماتيكية على الحكمة والصفاء.

قبلت الموجة الثانية من المهاجرين والهنود بثقة وعد أمريكا بأن الموهوبين والمثابرين فى العمل من حقهم الحصول على مقابل مادى غير محدود. لكن لم يكن الدافع الأول هو رغبتهم فى امتلاك الأشياء، لكن دافعهم الأساسى كان ولاءهم لعائلاتهم، فقد كانوا يخططون لإنفاق الدولارات الجديدة فى توفير تعليم أفضل لأبنائهم، وبالتالى توفير فرص عمل أفضل. فقد جعلت قوانين الهجرة المعدلة فى منتصف الستينيات، من الممكن أن يجلبوا معهم زوجاتهم وأبناءهم القصر. كانت العائلة دائمًا هى الوحدة التى تربط بينهم. فى البلد الأم كان من التقاليد أن العائلة المكونة من عدد من الأجيال (بما فى ذلك الأعمام، والعمات، وأولاد العم، و"الإخوة من القرية")، يعيشون تحت سقف واحد. مثلاً : لقد نشأت أنا شخصيًا فى مدينة كلكتا فى منزل يضم خمسة وأربعين من أقرباء الدم . أما فى الوطن الجديد، فقد تقلصت وحدة العائلة من وحدة ممتدة تضم كل أقرباء الدم إلى النواة الصغيرة، وبذلك أصبح الوفاء للأسرة أسهل، كما أصبحت نوعية الحياة الأسرية أفضل حيث إن الإنفاق الآن أصبح أقل.

وبخلاف المزارعين من السيخ من الموجة الأولى، التى كان تمارس التفرقة العنصرية ضدهم لأنهم حاولوا الاحتفاظ بأسلوب الحياة القروية للبنجاب، كان هؤلاء المهاجرون الجدد الذين نشأوا فى المدينة وحصلوا على تعليم أفضل، مما جعل من السهل عليهم ـ اجتماعيًا ـ الاندماج فى حياة الضواحى الأمريكية. كانت حياة المهجر عبارة عن ثقافة ثنائية؛ فأنت تعيش الحياة الأمريكية فى العمل وتعيش الحياة الهندية فى المنزل. أى تتكيف مع السلوك الأمريكى العلمى حتى تنجح مهنيًا، لكنك تقاوم الثقافة الأمريكية خاصة فيما يتعلق بالبنات ولقائهن

بالفتيان. لقد تعهدت بالولاء للعلم الأمريكى حتى تضمن حصولك على تصريح العمل، لكنك لم تحرق، أو تشوه شخصيتك التى كنت عليها فى الوطن الأم، إنك فقط أضفت إلى ملف شخصيتك المتنوع ارتجالا جديدا للبقاء على قيد الحياة، وذلك حتى تستطيع التعامل مع المخاطر غير المعتادة . والآن بعد أن أصبح هناك محيطات تفصلك عن وطنك الذى هربت منه لأنه كان يخنق طموحك، تستطيع آن تطلق العنان لذكرياتك التى يملؤها الحنين للوطن، أما هؤلاء الحمقى الذين يتمسكون بعاداتهم القديمة، فيرهقون أنفسهم بعدم قدرتهم على التكييف.

كان تحقيق الذات فى السبعينيات والثمانينيات يتخذ مظاهر محددة، مثل امتلاك منزل فى الضواحى، وسيارة مرسيدس، واحدة على الأقل، فى جراج يتسع لسيارتين على الأقل وعقارات للاستثمار، من ضمنها مبان فيها شقق معدة للإيجار للوكالات الحكومية، التى تحتاج إلى شقق صغيرة ذات غرفة واحدة لإسكان الأسر من محدودى الدخل، أو محفظة من الأسهم والسندات المتنوعة، وحسابات ادخار جيدة فى عدد من البنوك المختلفة، خاصة البنوك الأجنبية التى تقدم نسب فائدة عالية، وأطفالاً مطيعين، ومتفوقين دراسيًا، يقبلون فى الجامعات العريقة المتميزة، وأخيرًا خطة للتقاعد حيث تكون حياة سهلة ومرفهة فى الوطن الأم فى أحد التجمعات السكنية الفاخرة التى يدفع ثمنها الهنود غير المقيمين. إذًا ما الخطأ الذى يمكن أن يحدث إذا ما كانت أحلامك غير معقدة ومهاراتك مطلوبة فى البلد الذى اتخذته وطنًا مؤقتًا؟

أفكر الآن فى فترة السبعينيات والثمانينيات التى كانت تعتبر شهر عسل لمجموعة من المهاجرين من جنوب آسيا الذين جاءوا بعد عام ١٩٦٥. لا توجد لدينا ذكريات شخصية عن التعصب ضد الآسيويين، ناهيك عن الوحشية الجماعية التى عانت منها الموجة الأولى من المهاجرين. لقد دخلنا الولايات المتحدة فى التوقيت المناسب حيث أدى نشاط أعضاء حركة الحقوق المدنية والباحثين عن روحانيات آسيا، إلى نوع من المرونة من جانب السلطة. ولأنى نشأت فى شبه قارة تهتم ثقافتها بالفروق العرقية والطبقية لدرجة أننا قاومنا الاعتراف بأن "رحلة الوسط " middle passage ـ بصرف النظر عن كونها رحلة

رمزية ـ تربطنا نحن الأكاديميين، الأطباء، الأطباء النفسيين، وربات البيوت، وبائعى الصحف، ومديرى الفنادق الصغيرة ، ومليونيرات وادى السيلكون، وجامعى الفواكه، بجميع المهاجرين فى أمريكا .

فى التسعينيات، توسع المجتمع الجنوب آسيوى، وفُقد التجانس بين التعليم والمهارة المهنية، وذلك من خلال تفضيل هيئة خدمات الهجرة والتطبيع لإعادة جمع شمل العائلة. فى أثناء عشاء عيد الشكر، الذى جمع ثلاثين من الشعراء، والروائيين من حول العالم فى بيت ريفى فى ولاية آيوا فى عام ١٩٩٧، أطلعتنى سيدة تتحدث البنجالية، لكنها حاصلة على الجنسية الأمريكية وتملك حسا عاليا للفكاهة، على مفتاح سر المعانى الدقيقة لمفاهيم الطبقات الناشئة. فقالت ضاحكة: "انسى السيارة المرسيدس، فهى لحديثى النعمة، الآن السيارتان اللتان لابد من امتلاكهما هما البيمر (Beemer واللكسيس Lexsus).

كانت طبيبة أمراض نساء تعمل فى بوسطن تزور شقيقتها الصغرى التى كانت تنهى دراستها للحصول على درجة الدكتوراه فى الأدب من جامعة آيوا، وكان زوجها أخصائى أشعة فى بوسطن. تحدثا عن إيجاد الفرص الأفضل لابنتهم، وهى طفلتهم الوحيدة، وقد تعدت العشرين من عمرها، وهى السبب فى اتخاذهم قرار الهجرة . فقد تفوقت الابنة فى إحدى المدارس الداخلية المشهورة فى نيوإنجلند، ثم التحقت بأحد الجامعات العريقة المتميزة، أضافت الأم الفخورة قائلة: " لقد كان التعليم مكلفًا، لكننا لم نبخل فيما يتعلق بتعليمها. يتخذ حديثو النعمة طرقًا مختصرة، فيدخلون أبناءهم المدارس الخاصة فى العامين النهائيين فقط حتى لا يفقدوا فرصة إلحاقهم بجامعة يال، أو هارفارد. فبالنسبة لهم تعتبر المدارس الخاصة استثمارًا جيدًا آخر".

إن الهنود الأمريكيين المهنيين فى طريقهم لأن يصبحوا أحد الطبقات العليا فى هذا المجتمع الذى يعتز بالوهم القومى بعدم وجود طبقية. فهؤلاء تلقوا تدريبًا ـ تقريبًا بدون أن يشعروا ـ على تلك الطبقية لمدة خمسة آلاف عام.

مع ذلك، لأنهم مستهلكين أذكياء للنظام الطبقى الأمريكى، كان هناك عواقب غير متوقعة واجهت الكثير من الآباء والأمهات الأمريكيين من أصل جنوب آسيوى. فقد اشتكى كثير من الآباء والأمهات، الأغنياء منهم الذين استقروا فى عدد من المدن بولاية نيوجرسى، أن أبناءهم يرفضون الاقتداء بهم فى طموحهم واجتهادهم فى مدينة رود أيلند. وصف طالب فى جامعة براون أصدقاءه من المراهقين قائلا: "إنهم فاشلون لا يستطيعون تحقيق طموحهم". بينما اختار آباؤهم أن يروا أنهم لا علاقة لهم بموضوع الانقسام العنصرى بين البيض والسود، وكبروا الحلم الأمريكى - من القرن الماضى - الذى يركز مع ذوى الأصل الأوروبى، حتى يتسع لهم. أما هؤلاء الأبناء الذين ولدوا فى أمريكا، فإنهم يصرون على إيجاد مكان لهم فى الانقسام العنصرى، معتبرين مجتمعات الأقليات التى تتحكم فى مصيرها، خاصةً المجتمع الإفريقى الأمريكى، مثلا يُحتذى به. تستمر هذه الطاقة المتوهجة والمرتبطة بالهجرة، لجيل أو جيلين على الأكثر. الأحفاد هم الذين سيكتبون الكتب.

إذا كان الآباء والأمهات مستهلكين لموارد أمريكا المادية فإن الأبناء يستوعبون ببطء الوعود الأيديولوجية. جاء المهاجرون إلى أمريكا بحثًا عن مستقبل أفضل، لكن الآن هذا المستقبل - ابناؤهم أمريكيون المولد، الذين عاشوا ثقافة المدارس الخاصة والتجارب الحسية، والحرية فى التعبير، يستهلكون شعورهم الجنوب آسيوى التقليدى باحترام النفس. فالأبناء يردون بفظاظة على والديهم - البعض منهم يصل إلى درجة المكر والخبث - والبعض الآخر يرفض الأزواج والزوجات الذين يختارهم الآباء لهم، وهى عادة لازال يمارسها الكبار. البعض القليل من العرائس يشتكين أزواجهن الذين يضربوهن. إنه أكثر من مجرد صراع بين الأجيال. ما أشهده، بصفتى مهاجرة وأستاذة فى جامعة كاليفورنيا، حيث أجد فصول الدراسة مليئة بالأجيال الثانية والثالثة من الأمريكيين الآسيويين الذين بدأوا فى كتابة قصصهم الخاصة، هو مأساة أمركة الجيل الثانى والثالث من الآسيويين.

أدرك مدى مشاركتى فى هذه المأساة التى تضم ثلاثة أجيال. فى صيف عام١٩٩٧ فى مدينة براغ، كنت عضوًا فى هيئة تحكيم مع كاتب أمريكى من أصل جنوب أوروبى أكن تقديرًا كبيرًا لأعماله. تم تقديمنا بوصفنا كتابًا أمريكيين من

أصول مختلفة. زميلى فى اللجنة ملاحظة مألوفة عن ثقافة مراكز التسوق الأمريكية، وهو رد فعل مفهوم من مدينة متحفظة ذات أصالة مثل مدينة براغ. لقد تفهمت ملاحظة زميلى، لكن لم أتفق معه اتفاقًا كاملا. فتجربتى، بصفتى مهاجرة، مع مراكز التسوق فى أمريكا الشمالية كانت مختلفة. فى ولايات مثل ولاية نيوجيرسى، أصبحت مراكز التسوق، المكان المختار الذى تتقابل فيه ربات البيوت المهاجرات، حيث يشعرن بأهميتهن بدءًا من مغامرة القيادة، إلى مراكز التسوق التى تعطيهن الشعور بقوة الذات: ألا تمكث فى المنزل لإعداد الطعام للزوج والأولاد، أو الاعتناء بالحماة، أن تكون أنانية. فى الهند لا يستطيع معظم النساء الحصول على رخصة قيادة (أنا لم أحصل عليها أبدًا). أن تكونى قادرة على تحديد مواعيد بدون الحصول على إذن من أهل الزوج المقيمين معك، أن يكون لك أصدقاء تمضين معهن الصباح فى مكان عام، هذه هى الحرية بعينها. أما أن تكون هذه المواعيد، مثلا فى مركز برامس للتسوق Paramus Shopping Mallفى مدينة برامس بولاية نيو جيرسى، فهذا يكاد يكون النعيم نفسه.

استهلاك الطبيعة

بيل ماك كيبنه

إذا رأيت نفسك محاطًا بسحابة من الذباب الأسود، ربما يدفعك ذلك إلى الجنون. فالذباب الأسود يزحف داخل أذنيك وخارجها ، يزحف داخل أنفك وخارجها، وفمك وزوايا عينيك، وفى أثناء ذلك يقوم بلدغك. وإذا أنت قمت بتغطية جسدك فيما عدا يداك، فإنه يبدأ من اليدين ويزحف إلى رسغيك، تاركًا أثرًا فى المكان الذى تغذى عليه. فى إحدى أمسيات الربيع، خرجت إلى الحديقة دون أن أثبت قميصى بشكل كاف داخل سروالى، وفيما بعد، عندما دخلت إلى المنزل بعد خمس دقائق ، وصفت لى زوجتى الصف المتقن من اللدغ، عشرون أو ثلاثون لدغة منتشرة على طول الفتحة الضيقة الظاهرة من الجلد، والتى انكشفت عندما انحنيت لقص الحشائش.

يحوم الذباب الأسود فى سحابة على مقربة من وجهك، ويتحرك معك لمسافة أميال، فهو يحتاج لدفء جسدك، ولصحبتك، ولدمك. وقد حاول كل كاتب، من كتاب منطقة الشمال الجبلية، أن يصف شراهة الذباب الأسود بعبارات مثل "القتلة المجنحون"، "الغوغاء الذين يعدمون دون محاكمة"، "الفك المفترس الطائر". يستمر موسم الذباب الأسود هنا فى جبال Adirondack أديروندداك فى الجزء الشمالى من ولاية نيويورك، طوال الربيع، أو فى ذروة الصيف، أو الخريف (لكن ليس خلال الشتاء)، و لمدة ستة أو سبعة أسابيع، أى من قبل الاحتفالات بيوم ٣٠ مايو، وهو ذكرى شهداء أمريكا فى الحرب الأهلية (١٨٦١ ـ ١٨٦٥) وبصفة عامة، الذين توفوا فى خدمة الأمة، وحتى ما بعد الاحتفالات بيوم الاستقلال فى الرابع

من شهر يوليو، وهو اليوم الذى أعلن فيه الاستقلال عن بريطانيا العظمى. تصبح الجنة التى أقيم بها، الامتداد الضخم للجبل والنهر والينبوع والبركة. جنة ناقصة. ومعظم الأراضى هنا محمية بقانون الولاية المعلن، وهو "برية للأبد". لكن المشرع لم يتمكن أبدًا من حل مشكلة الذباب الأسود.

لكن ذلك لا يعنى أنه لم تكن هناك محاولات. فمنذ عام ١٩٤٨ كانت تقوم المدن المحلية، التى تسعى إلى امتداد الموسم السياحى، برش مادة ال دى دى تى DDT من الطائرات الهليوكوبتر، وتلقى بمقدار وفير من هذه المادة فى المجارى المائية. فى عام ١٩٦٥وضعت راشيل كارسون Rachel Carson نهاية لذلك. (ومع بداية عام ١٩٩٠ عادت النسور أخيرا إلى Adirondack آديرونداك لتضع البيض، وقد أصبح قشر البيض سميكًا بشكل كاف يسمح له بالفقس). وفى السنوات اللاحقة، استخدمت بعض المدن مادة الـ malathion الماليثيون أو -methoxych lore ميثوكسيكلور، الذى كان عادة يتم رشه من الجو، وإن كان هناك دائمًا معارضه. ثم مؤخرًا بدأ بعض العلماء بتجربة وسائل من المقاومة الأكثر طبيعية عن طريق بكتيريا عضوية تتواجد بشكل طبيعى تسمى Bacillus thuringinsis باسيلوس ثايرنجنيسيس BTI، والتى استخدمت لسنوات كثيرة فى المقاومة العضوية لآفات الحدائق. وكذلك النوعيات التى تسمى israelemsis إسرائيلمسيس، المستخدمة فى صحراء الشرق الأوسط، وهى مخصصة للناموس، وللذباب الأسود. وهكذا، ظهرت صناعة صغيرة فى Adirondack أديرونداك لمقاولى القطاع الخاص الذين كانوا يقدمون عطاءات فى كل ربيع للحصول على حق معالجة المجارى المائية ، حيث يقومون بالقضاء على يرقات الذباب الأسود بطرق نالت استحسان المهتمين بالبيئة، وبالسياحة المحلية.

لكن مدينتنا لم تستخدم أبدًا طريقة المعالجة المعروفة بال BTI، لأن ضرائب الملكية عندنا هى الأقل فى المنطقة، ولم يطرح أحد هذا الأمر أبدًا ولذلك فقد توالى علينا موسم ربيع تلو الآخر، مباشرة عقب موسم الوحل. وفجأة تغير كل ذلك. تم نشر التماس يطالب بأن تنضم جونزبورج إلى قائمة المدن التى تقوم بمعالجة مجاريها المائية. وكان بداية ذلك صباح يوم، فى اجتماع نادى الروتارى

فى مطعم سميث، حيث قامت وسيطة عقارية محلية، تشكو من أنها فقدت عملية بيع عندما لم تستطع جعل زوجين حتى يخرجان من السيارة لمشاهدة منزل بريدان شراءه، فقد كان الذباب الأسود كثيفًا جدًا. وقد استمعت لها ساندى تايلور Sandy Taylor ووافقت على المساعدة فى كتابة الالتماس.

وكانت ساندى تايلور وزوجها قد انتقلا إلى هنا منذ زمن ليس ببعيد قادمين من الجنوب. قبل ذلك كانا يقيمان فى وسط الغرب، حيث كان جيم يعمل فى شركة مونسانتو Monsanto لسنوات كثيرة، وهما من هذا النوع من البشر الذى يضفى حيوية على المجتمعات التى ينتقلون إليها. وسريعًا ما بدأت ساندى فى المساعدة فى تنظيم مكتبة جديدة لمدينتنا، الأولى فى تاريخ المدينة، وأصبح الزوجان تايلور من دعامات الروتارى، والكنيسة، وجماعة المسرح. فهما يضربان المثل للعمل الجاد فى الحياة المدنية الأمريكية، وهى روح غريبة على هذه البقعة من المناطق النائية. وفى الوقت نفسه لا يمكن القول إنهما، من الناحية البيئية، لا يدركون مساوئ البيئة، أو إنهم لا يبالون بها، لأن ساندى كانت، لسنوات كثيرة، تعمل مرشدة فى محطة الأبحاث البيولوجية التى تديرها جامعة واشنطن فى موطنها، سانت لويس، وقد أخبرتنى ذات مرة أن "أسعد وكرياتنا كأسرة" "هى رحلات التخييم التى كنا نقوم بها".

لكن كان الذباب الأسود بالنسبة لها، كما هو بالنسبة لمعظم الناس، جزءًا غير مرغوب فيه من الطبيعة. لقد أخبرتنى قائلة: "أنا لا أستطيع العمل فى الحديقة، ولا أستطيع السير فى الغابة، بدون هذه المعدات الواقية، وهى غير مريحة وتشعر المرء بالحرارة والضيق. وأضافت قائلة "إن أقدامى تصبحان كتلة من اللسعات، تستمر آثارها حتى قدوم شهر أغسطس التالى". وبعد ذلك بوقت قليل قام عدد من مئات الأشخاص بتوقيع الالتماس الذى ساعدت ساندى فى صياغته، وكان مجلس المدينة مشغولاً بوضع مسودة لمجموعة من المواصفات لطرحها للمناقصة. وقد اقترح أصحاب النزل المحلية، أنه يمكن أن تقوم الضرائب، التى يدفعها الزائرون، بتغطية التكلفة. ويبدو أن اتفاقًا قد تم، وبدا كما لو كانت مدينتنا ستنضم قريبًا إلى المجتمعات الإحدى والعشرين الأخرى من مجتمعات -Adiron dack أديرونداك، تلك التى تعالج مجاريها المائية باستخدام الـ BTI.

وعلى أية حال بدأت المعارضة تتشكل، بخلاف معظم التوقعات. ولم تكن منظمة بشكل خاص ـ لم تكن هناك جماعة رسمية، ولا فريق "أنقذوا الذباب الأسود"، وإن كانت بدأت خطابات الاستفسار فى الظهور فى الصحف المحلية. كانت بعض التعليقات تتعلق بالتكلفة. قال أحد المقيمين: "ذلك الأمر سيكلفنا ٤٠٠٠٠ دولار، ستكون حصتى ٥٦ دولارا، ولا أعرف حتى ما إذا كان الأمر سينجح أم لا". و تساءل البعض الآخر عن مدى فاعلية الخطط، إذ تغطى جونزبورج مساحات شاسعة، معظمها مساحات برية صرفة، وحيث إن الذباب الأسود سيهاجر لمسافة كبيرة بحثًا عن الدم الذى يحتاجه لوضع البيض، فيجب أن تعالج كل هذه المجارى المائية ، ولذا يعتبر بعض الخبراء أن هذا مقترح مشكوك فى صحته.

لكن معظم المعارضة كانت فلسفية بشكل غير متوقع. فمن ناحية فإن محاولة توصيل التفكير البيئى إلى عقول الناس على مدى ثلاثين عامًا، قد بدأت تأتى بثمارها. وقد أوضح الكثير من المقيمين أن حقيقة وجود ملايين من الذباب الأسود حول جونزبورج فى الربيع، يعنى أن هناك كائنات أخرى تقوم بالتهامهم. وقد شهد الصيادون بأنهم عندما قاموا بشق بطون سمك السلمون، وجدوا أنها محشوة بالذباب الأسود، وقد أبدى آخرون قلقهم بشأن الطيور، أو الخفافيش، أو ببساطة عما إذا كان من الحكمة العبث بهذه الأنظمة الضخمة.

وهناك بعض من قال إن هذه ليست بالمشكلة الكبرى. بالتأكيد هناك أيام قليلة من العام، يكون فيها الوضع سيئًا عندما تكون الرياح ساكنة، ولذلك أرتدى القناع الواقى من الحشرات، أو ألزم المنزل.

ومازال هناك المزيد، حيث إن عددًا مثيرًا للدهشة من الجيران قالوا ـ ليس علنيا، وغالبا بشكل تهكمى، وربما بشىء من الحرج ـ إن الذباب الأسود، بطريقة ما، هو جزء من الحياة، وأحد الأشياء التى تمنحنا صفاتنا الخاصة، ويتساءل البعض عما إذا كان سيصبح من الممكن إقامة حفلات الذباب الأسود فى النزل المحلية.

وذات مرة قمت بتجربة غريبة، حيث طلبت من البعض تسجيل كل ما يبث من خلال المائة قناة من قنوات تليفزيون فيرفاكس، وفيرجينيا خلال فترة الأربع والعشرين ساعة نفسها. وأخذت الـ ٢٤٠٠ ساعة من شرائط الفيديو إلى المنزل فى Adirondack أديروندك، وأمضيت عامًا فى مشاهداتها. ما توصلت إليه، وسط الدروس الكثيرة التى برزت من خلال قنوات التسوق المنزلى الست، ومحطات فيديو الموسيقى الأربع، ومحطات الرياضة الثلاث، كانت الرسالة المهيمنة: أنت أهم شىء على الأرض، أنت هذا الجالس هناك على الأريكة ممسكًا بجهاز التحكم عن بعد، أنت مركز الكون، أنت أكبر قوى من فى الكون؛ كل الأشياء تدور حول تحقيق رغباتك.

هذه هى بالطبع تعاليم المجتمع الاستهلاكى، أى أن الفرد هو أهم شىء فى هذا الوجود. أحيانًا يرجع البعض هذا الشعور إلى "الطبيعة البشرية"، وعادة يأتى هذا من جانب الذين يجادلون أن المرء لا يستطيع فعل أى شىء حيال ذلك الشعور. لكن بالطبع استطاع البعض، فى أوقات أخرى وفى أماكن أخرى، أن يجعلوا أشياء أخرى مركزًا لحياتهم، مثل القبيلة، أو المجتمع، أو الدين، أو الطبيعة، أو مزيج من كل ذلك، وفى بعض الأحيان كان ذلك كله من أجل المصلحة: مثلا مجتمعات الأميش. كل ما أقوله هو أنه كانت هناك خيارات أخرى معروضة.

وعلى أى حال، فأنا لست متأكدًا عما إذا كان ذلك مازال قائمًا أم لا. لقد ترعرعنا فى ظل ثقافة الاستهلاك ـ نشأنا على فهم ضرورة معرفة أنفسنا، من خلال بعض أنماط الاستهلاك، وأشك كثيرًا أننا نستطيع حقًا أن نزعزع ذلك، وإلا كيف يمكن أن نتصرف؟ باستثناء البعض القليل منا نسبيًا، الذين عانوا من الجوع الحقيقى، أو من التعرض الفعلى لعوامل الطقس، أن الشعور بالواقع هو فى درجة صعوبة الشعور الذى تحس به وأنت مطارد من نمور مكشرة عن أنيابها. والفقراء، مثلهم مثل أى شخص آخر، مهتمون أيضًا بأسماء الماركات التجارية، وباهتمامات متنوعة (الراحة، الرفاهية، الهوية)، ويتمسكون بهذه الأشياء تمامًا مثل تمسكهم بالدين.

لا آكون مبالغًا إذا قلت، إن حاجتنا الاستهلاكية العميقة هى الدافع وراء القضاء على الذباب الأسود فى المدينة الريفية الصغيرة التى أقيم فيها: نريد أن نستهلك نسمة الهواء الخالية من اللدغ، نريد أن نستهلك خشب الأرز، وأحواض السباحة، والحدائق، دون أى تعقيدات أو مضايقات، نريد آن نستهلك هذه الأشياء وقتما نريد (وليس فقط فى الأيام التى تعصف بها الرياح)، ونريد أن نستهلكها كيفما نريد (بصدر عارٍ وبدون هذا الواقى من حشرات العين). وقد قضى جيم تايلور السنوات الأخيرة من عمله فى شركة مونسانتو Monsanto، يدير قسم الأستروترف AstroTurf ـ يدير التحول من كل ما هو طبيعى، إلى كل ما هو ملائم.

لكن ماذا عن هؤلاء الذين يعارضون معالجة الذباب الأسود، ونحن نمثل الفضيلة البيولوجية، والحرص على أن نضحى بأنفسنا من أجل هذا النظام الضخم من Diptera، آى الحشرات ثنائية الجناح وتعطشها لدمائنا؟ كيف نفسر هروبنا من إيمان المستهلك الكبير الذى فطرنا عليه؟

أعتقد أننا نفعل ذلك، بالدرجة الأولى، بالقول إننا مجرد مستهلكين أيضا. اذا أريد قتل يرقات الذباب الأسود فى مجرى "ميل كريك" المائى الذى يجرى بجوار منزلى؟ يرجع ذلك جزئيًا، إلى أننى لا أريد العبث، بيولوجيًا، بالمجارى المائية، لكن لأننى، على الأقل، لا أقيم فى ضواحى أمريكا ، حيث كل شىء من المفترض أن يكون ملائمًا، لكنى أقيم فى المنطقة الوعرة من Adirondack أنديرداك، وأخشى القول إننى إلى حد ما، أحب موسم الذباب الأسود السبب نفسه الذى أحب من أجله موسم الشتاء، والطرق الوعرة، لأنها تعمق من مغامرة الإقامة هنا. أنا أستهلك قلة الراحة، وأحولها إلى سلعة تبعث على السرور، فتصبح الوقود لشعورى الخاص بالتفوق. أنا لا أشعر بأننى متميز لأننى أملك ماركة تجارية استثنائية من الملابس، أو لأننى أقود سيارة ذات ماركة خاصة، أو أدخن نوعًا خاصًا من الدخان؛ لكن أشعر بأننى متميز لأننى أمتلك سيارة قديمة، ولأننى أرتدى ملابس قديمة طو'، الوقت، أو لأننى يجب أن أقطع مسافة عشرين ميلا جيئة وذهابًا للحصول على ربع جالون من اللبن. أحب عند اتصال أحد بى

من المدينة وينقطع التيار الكهربائى، أو تهب عاصفة ثلجية، أو أن تنخفض درجة الحرارة لتصبح ثلاثين درجة تحت الصفر. كل ذلك يملؤنى بالزهو، بالطريقة نفسها التى يفخر بها كل منا بحذاء ماركة نايكى Nike، أو بساعة رولكس Rolex، أو حمام سباحة، أو سيارة فورد إكسبلورار. إن موسم الذباب الأسود هو اختبار شىء يجب تحمله؛ أخرج منه وأنا أشعر بأننى أكثر قوة وصلابة - وذلك يعنى، على ما أعتقد، أننى مستهلك كبير أيضًا. إن موسم الذباب الأسود هو شىء خاص بى أنا.

يخيل إلى أن هناك آخرين يشاركوننى ذلك الشعور. إن التحول نحو البساطة التطوعية، التى نجدها الآن فى بعض اتجاهات الثقافة الأمريكية، هى تحول نحو صورة ذاتية جديدة. الآن إذا أردنا معرفة من نحن، فعلينا النظر إلى، ليس ما نقوم بشرائه، لكن إلى ما نقوم بإلقائه، والاستغناء عنه.

ومن الواضح أن هناك مغزى فى كون هذا النوع من الاستهلاكية أكثر التواء من نظيره المباشر، والقضاء على الذباب الأسود، هو رد فعل منطقى للإنسان، والـ BTI هو نسخة متضخمة، ومؤثرة من الضرب اللانهائى باليد لقتل الذباب الأسود. إن الرغبة فى استهلاك الهواء الخالى من الذباب الأسود هى، إلى حد ما، منطقية جدًا، وإيجاد طريقة لاستهلاك هواء ملىء بالذباب الأسود، به قدر غير قليل من الجنون.

إذًا، هل كل هذا مجرد مسألة حظ؟ إذا كان عصرنا هو عصر السخرية اللانهائية، وإذا كان عدم الاستهلاك هو مجرد شكل من أشكال بناء الصورة الذاتية، فهل هذا ينتج عنه أى فرق فى الطريقة التى نعيش بها؟ هل يمكن القول إن هناك طريقة أفضل من الأخرى؟ هل يمكن القول إننا لا يجب أن نقتل هذا الذباب الأسود اللعين؟

أعتقد، أنه يمكننا قول ذلك، على الرغم من أننا يجب أن نقول ذلك بحذر، لأننا يجب أن ندرك أن الشعور بالتفوق، ينطوى على كثير من السخافة.

الجدل الأول واضح: حتى إذا كانت الأسباب الرئيسية لدفاعك عن الذباب الأسود تتعلق بك أنت، فإنها، على أية حال، تفيد باقى المخلوقات. وإذا كان استهلاك الطبيعة غالبًا ما يدفع ثمنه كوكب الأرض، لكنه أكثر أشكال الاستهلاك نقاء، وأقل تكلفة، أقل تدميرًا، وهذا فى حد ذاته فضيلة كبرى، حيث إن نتيجة الحياة الطبيعية، واليومية التى يعيشها المستهلك الآن، تهدد بتحطيم كل شىء حولنا. لقد قضيت معظم السنوات العشر الماضية، أكتب عن الاحتباس الحرارى، وهو ليس أكثر من إجمالى ولعنا الزائد بالراحة، والرفاهية، ونتيجة الطاقة الشمسية المتحولة إلى الكثير من وحدات القوى الكهربائية الإضافية لكل متر مربع من سطح الأرض. إنها الرغبة البشرية فى استهلاك الطاقة من أجل العيش فى رفاهية، ونجد مردود هذا فى علم الطبيعة الخاص بالأرض، وإذا لم نتمكن من التحكم فى هذه الرغبة، يصبح علم الطبيعة مستحيلا. وبهذا التحليل، وعلى الرغم من أنه قد يكون غريبًا بعض الشىء مفهوم الاستهلاك بعدم الاستهلاك، نجد أن القيام بذلك يكون مثل إحلال شىء ذى تأثير قوى، الهروين، لآخر ذى تأثير ضعيف، بالميثادون؛ ويمكن إشباع رغبات المرء بأقل ضرر ممكن أن يقع على النظام الأساسى للكون.

لكن ليس هذا فقط كل ما يمكن أن يقال، بل مازال هناك المزيد لأن هذا النوع من عدم الاستهلاك السخيف هو، إلى حد ما بطبيعته الفعلية، يعرضنا للضرر، حيث يزيد من احتمالية تعرضنا لبعض القوى التى قد تغيرنا فعلا، وتبدأ فى إحداث تآكل فى بعض البيئات التى تعودنا عليها منذ الصغر. ومثالاً على ذلك: عندما كنت أقطن مدينة نيويورك، ساعدت فى إنشاء مأوى صغير للمتشردين، فى الكنيسة التى أتبعها، وكنت أمضى كثيرًا من الليالى هناك. لقد كان ذلك سلوكًا كلاسيكيًا، غير استهلاكى، جعلنى أمضى ساعات كثيرة فى هذا المكان، كان يمكن أن أقضيها فى المطاعم، أو الحانات، أو دور السينما، أو المسارح. بالطبع لم أقم بإنشاء هذا المأوى لأننى، بصفة أساسية، مسيحى صالح؛ لقد قمت بذلك لأننى رغبت فى أن أشعر بأننى شخص، إلى حد ما، ورع. على أية حال، وبمرور الوقت، بدأت تحدث عندى بعض التغيرات، فقط بمجرد المساعدة فى هذا

المشروع. لقد جعلتنى أشعر بسلام وأنا أقوم بالأعمال اليومية البسيطة فى هذا المكان ـ مثل تغيير ملاءات الفراش، طهى الحساء، تغيير غطاء الوسائد. لقد كانت هذه الأعمال وغيرها هى إحدى طرق تعلم عدم الاستياء من القيام بالأعمال المنزلية، وطريقة للتوقف عن رغبة المستهلك الفطرى فى وجود خادمة، أو والدة ترعى شئونه. فى الواقع، لقد شعرت فى داخلى بسعادة لأداء هذا العمل ـ اكتشاف لم يكن ليدهش أيا من السلسلة الطويلة من المعلمين الروحيين، والأنبياء أو الآخرين خلال العصور، لكن بالتأكيد هذا الشعور رجع بى إلى الوقت الذى كنت أعيش فيه بالضواحى.

أقوم الآن أحيانا بالمساعدة فى حملة عودة الذئاب إلى Adirondack أديروندداك. لقد قام البعض، من الذين لديهم تفكير الوسطاء العقاريين نفسه، بالقضاء على الذئاب فى السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، بحجة أنها تقف فى وجه التقدم، مثلها فى ذلك مثل الذباب الأسود الآن. أحاول أن أقنع نفسى بأن اهتمامى الرئيسى هو فى صالح الذئاب نفسها، أو حتى فى صالح بيئة صحية للغابة، التى تحتاج، بدرجة كبيرة، إلى وجود الضوارى بها. أعرف أن ما أرغب فيه هو سماع ذئب يعوى فى الغابة، لأن ذلك سيجعل هذا المكان، كما سيجعل حياتى أيضا، تبدو أكثر رومانسية. سوف أستهلك عواء الذئب هذا، تمامًا كما استهلك أسلافى من قبل، هدوء الليالى، التى أصبحت فجأة خالية من عواء الذئاب. لكن بمجرد تواجد الذئاب، فإن عواءها سوف يحمل أيضًا رسائل أخرى معينة، وغير مباشرة، وسيكون هناك احتمال بعيد للقاء هذا الممثل الكبير للكون، لقاء قد يتجاوز مجرد الاستهلاك. لقد رأيت هذا الصيف فى ألاسكا، دبًا رماديًا قريبًا من ضفة نهر موحلة، فى ليلة يملؤها الضباب. والحقيقة أن هذا اللقاء قد لمس جزءًا صغيرًا من افتتان المستهلك الذى نشأت عليه.

وللذباب الأسود التأثير نفسه أيضًا، ولكن بطريقة أبسط. ويومًا بعد يوم، فى موسم الذباب الأسود، يذكرنى ذلك بأننى حقًا لست مركز الكون، وأننى أمثل، جزئيًا، الطعام للزواحف والكائنات الأخرى. إن للذباب الأسود قوى متواضعة، فهو ما زال له ضغط بطىء ومقنع خاص به. وفى الواقع، وفى غضون عقد من الزمن،

فإن العيش فى مكان تسوده الجبال المرتفعة، والشتاء الموحش، وعواصف الصيف، والغابة غير المأهولة، والحشرات الجائعة، قد أحدث بى تغييرًا ما. فأنا لست الشخص نفسه الذى جاء إلى هنا. حقيقة أنا مازلت مستهلكًا، والعالم المستهلك مازال العالم الذى نشأت فيه، والذى تنفست هواءه فترة طويلة ، وافتراضاته مازالت تسيطر على نفسى - ولكن ربما تنقص قليلا كل عام - ربما تسيطر على ابنتى بشكل أقل قليلا من ذلك. هناك أوقات أشعر فيها بأننى قد تخلصت من السحر الذى سيطر على عقلى - سحر الإعلانات المنتشرة فى أنفاق المترو، وعلى شاشات التليفزيون. هناك أوقات يمكن أن أشعر فيها أننى فقط مجرد كائن.

قررت جونزبورج، على الأقل هذا العام، عدم استخدام الـ BTI. بدلا من ذلك، تم إرسال استبيان مع الإقرار الضريبى، مفاده: هل ستكون راغبا فى السماح للعمال بالدخول إلى أرضك، فيما إذا قررت المدينة بمعالجة المجارى المائية؟ أعتقد أن القليل جدا - لكن ليس على الإطلاق الأغلبية لكن ربما ما يكفى لجعل الخطة غير قابلة للتنفيذ - سيجيبون بالنفى. وهم مثلى ربما يفعلون ذلك دون أن يعرفوا تمامًا السبب فى هذا، لكنه مؤشر بسيط يدل على أننى بدأت فى التخلص من هذا السحر، وأنه حسب اعتقاد البعض، ربما لن تستمر طويلا تلك الإعلانات التى تسحرنا عبر جهاز التليفزيون. إنه مؤشر على أن الربيع قد يكون قادمًا - ومعه لدغ الذباب الأسود.

قانون حماية حقوق مستهلك الأنباء الإخبارية

سوزان براون ليفين

فى الثمانينيات من القرن التاسع عشر، تحول قراء الصحف ومشاهدوا النشرات الإخبارية المسائية، وغيرهم من المواطنين الذين يرغبون فى مواكبة الأحداث الجارية، إلى مستهلكين. فى بداية الأمر كان ذلك غير محسوس تماماً - فقد كانوا يتكونون من البعض القليل من حملة الماجستير فى إدارة الأعمال، وبعض الأقسام خاصة المعنية بالأسواق، والقليل من مجموعات التركيز واستراتيجيات التسويق - وقبل أن يدرك أى أحد ماذا يحدث، أصبح كل قارئ وكل مشاهد من الجمهور "مستهدفا". وعليه تم إحصاؤهم، واستطلاع آرائهم من أجل تحقيق المصالح وضمان انحيازهم، ثم وضعهم فى الديموغرافية الملائمة. ومكنت المعلومات، التى أتم مروجو الاتجاهات المختلفة جمعها ، العمليات الإخبارية أن تجد سبلاً لجذب الجمهور لمنتجاتهم - التى كانت فى السابق خبراً - وأن تجذب الجمهور إلى المعلنين.

وبعد عشر سنوات كانت العبارة الجاذبة فى مجال النشر والصحافة الإذاعية هى "العلامة التجارية". تم تقسيم ما كان يسمى بالمنتج الافتتاحى، إلى وحدات إعلامية صغيرة الحجم حتى يمكن تسويقها بقدر أكبر من الكفاءة من صفحة مطبوعة إلى عالم الإنترنت، أو من على موجات الأثير إلى موضوع للترويج، وكذلك تسويقها إلى جمهور المستهلكين (المعروفين سابقًا باسم المواطنين).

وغالبًا ما تكون الأخبار المتولدة عن هذا النظام، غير جديرة بالحماية التى يوفرها التعديل الأول من الدستور، وغالباً ما يبدو المواطنون المستهلكون متواطئين

فى تشكيل الإجراءات التى كان المؤسسون على يقين من أنها ستضمن الرفاهية للجمهورية.

بينما انخفضت منزلة المواطنين من مواطنين إلى مستهلكين، فإن الصحفيين أيضًا انحدرت مرتبتهم من أبطال إلى أشرار. على سبيل المثال، فى نظر الرأى العام، تدهور الموقف المناوئ للصحفيين، الذى كان يعتبر موقفًا للصحفيين ضربًا من الشجاعة أثناء فضيحة وترجيت، إلى اعتباره نوعًا من الاستبداد القذر، وأصبح يُنظر إلى الصحفيين على أنهم كلاب مسعورة خرجت لتنهش الشخصيات الكبيرة، ولبناء شهرة لأنفسهم، وللسخرية من كل شخص آخر.

وفى الواقع، خانت وسائل الإعلام ثقة الجمهور فى نواح كثيرة. وكانت الاتهامات التى وجهت للصحفيين كثيفة، إن لم تكن دائمًا قائمة على أسس سليمة. والصحفيون ملامون لتعذيبهم الجمهور بسادية، بوضع الميكروفونات فى وجوه هؤلاء الذين وجدوا أنفسهم فى الأحداث الإخبارية، وملامون لرفعهم الشعار الساخر "لأخذ خبر، يجب إسالة دم". ملامون على جو السيرك الذى ينشأ عن وجود كاميرات فى قاعة المحكمة، والتى يعتقد الكثيرون أنها قوضت محاكمة مقتل أو.جى سمبسون O. J.Simpson، ومؤخرًا، فى محاكمة المربية البريطانية لويز وودوارد Louis Woodward. هم ملامون لصنعهم الأبطال من ركائز المجتمع، مثل إيمى فيشر Amy Fisher، وجوى باتافوكو Butafuoc Joey وإبعاد قادة محتملين مثل الجنرال كولين باول Colin Powl. وقد فهم الجميع، من رسالة انتحار نائبة مستشار البيت الأبيض فينسنت فوستر Vincent Foster "هنا، تدمير الناس يعتبر رياضة"، إنها تشير إلى المؤسسات الصحفية بواشنطن. وأدان استطلاع للرأى، أجراه مركز بحوث بيو عام١٩٩٤ للجمهور وللصحافة هذه النقطة بتجهم: حيث قال أكثر من٧٠٪ من الذين تم استطلاع آرائهم، إن "مؤسسات الأنباء تقف فى طريق حل المجتمع لمشاكله".

ينبغى ألا يشكو الجمهور. هكذا كانت استجابة مسئولى وسائل الإعلام؛ فهم يحصلون فقط على ما طلبوه بوضوح، وعلى ما يريدونه. هل يمكن أن يكون المغزى من وراء هذه القصة أن الصحافة المتدنية، والجمهور الذى يتسم بالسوقية، يستحقون بعضهم البعض؟

بالتأكيد هناك بعض التحسن فى صورة المؤسسات الصحفية، وإن كانت حاليًا ليست موضع ثقة، ويجب أن يكون هناك أيضًا تحسن لصورة الجمهور. وحسب واقع الأمور، فإنه تجرى محاولات تعبئة بعض البواعث الجيدة، وإن كانت معظم هذه محاولات قد أخفقت.

وجد الجمهور أن أكثر الوسائل تأثيرًا لمعاقبة وسائل الإعلام على ما يرتكبونه من ذنوب هو اللجوء إلى القضاء. عندما حكمت المحكمة لسلسلة سوبر ماركت "أغذية ليونز" بمبلغ ٥,٥ مليون دولار عن الأضرار التى لحقت بسمعتها بسبب قصة تستند على تقارير مشكوك فى صحتها، فقدت الأخبار الحقيقية - الانتهاكات المروعة للصحة وغش المستهلك التى كشفتها الصحيفة - وسط هذا الخضم. كان الإجماع على أنه تم وضع وسائل الإعلام فى مكانها الصحيح.

عندما أعلن الجمهور سخطه على الصحافة لمطاردتها ريتشارد جيويل Richard Jewell، الرجل الذى اتهم زورًا بالهجوم الذى وقع على متنزه الألعاب الصيفية عام ١٩٩٦خلال دورة الألعاب الأوليمبية فى أتلانتا، كان هذا تعبيرًا عن الاحتجاج على سلوك الصحافة المتعجرف، والمتطفل، والمخادع. لكن فى الحقيقة، دخان غضبهم حجب الخبر المهم، ألا وهو أن مكتب التحقيقات الفيدرالى، وليست الصحافة، هو الذى تصرف بشكل غير لائق، بتسريبه اسم جيويل Jewell باعتباره مشتبهًا فيه، وذلك لأسباب خاصة بالمكتب.

فى كلتا الحالتين، كان الانتقام المضلل ضد الصحافة (ونعم، من جانب الصحافة الهابطة) يحجب القضايا ذات الاهتمام العام - القضايا الملحة مدنيًا.

جاء هذا العداء السائد بين المواطنين، وهذا الانحطاط المستهجن فى المعايير من جانب وسائل الإعلام، فى أسوأ وقت ممكن فيما يتعلق بحصة الجمهور المشروعة فى التقارير الإخبارية. وتفرض قوتان خارجيتان نفسهما بشدة. القوى الأولى هى طوفان المعلومات غير المستوعبة، والتى لم يتم التحقق من صحتها، ولا يمكن الاعتماد عليها، والتى يتم الحصول عليها من خلال عالم الإنترنت؛ يتطلب جعلها ذات مغزى مسئول، نوعًا من الحفاظ على القيم التى وضعتها الصحافة.

والقوى الثانية تكوين، مع كل تكتل إعلامى يتشكل، احتمال متزايد من السيطرة على الأنباء.

والمواطنون المستهلكون للأنباء لديهم الكثير على المحك هنا، والصحفيون، الذين تتمثل مهمتهم فى الاهتمام بأمر المواطنين وخدمتهم، لديهم الكثير على المحك أيضًا فيما يتعلق بضمان أن تكون طلبات المستهلكين صارمة، لكن واقعية. وتحقيقًا لهذه الغاية، يتعين على الطرفين التوصل لفهم مستنير عن أى أجزاء المشكلة هى نتيجة لأداء الصحافة ـ وبالتالى يتم إصلاحها من خلال الصحافة ـ وأى الأجزاء هى نتيجة لمجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية الأخرى، وبالتالى فهى فى حاجة إلى إصلاح بوسائل أخرى (بما فى ذلك الحملات الصحفية). بالتأكيد يتفق مجتمع وسائل الإعلام المعاصر مع سلسلة محلات ملابس بمنطقة نيويورك التى تعلن عن خصومات بقولها "المستهلك المتعلم هو أفضل عملائنا".

للبدء فى عملية التعليم هذه، فإنه من الضرورى إعادة النظر فى بعض المبادئ الصحفية المحترمة. هذه المبادئ تشكل مثاليات المهنة، ومع ذلك فهى ليست كافية: عندما تطبق على عالم الحصول على المعلومة الإخبارية، نجد أنها تحتل مكانة عالية بحيث لا تسمح لهذه الأخبار أن تكون مفيدة فى اللحظة التى يحتاج فيها اتخاذ حكم حاسم. ويجب أن يقدم ميثاق حقوق المستهلك العملى قانونًا يعكس أخلاقيات المهنة يكون واقعيا، وفى الوقت نفسه، محترمًا.

وبصفة عامة فإن المبادئ المقبولة للحصول على الأخبار المسئولة هى، تقريبًا، على النحو التالى:

> أن تكون شجاعا، أن تكون رحيما ـ أن الشعار الحديث للذين يقومون بالتشهير بالمشاهير، "أن توجع المرتاحين وأن تريح المنكوبين"
>
> أن تحصل على كل الحقائق الضرورية وتجمعها لصياغة الحقيقة.

أن تكون منصفًا ـ أن تعطى فرصة لجميع الأطراف للتعبير عن أنفسهم.

أن تكون موضوعيا وغير منحاز.

أن تقوم بإبلاغ المعلومة، وذلك بعد جمع المعلومات وتنظيفها بطريقة تساعد على إصدار أحكام جيدة.

أن يكون لديك هدف ـ لضمان أن يكون اختيار الأخبار التى تقوم بملاحقاتها هو اختيار حكيم، وأيضًا لضمان أن ما تم حذفه قد تم تقييمه بعناية.

أن تكون مسئولاً ـ إذا تم ارتكاب خطأ ما، يجب تصحيحه بسرعة وبشكل فعال.

وهناك أيضا بعض الأشياء التى يتفق الجميع على ضرورة عدم قيام الصحافة بفعلها:

قبل كل شىء، لا ينبغى أن يكون الدافع هنا هو المصلحة الشخصية، أو المكاسب التجارية، أو أى هدف آخر بخلاف إعلام الجمهور.

لا ينبغى التحريض على العنف- كالصياح "حريق!" فى مسرح مزدحم، أو الصياح "عنصرية" فى مواجهة متوترة.

كما لا ينبغى التعدى على خصوصية أى شخص، حتى ولو كان هذا الشخص من المشاهير.

لتوضيح كيفية تطبيق هذه القيم الخاصة بتحرير الأخبار، فلنتصور للحظة واحدة، معلومة من الأخبار قبل أن تقوم الصحافة بتحريرها، إذا اتصل صديق ليقول إن امرأة فى المجتمع قد تعرضت للاغتصاب. سيكون رد الفعل التقليدى، "آه، يا إلهى!" يليه سيل من الأسئلة: "من هى التى تعرضت للاغتصاب؟" "لا، أنا لا أعرفها؛ أين تعيش؟" "أين تعمل؟" "هل تعرضت للضرب؟" من فعل ذلك؟ وهل قبضوا عليه؟ وإذا لم يكن كذلك، كيف يبدو؟" قد يشعر أى مواطن لديه بعض

الفضول، وربما معرض للخطر، فى أن له الحق فى الحصول على إجابات لهذه الأسئلة - "حق للجمهور فى المعرفة".

الآن، فلنضع أى صحفى، وأيضًا بعض القيم الإخبارية، فى الصورة ونشاهد ماذا سيحدث. سيكون لدى المراسلة رد الفعل نفسه من الصدمة والقلق، لكنها تعرف أن من واجبها وضع مشاعرها جانبًا وأن تروى القصة بطريقة موضوعية، وبرباطة جأش. سوف تحصل على الكثير من الحقائق التى من شأنها الإجابة على جميع الأسئلة التى سبق وسألها المواطنون، لكنها ربما لا تكون قادرة على استخدامها إذا، على سبيل المثال، كانت تعمل لدى وكالة أنباء لديها سياسة حماية خصوصية ضحايا الاغتصاب، فإن المراسلة لن تكون قادرة على الكشف عن اسم الضحية أو عنوانها أو مكان عملها. وقد يملى الذوق السليم على المراسلة ألا تكشف عن التفاصيل المروعة للاعتداء، أو عن طبيعة الجروح التى أصيبت بها. (ولسوء الحظ فإن العكس تماما هو محتمل أيضًا فإن مدير المراسلة قد يدفعها لنشر تفاصيل أكثر بشاعة) فيما يتعلق بالحصول على معلومات عن مرتكب الجريمة، فإن الشرطة قد لا ترغب فى الكشف عن اسمه، حتى يتم إلقاء القبض عليه. وعلاوة على ذلك، قد يكون من غير المفيد إعطاء أوصافه، إذا لم يتضمن هذا جنس المغتصب، وربما يكون الزعماء المحليون من السود قد لفتوا الانتباه إلى أنهم قد لاحظوا أن الأشخاص السود الذين يظهرون فى الأخبار هم فقط، المجرمون، لذا أصبحت غرف الأخبار تتعامل بحساسية تجاه هذا الاتهام. إذًا، ماذا يتبقى بعد أن يتم إعداد هذه القصة للنشر؟ إجابات أقل بكثير من المعلومات التى كان من الممكن أن يقدمها جيران المجنى عليها.

وأحيانًا يجد العاملون بالإعلام أنفسهم مضطرين لاتخاذ أحكام لها علاقة بوضعهم كوسطاء أكثر من كون أن لها علاقة بالخبر نفسه. هذا ما حدث فى بلدة واكو بولاية تكساس فى عام ١٩٩٣. فقد تحصن أعضاء طائفة دينية تدعى "فرع الداودية" Branch Davidian - نسبة لداود - وزعيمهم يدعى ديفيد كوريش David Koresh، فى مجمعهم فى مواجهة بعض عملاء فيدراليين، وعدد من رجال صحافة كان يبدو أكبر من عدد مواطنى بلدة واكو. كان موقف هؤلاء الصحفيين السبب الرئيسى فى تغيير القصة التى كانوا يقومون بتغطيتها.

بدايةً، كان عضوًا حسن النية من رجال الصحافة، هو الذى قام بتسريب خبر لكوريش Koresh بأن هناك غارة وشيكة. فقد قام مراسل صحيفة استطاعت صحيفته الحصول على الخطط السرية لمكتب التحقيقات الفيدرالى، بتحذير ساعى بريد يتجه نحو المجمع بأنه يسير نحو الخطر. لقد اعتقد المراسل أنه بذلك يقوم بحماية أحد المارة الأبرياء؛ لكن ما لم يكن يعرفه، هو أن ساعى البريد هذا كان عضوًا فى الطائفة. وبدلاً من أن يتراجع أسرع لتحذير باقى الأعضاء بالداخل.

ومازالت تتردد أصداء قصة قيام الموظف فى جريدة محلية بإفشاء خبر الغارة، على الرغم من قانون عدم النشر. وفى عام ١٩٩٦، كسبت أسر الضباط الذين قتلوا فى الغارة، دعوة اتهموا فيها الصحيفة بالمساهمة فى حالات الوفاة بتقويضها عنصر المفاجئة فى الهجوم.

ليست الصحافة المطبوعة هى فقط التى اتخذت قرارات، اتضح فيما بعد أنها قرارات حياة أو موت. فقد اتخذت إذاعة محلية القرار الدخول فى العملية التفاوضية من خلال الاتفاق، كجزء من مشروع القرار المقترح، باستضافة كوريش Koresh على الهواء. وفى الوقت نفسه بالضبط، كانت إذاعة الـ سى إن إن مهتمة بالقصة وتتخذ القرارات الخاصة بها، وعندما اتصل كوريش Koresh بال سى إن إن CNN، وُضع فورًا على الهواء. وبذلك فقد فريق التفاوض ورقة مساومة فى الوصول إلى جمهور.

من الصعب تحديد درجة تشبع وسائل الإعلام فى المنطقة التى ساهمت فى تصعيد التوتر. هل كان كوريش Koresh سيستسلم إذا تم إلغاء برنامجه المعروف على مستوى العالمية؟ وعلى المنوال نفسه، هل كان مكتب التحقيقات الفيدرالية سيتحرك باندفاع إذا لم يقع تحت ضغط من العالم الذى ينتظر "القيام بعمل شىء ما"؟

ترى: أيًا من أحداث واكو كان يمكن احتواؤها إذا تمسك الصحفيون ببند أو آخر من بنود قائمة المبادئ التى بدأنا بها؟ هل كانت أى من هذه الأحداث

ستتفاقم بسبب قرار يستند على آحد هذه المعايير؟ النقطة الأساسية هى أنه على الرغم من أن هناك الكثير مما تتطلع إليه المبادئ السامية من قول الحقيقة، والاستقلال، واحترام الخصوصية، إلخ، فإن هذه المبادئ لا تساعد هؤلاء الذين يقومون بالتوجيه فى تغطية الأخبار.

كمثال أخير. اضطر نجم التنس أرثر آش Arthur Ashe فى عام١٩٩٢، إلى الإعلان عن حقيقة مرضه بمرض الإيدز، خلال مكالمة هاتفية مع مراسل صحيفة يو إس إيه اليوم. فى ذلك الوقت، شعر كثير من الناس أن الكشف عن مرضه لم يكن إلا لتغذية شهية الجمهور النهمة للقيل والقال. وجادل البعض الآخر أن هذا الخبر جعل الناس يولون مزيدًا من الاهتمام للمرض، لأن بطلا قوميا يمارس الشذوذ الجنسى قد أصيب به. وذكر آش نفسه، فى وقت لاحق، أنه شعر بالراحة للإعلان عن سره وأنه يعتقد أن ذلك مكنه من القيام بأعمال لصالح المجتمع فى الأشهر التى سبقت وفاته.

هل كان ينبغى على المراسل أن يدفن القصة ـ حتى ولو كان هذا على حساب رؤيتها منشورة فى مكان آخر، وحصول مراسل آخر على السبق الصحفى؟ ربما كان الأمر كذلك، لكن ماذا كان سيحدث لو كان الشخص المشهور المريض هو مرشح رئاسى مثل بول تسونجاس Paul Tsongas، أو رئيس دولة ـ مثل فرانلكين روزفلت Franklin Roosevelt، أليس من حق الجمهور أن يعرف؟

لكن هل من حق الجمهور معرفة أخبار عن صحة الرئيس المتدهورة حتى ولو كانت الأمة فى حالة حرب، وأن هذه الأخبار قد يستفيد منها العدو؟ المبرر الأكثر شيوعًا لفرض رقابة على الصحافة، هو الأمن القومى. بالقطع كان من الخيانة كشف خطط غزو نورماندى فى الحرب العالمية الثانية. لكن ماذا عن غزو خليج الخنازير فى عام ١٩٦١، عندما عرف الرئيس جون إف. كيندىJ.F.Kennedy أن الكثير من وكالات الأنباء قد نما إلى علمها الغزو المحتمل لكوبا، قام بإقناعهم بالتحفظ على القصة من أجل المصلحة القومية. لكنه فى وقت لاحق، أعرب عن أسفه لأنه لو كانت القصة قد تسربت لكان هذا الغزو المنحوس قد تم إجهاضه وبالتالى تجنب هذه التجربة الفاشلة.

لا توجد قصتان متشابهتان، وكل حكم ينطوى على مزيج مختلف من التعرض للخطر، والحساسيات. أحيانا يكون "كلب حراسة الديمقراطية" أشبه بثور ثائر، ولكن الخطر الأكبر هو تكميم الوحش. ومع ذلك، يحق لمستهلك الأخبار المطالبة بأن يتخذ رؤساء التحرير القرارات فى بيئة شريفة وعلمية، مع توفير ضمانات وشروط يلتزم بها التسلسل القيادى فى أى صحيفة، تكون ضمانا ضد عدم المبالاة، والحقارة، والتضليل.

لهذا التسلسل القيادى روابط أكثر من التى يعرفها مستهلكو الأخبار، وأنه من المهم الأخذ فى الاعتبار أنه فى معظم الحالات، فإنه ليس المراسل، لكن المحررين وغيرهم من المشرفين، هم الذين يحددون ما هو "الموضوع الجيد"، ومن خلفهم درجات متزايدة من المصالح، والتى يمكن أن تمتد إلى أعلى المراتب فى أى مؤسسة قد لا يكون لديها سوى مصالح عابرة، وخبرة قليلة فى جمع الأخبار.

وبالنسبة لكثير من هذه المؤسسات، فإن المعيار الوحيد للنجاح هو النتيجة النهائية. أما تخفيض الإنتاج والاقتصاديات فهى أهداف الإدارة. وأحيانًا ما يشعر الصحفيون بأنهم مثل الأيدى العاملة فى الحقول، ذوى قدر ضئيل من الأهمية. حتى فى أفضل غرف الأخبار، يغطى عدد قليل من المراسلين أخبارًا أكثر لكنهم يحصلون على خبرات أقل مما كانوا يحصلون عليها فى الماضى. فبينما يتنقلون من الكتابة عن آخر الفيضانات على طول النهر الأحمر، إلى أحدث الأدوية فى مكافحة الإيدز، تجدهم أحيانًا يختصرون الطريق ويستمدون أخبارهم، على سبيل المثال، من نشرات صحفية صادرة عن الأطراف المعنية، ومن المكالمات الهاتفية مع أشخاص فى السلطة، فيكتبون تقارير منقولة عن آخرين.

وهذا النهج المبتذل لا يقلل فقط من قيمة التقارير الإخبارية المشروعة، لكن يضعف أيضًا الحاجز المقام أمام هذا النوع من المعلومات التى يجب حماية الجمهور منه ـ مثل الشائعات غير المقبولة على شبكة الإنترنت. ولمعرفة كيف أصبحت الشبكة العالمية لاعبًا بارزا فى نقل الأخبار، فلننظر إلى ماذا حدث فى الشهر الأول بعد هبوط مركبة الفضاء باثفايندر Pathfinder على سطح المريخ. كان هناك على موقع الشبكة الخاص بوكالة ناسا، ٦٥٥ مليون دخول على الموقع.

وهذه الأرقام تمثل تحديًا لأفضل وأحدث وسيلة إعلام، لكن شبكة الإنترنت غالبًا ما تكون مصدرًا خاطئًا للمعلومات. وأحدها تفسير "النيران الصديقة" التى استخدمتها فى حادثة تحطم طائرة تى دبليو إيه رحلة رقم ٨٠٠ : لقد التقطها السكرتير الصحفى السابق للرئاسة بيير سالينجرPierre Salinger، وعلى الرغم من جهود الصحفيين ووكالات الأنباء الذين لم يجدوا أى أدلة إثبات، فإن سالينجر Salinger، بتحريض من هواة التآمر على شبكة الإنترنت فى جميع أنحاء العالم، لم يتزحزح عن موقفه.

والتقارير ذات المرتبة الثانية، هى نتيجة ثانوية لعملقة المؤسسات. وهناك شىء آخر ـ وهو يصعب التعرف عليه لأنه يؤثر على ما لا يتم التصريح به ـ هو بيئة من الرقابة الذاتية، والتفاهم المشترك بين موظفى الأنباء، بأن بعض القصص لا يجب الاقتراب منها. إذا تحدثت مع أى صحفى يعمل لحساب مؤسسة من مؤسسات وسائل الإعلام الضخمة، سوف يخبرك أن المحررين ورؤساء التحرير لا يشجعونهم على ملاحقة أدلة معينة.

وأحد هؤلاء هو روبرت مردوخ Rupert Murdoch. وتتضمن إمبراطوريته صحف وشبكات تغطى أخبار السياسيين فى جميع أنحاء العالم والذين، بدورهم، يتخذون القرارات التى تؤثر على أعماله. وهو يملك أيضًا دورًا لنشر الكتب، تتجاوز أرقام المبيعات المتوقعة لها بكثير، يمكن أن تقدم خدمات ضخمة، للشخصيات من ذوى النفوذ الذين لهم تأثير كبير على أعماله. كما يمتلك شركة سينمائية لإنتاج الأفلام، مثل فيلم عيد الاستقلال، الذى يمكن أن يعزز أعماله فى وسائل الإعلام الأخرى. فى هذا الفيلم تسمى إحدى وكالات الأنباء، التى تغطى عملية غزو أجنبى، بمحطة سكاى التليفزيونية. ويصادف آن يكون هذا هو اسم عملية الأقمار الصناعية الخاصة بمردوخ Murdoch، والتى دفعت منذ وقت غير بعيد، هيئة الإذاعة البريطانية الموقرة للخروج من السوق الآسيوية عن طريق بناء الثقة مع وسطاء القوى السياسية الإقليمية والذين، غنى عن القول، يتوقعون أن يعاملوا باحترام من جانب شبكة سكاى نيوز. و يبقى أن نرى كيف أن فريق لوس أنجيلوس دودجرز Los Angeles Dodgers، الذى اشتراه مردوخ Murdoch فى

عام ١٩٩٧، سيندرج داخل أسرة مردوخ Murdoch الإعلامية. لكن مما لا شك فيه أنه سينجح فى ذلك.

هناك دليل على أنه عندما تم استيعاب وسائل الإعلام فى عالم الأعمال الملىء بالمخاطر، أصبح الاهتمام بالمال أكثر أهمية من الاهتمام بحق الجمهور فى أن يعرف. وعمالقة الصحافة، على وجه الخصوص، يقفون مكتوفى الأيدى أمام أحدث سلاح فى لعبة التقاضى: دعوة قضائية بملايين الدولارات. مما لاشك فيه أن أحكام، مثل تلك التى صدرت لصالح شركة ليونز للأغذية، وضد شركة إى بى سى ABC (التى تمتلكها شركة والت ديزنى) ستجعل المديرين التنفيذيين فى عمليات الأخبار فى كل مكان، يفكرون مرتين قبل أن يسمحوا بنشر تقارير سرية محفوفة بالمخاطر. والاقتراح الفعلى بإمكانية وجود دعوى قضائية من شركة سجائر، كان كافيًا لشركة سى بى إس CBS (التى كانت بصدد عملية الحصول على مالك جديد للشركة فى ذلك الوقت) لأن تلغى الجزء المثير للجدل ومدته ٦٠ دقيقة.

ولنا أن نتساءل هل، مع دخول مثل هذا النفوذ الهائل الملعب، والذى من الواضح أنه فوق قدرة المجتمع الصحفى، والذى ركز الجمهور غضبه عليه، هل هناك مجموعة أو كيان يمكن لمستهلكى الأخبار محاسبته؟ السطر الأول من الهجوم فى أى عمل استهلاكى هو السوق، ويكون التصويت بعدم الرضى للصحيفة التى تفقد التداول، أو البرنامج التليفزيونى الذى يفقد تقييم نلسون، لكن قد لا تكون الاستجابة تغييرًا للأفضل. يحتاج الجمهور، لتحسين عملية جمع الأخبار، إلى حلفاء أقوياء داخل المؤسسات الصحفية، والعكس صحيح. وكثير من الصحفيين غير راضين عن ممارسات التصنيع الرديئة، ومنتجو الدرجة الثانية، مثلهم فى ذلك مثل الجمهور، لكنهم يعتقدون أن هناك البعض القليل الذى يؤيدهم. يمكن أن يفرض الجمهور والصحافة معًا، ضغوطًا على النظام ليعمل بشكل أفضل.

هناك مثال على مثل هذا التحالف وقع فى شيكاغو فى صيف عام ١٩٩٧، عندما تحالف المواطنون، وزعماء المجتمع المحلى، وأعضاء الصحافة، للاحتجاج

على المواقف الوسطية التى تتخذها البرامج الإخبارية. وكانت المناسبة تعيين مذيع البرامج الحوارية جيرى سبرينجر Jerry Springer، معلقًا على شبكة تابعة لإذاعة إن بى سى NBC المحلية للنشرات الإخبارية. وقد عبر المشاهدون عن استيائهم من إضفاء الشرعية على شخصية إعلامية طريقها للوصول للشهرة هو إقامة منتديات للانحلال. لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد. فقد أعلن الزعماء الوطنيون، الذين كانوا دائمًا يتم الاستعانة بهم بصفة منتظمة فى البرامج الإذاعية، أنهم لن يقوموا بمهمة التعليق هذه ما دام سبرينجر Springer ضمن فريق الأخبار؛ وفى حركة آكثر مأساوية، استقالت كارول مارين Carol Marin، ذات الشعبية، ومنسقة أخبار العرض التى تحظى باحترام كبير. وكان ذلك كافيًا. اضطر سبرينجر Springer للاستقالة، وفى النهاية تمت مكافأة مارين Marin على تمسكها بالمبادئ، وانتقلت بعد ذلك إلى إدارة الأخبار فى محطة أخرى فى شيكاغو، وهى WBBM دبليو بى بى إم، التابعة لشركة سى بى إس CBS، وعاد سبرينجر Springer إلى تقديم نوعية البرامج الترفيهية بنجاح مستمر. وتم خطار منفذى الأخبار فى WMAQ دبليو إم إيه كيو، وفى مختلف أنحاء البلاد، أن خطاء فى الاختيارات لن يتم التسامح فيها.

لبناء هذا النوع من التحالف، فإن المواطنين والصحفيين فى حاجة إلى معيار مشترك للالتفاف حوله، معيار واحد يعبر عن توافق فى الآراء، ليس فقط فيما يتعلق بأهداف الصحافة المسئولة، لكن أيضًا بقواعد القتال. وعلى الرغم من أن الصحفيين يلامون بحق عندما يظهرون غريزة القاتل العشوائية، لكنهم لا يجب أن يلاموا عندما يرون دعوتهم نوعًا من القتال والكفاح من أجل الحصول على المعلومات، التى ليست هى دائمًا فى المتناول، ولاختراق حواجز من الأكاذيب، والمقاومة، والعراك مع رؤسائهم، ليسمحوا لهم بنشر موضوع من النوع الذى يعتقدون أنه يجب أن يقال.

الإنصاف هو القيمة التى تم إدراجها فى كثير من جوانب الجدل الخاص بالتعديل الأول فى الدستور، وإن كان معناها قد ضعف، فإنه يمكن التركيز عليه ليخدم بوصفه مبدأ توجيهيًا فى الكفاح من أجل توصيل القصة للجمهور.

لنفترض آن الإنصاف يهدف إلى أكثر من نقل إيجابيات قضية، أو قصة وسلبياتها ولنقل أكثر من وسيلة للتعامل مع الأشخاص المعنيين؛ ولنفترض آن المهمة الأساسية للتقارير الإخبارية، هى أن تكون منصفة للجمهور. وبالتالى فإن الصحفى المسئول لن يسأل فقط عما إذا كان الموضوع نقل بطريقة جيدة وبشكل مهنى، لكن سيسأل أيضًا عما إذا كان الجمهور قد تم التعامل معه بإنصاف عند نقل الموضوع ، ومن المؤكد أن هذه الفكرة ستروق للجمهور.

ويمكن تطبيق اختبار النزاهة والإنصاف على النحو التالى:

من الواضح أنه ليس من الإنصاف للجمهور إذًا، على سبيل المثال، اجتاحت قصص الجريمة الأخبار، مع استبعاد معظم المواضيع الأخرى (بالنسبة للبرنامج التليفزيونى المحلى، متوسط المعدل هو اثنان لواحد)، أو إذا كان تناول الأحداث المعقدة بعنوان بسيط فقط ("مزيد من المعلومات عن الإجهاض المتأخر بعد هذه الرسائل").

ليس من الإنصاف آن تفقد الصحافة مصداقيتها بالتعاون فى طمس الحقيقة والخيال، أو الأخبار والتسلية.

ليس من الإنصاف تحويل الصحافة إلى دعاية، لكن على المنوال نفسه، ليس من الإنصاف لكل من الجمهور أو الصحافة، تبنى معيارًا جامدًا للموضوعية، الذى يحجب الحقيقة كما يراها المراسل. ولا يعنى التقرير الإخبارى المتوازن، إيجاد عدد مماثل من الخبراء الذين يدافعون عن هتلر والذين يدينونه. ويكون التقرير الجيد دقيقًا وشاملاً، وأيضًا يقدم معلومة. إذا كان الصحفيون هم المحققين البدلاء عن الشعب، فإنه من المنطقى أن ما فهمه المراسل من الموضوع هو جزء من الموضوع نفسه، تمامًا مثلما ما يكون ما استطاع الحصول عليه من أخبار الموضوع هو جزء من الموضوع. وفى آحسن الأحوال، ونظرًا للانتشار الفورى للصحافة، فإن أى موضوع هو فقط ما كان يراه الصحفى فى هذا الوقت بالذات، وبالقياس لخبرات الصحفى المتراكمة، وفى إطار قدرته على التفكير والمعرفة والقول.

ومن عدم الإنصاف تعريف الأخبار كنشرات عن الصراع بين قوى متعارضة: الأخيار والأشرار، الفائزين والخاسرين، سباقات الخيل، وألعاب القوة. ما يفعله هذا النهج فى القضايا العامة المهمة ـ مثل الإجهاض، ومراقبة الأسلحة النارية، والعمل الإيجابى ـ هو استقطاب هذه القضايا، مستبعداً الحلول والقرارات الوسطية.

هناك نتيجة فسيولوجية مهمة للتهليل لتلك الصراعات، وتلك الأخطار، وذلك العنف. ووفقًا لعالم النفس والمراسل دانيال جولمان Daniel Goleman ، فإنه عندما يواجه الإنسان بالأخبار التى تهدده بشكل غامر، فإنه يدخل فى حالة نفسية بدائية: القتال أو الهروب. فعند الشعور بالخطر تُفرز مادة الأدرينالين، الأمر ـ وهذا هو الجزء الحاسم ـ الذى يجعل مخ الإنسان عند مستوى تفكير البقاء على قيد الحياة، ويقضى على أى قدرة أخرى على التفكير العميق. لذا فليس من المستغرب، ومن الواضح أنه ليس من الإنصاف، أن يخرج مستهلكو الأخبار من أكثر التجارب الصحفية بضخ الأدرينالين وبدون الشعور بأنهم تعلموا شيئا ما.

والأخبار التى تبث بصيغة مباشرة، تعمل فقط بالنسبة للأحداث التى تقع على نطاق ضيق؛ أما الأخبار الأخرى فهى نادرًا ما تظهر على شاشة رادار الأنباء. وهكذا، فإن ثلاث فئات مهمة من المعلومات يحدث لها تغيرات بسيطة، أو ما هو أسوأ، تشوه خلال عملية عصرها داخل حالة التأهب للقتال. وهذه الفئات الثلاث هى: المواضيع عن الإجراءات التى اتبعت، بدلاً من النتيجة المستفادة، ومواضيع معقدة تطالب استيعاب المادة من مصادر مختلفة وربطها بمهارة؛ والمواضيع التى تكمن أهميتها فى فكرتها وليس فى عنوانها كحدث. ومناقشات الميزانية السنوية، على سبيل المثال، يمكن تغطيتها من أى هذه المنظورات أو منها جميعًا، لكن بدلاً من ذلك، يتم التقليل من شأنها بتغطيتها بالطرق التقليدية. إذا قيلت، باستخدام مصطلحات رياضية، بوصفها موضوعًا من مواضيع اجتماعات الكونجرس وزيفه وتكتله، فإنها تصبح ليس إلا سلسلة من المعارك، كل معركة تكرار ممل لسابقتها. إذا قيلت باستخدام العناصر الفردية، فأنها تصبح سلسلة غاية فى الملل، غير

مفهومة، عن مليارات الدولارات. لكن، كما أوضحت جلوريا ستينم Gloria Steinem، فإن الميزانية الفيدرالية هى البيان الوحيد للأمة ذو قيمة. ولذلك يعتبر الموضوع الذى يبحث فى المعنى الحقيقى للدولارات المستحقة للأغراض العسكرية، والفنون، والطرق، والأطفال، هو موضوع رئيسى.

وبالمثل، عندما يثار موضوع الدين، وهو فى أغلب الأحيان يكون ضمن المعايير المألوفة فى قصص الفضائح (تنال قصص القساوسة الذين يتحرشون بالأطفال تغطية كبيرة) والسياسة (الحقوق الدينية، والحملات الصليبية الموالية والمضادة لمكافحة الإجهاض). مواضيع الحياة والموت ـ وهى تشكل الأساس لكثير من الفكر الغربى ـ، تم تناولها، هذا إذا كان قد تم تناولها على الإطلاق، فى المراحل الأخيرة من لعبة القط والفأر الجارية بين الدكتور جاك كيفوركيان Jack Kevorikain والقانون.

لا يمكن أن تحل مقتطفات الصوت محل الخطاب، عندما تكون كثير من المشاكل التى يواجهها الأمريكيون معقدة ومشوشة ولا يتم حلها بسهولة، هذا إذا كانت ستحل على الإطلاق. لا يمكن لمأساة شخصية تقطع نياط القلوب، أن تأخذ مكان منتدى لتقييم الحلول الجماعية. (على سبيل المثال، من بين كل المواضيع عن الترتيبات الفردية لرعاية الطفل التى نشأت عن محاكمة "مربية بوسطن"، لايوجد موضوع واحد تطرق إلى حقيقة أن الولايات المتحدة هى البلد الصناعى الديمقراطى الوحيد الذى ليس لديه نظام قومى لرعاية الطفل.)

عندما لا يكون الفكر جزءًا من الأخبار التى يتم تقديمها للجمهور، نعتبر أن هذا الأخير لم تقدم له الخدمة بشكل منصف. قد ينتج عن بعض المواقف التى تستدعى تغييرًا مجتمعيًا، مواضيع تبدأ بالصراع، لكن فى المنتصف هى تدور حول أفكار، وخبرات، وتجارب، وتسوية، وفى النهاية نادرًا ما تنتهى بشكل مرتب. واعترافًا بذلك، اقترحت كريستين تود وايتمان Christine Todd Whitman، حاكم ولاية نيو جيرسى، أن تنضم الصحافة إلى الساسة "لخلق جو من شأنه أن يسمح للناس بتعويم الأفكار". وأعربت عن أسفها من أن، والأمور على ما هى عليه الآن، "تأخذ المناقشات شكل مباريات عامة، عنيفة، وتعتبر التنازلات تراجعًا". يجب

القيام بشىء جذرى - وشىء لا يمكن تصوره لتحسين فحوى المناقشات العامة، كتحالف بين وسائل الإعلام والساسة[1].

إلى جانب هذا التحالف بعيد الاحتمال، فإن مفهوم المصلحة المتبادلة المشتركة بين مستهلكى الأخبار وجامعى الأنباء، يبدو معقولاً تماماً. فهم يعملون معًا تحت راية الإنصاف للجمهور، وقد يكونون قادرين على اختيار العلاقة بين العلامة التجارية الفجة، والمستهلك، والتركيز على إصلاح النظام نفسه الذى يستفيد من هذا الإصلاح. ويكون المستهلك المثقف للأخبار مسئولا عن تقييم المنتج، بما لديه من خبرة كافية، فيعرف أين ينظر، ومن يكون خاضعا للمحاسبة؛ مثل أى مستهلك ناشط، يكون المستهلك المثقف على حذر من ممارسات التصنيع الرديئة، والإعلانات المضللة، والمنتجات الخطيرة، وأيضًا يأخذ على عاتقه الإعلان على الملأ، عن السلع والخدمات ذات الجودة العالية. لو علم الصحفيون أن الجمهور يقوم بعمله، عندئذ يمكنهم القيام بعملهم وهم على ثقة أن هناك سوقًا للبضائع عالية الجودة. هذا الهجوم الثنائى على الأنباء غير المرغوب فيها، هو الأمل فى إعادة تنشيط التحالف - الذى صدق عليه التعديل الأول للدستور - بين منتجى الأخبار، ومستهلكى الأخبار.

عندما كنا نقرأ الكتب بنهم

أندريه شيفرين

قراءة الكتب هى دائمًا جزء مهم من الحياة الأمريكية. فعلى الرغم من أن هناك التليفزيون والسينما، وعلى الرغم من انتشار استخدام الإنترنت، وانخفاض عدد قراء الصحف، وعلى الرغم من الانخفاض الهائل فى المكتبات المستقلة، والتغيير فى ملكية دور النشر الكبرى ونوادى الكتاب، على الرغم من كل ذلك، فمازال الناس يقرأون، ومازالت بعض الكتب تباع بأعداد كبيرة، رغم أن المبيعات ليست ضخمة بالنسبة لعدد السكان، كما كان الحال مع بعض الكتب التى استحوذت على خيال الجمهور فى القرن السابق.

وعلى الرغم من الواقع إذا رجعنا إلى القرن التاسع عشر، فسوف نرى بعض النقاط التى توضح هذا التناقض. وعلى الرغم من أنه قد أجريت بحوث قليلة جدًا عن عادات القراءة، وعلى بيع الكتب فى الولايات المتحدة، فإننا نعرف بعض الشىء عن الكتب التى كانت أكثر شعبية فى مكتباتنا العامة منذ ألف عام مضت. وما نعرفه قد يبدو غريبًا وهو أنه، رغم توافر عدد كبير من الكتب "الشعبية"، فإن الكتب الأكثر طلبًا، كانت لمؤلفين مثل سير والتر سكوت ?Walter Sir Scott وتشارلز ديكينز Charles Dickens، وأونورية دى بلزاك Honoree de Balzac.

يحتاج المرء اليوم لبحث طويل ومضنٍ حتى يعثر على الكتب الأكثر مبيعًا، من الترجمات الأدبية. فقد تخلى معظم كبار الناشرين عن تلك النوعية من الكتب تمامًا. وبالمثل، فإن الكتب التى تحوى أفكارًا جديدة ومثيرة للجدل السياسى، كان يمكن أن يباع منها فى القرن التاسع عشر ما يعادل (مرة أخرى بالنسبة لعدد

السكان) ملايين النسخ اليوم، من بينها كتاب إدوارد بيلامى Edward Bellamy "النظر للخلف" Looking Backward، وأعمال هنرى جورج Henry George، التى تدعو إلى ضريبة موحدة. و فوق كل ذلك، لم تكن هذه الكتب هى الأكثر مبيعًا فقط، بل أيضًا آثارت هذه الكتب مجموعات المناقشة، والحركات السياسية. وقد بيع القليل جدًا من هذه الكتب فى العقود الأخيرة، ما يقارب عدد تلك الكتب، أو الكتب السياسية الأكثر مبيعًا فى الثلاثينيات والأربعينات من القرن التاسع عشر.

ويجىء عدد مبيعات هذه الكتب للرد على الحجة التى تقول إن نشر الكتاب الأمريكى يفتقر إلى جمهور كبير، حيث إن جمهوره هو الطبقة المتوسطة. ومن المثير للدهشة أن نلاحظ أنه عندما نُشرت رواية "كوخ العم توم" Uncle Tom's Cabin، كان عمال مناجم الذهب فى كاليفورنيا يدفعون ٢٥سنتا فى الليلة ـ وهو مبلغ كبير فى تلك الأيام ـ لاستعارة الكتاب، وقراءته بعد يوم من العمل. هل نعرف فى هذه الأيام حتى ما إذا كان العمال يقرأون، وإذا كان الأمر كذلك، فما هو الكتاب الذى يروق لهم؟ ولقد كان كتاب هاريت بيتشر ستوHarriet Beecher Stowe، إلى جانب الكتب الأخرى السابق ذكرها، وطنيا حقًا فى مناشدته وتجاوزه الاختلافات الطبقية والإقليمية.

لماذا يبدو هذا غير وارد الآن؟ ماذا حدث لاستخدام، الكتب ولاستهلاكها منذ ذلك الوقت؟ لا أعتقد أن الأمريكيين قد تغيروا كثيرًا، لدرجة أنه لم تعد لديهم القدرة على القراءة والاستمتاع بالأدب الجيد، أو الاهتمام بالكتب الجيدة حول ما يحدث الآن ـ وما ينبغى أن يحدث ـ فى المجتمع. بدلاً من ذلك، ففى عالم الكتب، كما هو الحال فى الكثير من الميادين الثقافية الأخرى فى أمريكا، أصبحت الخيارات محدودة بشكل متزايد. والكتب "التجارية" هى أكثر توفرًا عن أى وقت مضى ـ فأكشاك بيع الصحف فى كل المطارات، وسلسلة محلات بيع الكتب، بها أحدث الكتب التى أثارت الاهتمام. لكن المجموعات المختارة من الأعمال الأدبية والفكرية الجادة، التى كانت متاحة على نطاق واسع فى الماضى، أصبح من الصعب العثور عليها الآن. لم يعد الكثير من دور النشر، التى كانت تشتهر بهذه الكتب، تكترث بأن تحتفظ بها على قوائمها.

ولعل أفضل طريقة لفهم التغيرات التى أصفها، هى النظر إلى أكثر أشكال الكتب شعبية فى أمريكا، وهى الكتب ذات الغلاف الورقى الرخيص. أخذ هذا الشكل الريادة فى أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر عن طريق دور نشر "كتب الجيب"، بشعارها الحالى الكنغر، و"كتب بانتام"، ومؤخرًا، "كتب بنجوين". ويكون من المفيد إلقاء نظرة على قوائم كتب تلك الدور. يتوقع المرء أن تتألف هذه القوائم، فى معظمها، من قصص الغرب الأمريكى والقصص البوليسية. وبالفعل لم يكن هناك نقص فى كتب إيرل ستانلى جاردنرErle Stanley Gardner. لكن جنبًا إلى جنب مع أكثر الكتب مبيعا، مثل كتاب جيمس هيلتون James Hilton "الأفق المفقود" Lost Horizon وترجمة ويتاكر تشامبرز لفيلكس Wittaker Chamber لكتاب فيبكس سالتن Felix Salten "بامبى" Bambi، ويمكن أن نجد أيضًا كتاب "مارتن عدن" Martin Eden، وهو من الكلاسيكيات الراديكالية لجاك لندنJack London، وغير متوفر الآن فى أى طبعة. وفى الوقت نفسه، يمكن للقراء شراء كتاب مارجريت ميد Margaret Mead "البلوغ فى ساموا" Coming of Age in Samoa، وكتاب ماركيز تشايلدMarquis Child، سويد: الطريق الأوسط Sweden:The Middle Way، وقائمة طويلة من عناوين مماثلة.

كانت هذه الكتب جزءًا من الحياة الأمريكية، لدرجة أن الحكومة الفيدرالية قامت بتوزيع ملايين النسخ منها على الجنود خلال الحرب العالمية الثانية مجانًا. يمكن للبعض القليل من الدول أن تفخر بأن مواد القراءة توزع جنبًا إلى جنب مع حصص التعيينات، مجانا لمن يريدها. كَتَب، بشكل مؤثر، الكاتب والناقد الألمانى هانس ماجنوس إنزنسبرجرHans Magnus Enzensberger عن اكتشافه، عندما استولى الأمريكيون على بلدته فى ألمانيا، أن الجنود كان لديهم صناديق من هذه الكتب النفيسة، وأنه لم يشاهد من قبل مثل هذه الكتب، التى أصبحت الأساس الذى قام عليه تعليمه اللغة الإنجليزية، ومعرفته لفكر آخر غير الفكر الألمانى.

كانت وظيفتى الأولى فى نشر الكتب، مع واحدة من أكبر دور نشر فى البلاد التى تستخدم الغلاف الورقى، وصاحبة نشر الكتب غير القصصية السابق ذكرها، وتدعى شركة المكتبة الأمريكية الجديدة للأدب العالمى. لقد جاءت خلفًا

لدار بنجوين الأمريكية للنشر، وكان شعارها "القراءة الجيدة للملايين". وكان واضحًا، فى ذلك الوقت، آن كثيرًا من الناس قاموا بمهمة النشر لهذا السبب. آتذكر أننى، فى إحدى اجتماعات رؤساء التحرير، استمعت لمناقشات جادة عن كيفية تقديم، لعدد كبير من الجمهور، عمل جديد يتطلب عناية فائقة. وبالطبع نشرت المكتبة الأمريكية الجديدة مجموعة واسعة من قصص الغرب الأمريكى، والقصص البوليسية، وما شابه ذلك. لكنها نشرت أيضًا جميع أعمال وليم فولكنر William Faulkner ـ ناهيك عن أعمال كروزيو مالابارتى Curzio Malaparte، وأعمال الواقعى الإيطالى فى فترة ما بعد الحرب بيير باولو بازولينى Pier Paolo Pasolini، مثل الكتب غير القصصية المذكورة من قبل، يمكن، على أى حال، العثور على هذه الترجمات الأدبية الآن، فقط فى طبعات مكلفة جدًا فى المطابع الصغيرة، أو فى طبعات مطبعة الجامعة.

يتكلف هذا الكتاب، ذو الغلاف الورقى، ما بين ٢٥ إلى ٣٥ سنتًا، ويمكن شراؤه من أكشاك بيع الصحف ومن متاجر العقاقير فى جميع أنحاء البلاد. وإذا وضعنا فى اعتبارنا التضخم القائم الآن، فإن هذه الكتب تتكلف اليوم ما بين ٢,٥ إلى٣,٥ دولار. وكان سعر خرطوشة السجائر، بشكل أو بآخر، مقياسًا لما ينبغى أن يتكلفه الكتاب. ومن أغلى الكتب التى نشرناها هى ثلاثية جيمس فاريل James Farrell. لقد كانت طويلة جدًا لدرجة أننا اضطررنا أن نبيعها بخمسين سنتا. وأخيرًا قرر رجال التسويق أن يقوموا بقسم الكتاب إلى جزأين، بحيث يرى الناس أنهم يحصلون على كتابين بسعر كتاب واحد، وبذلك لا يشعرون بأنهم قد خدعوا.

وكان غطاء الكتاب ذو الغلاف الورقى فى تلك الفترة باهتًا، وكان من الصعب، وإذا لم تنظر إلى العنوان، معرفة ما إذا كان الكتاب الذى بين يديك هو كتاب لميكى سبايلانى Mickey Spillany أو كتاب لفولكنر Faulkner. لكن كانت هناك محاولة جادة لجذب أكبر عدد من الجمهور لقراءة أفضل ما ينشر. وكانت جميع كتب فولكنرFaulkner تقريبًا متوفرة، حتى ولو وصف فى كل كتبه بأنه مؤلف كتاب المقدسات Sanctuary (الذى من المفترض أنه الكتاب "القذر" الذى يقرؤه

الكثير خلال فترة المراهقة)، ولن تمر سنوات كثيرة حتى تكون أعماله هى العنصر الرئيسى فى المقررات الجامعية. ومن المفارقة، فقدان معظم هذه الكتب لجمهورها الشعبى لأنها ارتقت للمستويات الأعلى فى المجتمع.

بدأت فى الظهور فى ذلك الوقت، المجلة النقدية ذات الغلاف الورقى، كتابة العالم الجديد. ولنضرب مثلا، وإن يكن مبالغا فيه بعض الشىء، قدمت المجلة مجموعة مختارة من الشعر الكورى المعاصر. ومرة أخرى، على الرغم من أنها نشرت لجمهور عريض، وكان عدد النسخ المبدئية يتراوح ما بين٥٠,٠٠٠ إلى٧٥,٠٠٠ نسخة، لكن مجلة كتابة العالم الجديد، والاسم مشتق من الكتاب الشهير الكتابة الجديدة لجون ليمان John Lehmann والتى نشرتها مؤسسة بنجوين (المملكة المتحدة)، استمرت فى هذا الاتجاه، اتجاه النشر للجماهير العامة وللأدب: الاعتقاد بأن الجمهور العادى يمكن أن يقرأ أفضل ما فى الثقافة الأمريكية وأن يكون قادرًا على الحصول عليها من أى متجر.

ونحن لا نرى القراء منفصلين إلى قسمين: جمهور النخبة وجمهور العامة الذى يجب أن ينقاد إليه المرء. حتى ولو كان الناشر يقوم بنشر روايات لميكى سبييلن Mickey Spillan، أو لنشر رواية أمبر إلى الأبد Forever Amber كاثلين وينسور Kathleen Winsor، فإنه من المفترض أيضًا أن يحاول نشر أفضل الأعمال، ونتوقع أن يقرأها الناس بالفعل. علاوة على ذلك، حتى لو كان الناشر يعتقد أن أحد هذه الكتب سيكون أكثر الكتب مبيعًا، فإن هناك حدًا أقصى للاستجابة لرغبات الجمهور، الذى يمنع الناشر من نشر الكتب الإباحية والكتب التى يعتقد أنها امتهان للذات البشرية ـ الكتب التى تغرق الأسواق الآن.

كيف يتأتى لهذه القيم أن تحل محل القيم السائدة فى السوق الآن؟ تجربتى الخاصة تكشف عن القوى التى نتعامل معها هنا.

بعد عملى فى المكتبة الأمريكية الجديدة، انضممت إلى دار بانثيون هاوس للكتب. كان هذا عام ١٩٦٢حيث قامت مؤخرًا دار النشر، راندم هاوس، التى ابتاعت دار ألفريد أ. كنوبف للنشر، بشراء بانثيون هاوس أيضًا. وفى تلك الأيام

بدأت راندم هاوس كعملاق فى مجال النشر الأمريكى، لكن حتى مع انضمام الشركتين حديثًا، بلغ إجمالى مبيعاتها فقط حوالى ١٥مليون دولار سنويًا. وتبيع مجموعة راندوم هاوس حوالى ١ مليار دولار من الكتب كل عام، ويقال إن أصول مالكيها، دونالد إى. نيو هاوس، وصامويل أى. "سى" نيو هاوس الابن، تقدر بـ ١٠ مليار دولار، حيث إن راندوم هاوس تمثل جزءًا صغيرًا فقط من ممتلكاتهم الشاملة. ومن المفارقة أنه فى عام ١٩٩٨، يئست نيوهاوسز من تحقيق أرباح النشر التى كانت تتوقعها، وتعرضت للشطب فى عام ١٩٩٧بقيمة ٨مليون دولار، وأرباح أقل من ١٪ ولكى يتم إنقاذها، تقرر بيع الشركة لبيرتلسمان Bertelesman، إمبراطورية النشر الألمانية. ما حدث فى هذه الحالة يوضح الاتجاه العام، حيث أصبحت معظم الشركات العائلية فيما مضى، شركات قابضة كبيرة، التى آصبحت بدورها أجزاء صغيرة من مجموعات أكبر.

أدى أيضًا هذا التحول فى هيكل الملكية، إلى تحول فى القيم والتوقعات التى تحكم الأعمال التجارية. توقع ناشرو الكتب، خلال العقود الماضية أرباحًا، تبلغ حوالى ٤٪ بعد خصم الضرائب. ومع هذا العائد، لم يدخل كثير من الناس، خلال تلك السنوات، فى مجال النشر للحصول على المال فى المقام الأول. ذلك ليس لأن ألفريد نويف تقاعد فى حالة فقر. فقد كان رجلاً ثريا، وفى كثير من النواحى، استحق أن يكون كذلك، كما هو الحال مع الكثير من الناشرين الآخرين. لكن كان النمو البطىء للشركة ككل وليس الأرباح السنوية، هو الذى يأتى فى المرتبة الأولى.

افترضت التكتلات الكبيرة بتوليها النشر، أن كل ممتلكاتها يجب أن تقدم تقريبًا معدلات متساوية من الربح. والمنطق بسيط: إذا كنت تملك محطات كابلات تليفزيونية، ومصانع خشب، إلخ، ويتصادف أيضًا أنك تمتلك شركة لنشر الكتب، فأنت لا ترى أنه ليس هناك سبب أن يحقق نشر الكتب أقل مما تحققه ممتلكاتك الأخرى. لذا فهناك الآن ضغط على الناشرين ليحققوا ١٠٪ و١٢٪، وحتى٢٠٪ من الأرباح ـ أساسًا، أكثر خمسة أضعاف الأموال التى كانوا يحققونها من قبل. إنه من الصعب جدًا القيام بذلك مع الاستمرار فى نشر، على مدى واسع، الكتب التى تميز بها النشر الأمريكى خلال العقود السابقة.

وجد المسئولون الماليون، الذين يديرون الشركات الآن، وسائل لجعل المحررين يسايرون هذه التوقعات النهائية - وإن كان الكثير منهم قد لا يشعرون بالرضا حيال ذلك. انقسم كل جزء من شركات النشر إلى "مركز ربح" منفصل. دار دتر بانثيون للنشر، على سبيل المثال، كان لها خط مربح للغاية فى النشر للأطفال، والذى يدعم بشكل فعال كتب البالغين الأكثر طلبًا - والأقل ربحًا فوريًا - ولكن ذلك لم يعد ممكنًا بمجرد أن أصبح القسم قسمًا منفصلاً. وفيما بعد، انفصل قسم الكتب الدراسية. لذلك إذا تم بيع كتاب اعتمد منهجًا دراسيًا، لا يعتبر العائد جزءًا من الدخل الذى جلبته وزارة التجارة، التى وقعت ذلك العقد. نفس الشىء حدث مع مبيعات الكتب ذات الغلاف الورقى.

وقامت الخطوة التالية لترشيد الأرباح على أساس استقلال كل كتاب. وكان من المعتاد فى النشر أن يدعم الكتاب الأفضل مبيعًا الكتب الأخرى. لكن تدريجيًا، وضعت ضغوط لكى يغطى كل كتاب تكاليفه. وكان ذلك يعنى، ليس فقط تغطية التكاليف الخاصة به، لكن أيضًا تحقيق ربح يكفى لتغطية حصته من النفقات العامة. أصبح من المستحيل نشر الكتب "الصغيرة". وترى معظم دور النشر التجارية فى نيويورك الآن، بموجب هذا المنطق، أنه إذا لم يُبع من الكتاب، كما هو متوقع له، من ١٥,٠٠٠ إلى ٢٠,٠٠٠ نسخة فى السنة الأولى، أنه لا ينبغى أن ينشر. يجب أن تكون إلى حد كبير قادرًا على إقناع المسئولين الماليين بأن كتابًا ما سيباع بتلك الأرقام، بإخبارهم أن الكتاب السابق لهذا المؤلف، قد باع هذا العدد من النسخ أو أكثر. لذلك أصبح من الصعب نشر العمل الجاد، الذى قد يستغرق وقتاً طويلاً ليجد جمهورًا، سواء كان كتابا دراسيا أو كتابا ذا غلاف ورقى، وكذلك الأعمال الطموحة لمؤلفين جدد. وقد تحصل المؤلفة الجديدة كيتى كيلى Kitty Kelly على مقدم قدره ١٠ملايين دولار، لكن مؤلفًا، قد يكون فى المستقبل مثل ميشيل فوكو Michel Foucault، أو تى.إس. إليوت T.S.Elliot، نادرًا ما يستحق المجازفة.

وليس الأمر أنه سيأتى ذات يوم قادة الصناعة ليقولوا "لن تنشر بعد اليوم ما تعتقد أنه يجب أن ينشر"، أو "لا يجب بعد اليوم أن تقدم عملاً جريئًا أو تجريبيًا

أو رائدا". بدلاً من ذلك، وتدريجيًا تم وضع نظام منطقى وتم قبوله فى الصناعة ككل، وأصبح تدريجيًا نوعًا من القناع الحديدى الذى لا يسمح إلا بتنوع بسيط جدًا. رأى الكثيرون ما كان يحدث، لكن ذلك لم يرق لهم. لكن كما يعلم الجميع، فإن معظم الناس لا يتركون وظائفهم إلا فى حالة الاضطرار القصوى. وتكيف معظم المشتغلين فى النشر مع هذه التغييرات التى حدثت شيئًا فشيئًا على مر السنين، ولا يتخيل الشباب الذى يعمل فى هذا المجال، أن يكون الحال خلاف ذلك.

قاومت بعض دور النشر. وتلك التى كانت مملوكة للقطاع الخاص، مثل نيو دريكشنز و دبليو ديليو نورتون، واصلت، إلى حد بعيد، ما كانت تفعله دائمًا المحافظة على المستويات العالية جدًا من النشر التى يمثلونها هم والآخرون. لكن كان للشركات التى كانت جزءًا من مجموعة، تكتلات أكبر، مصير مختلف تمامًا. وكانت بانثيون، التى كانت تحت إدارتى فى ذلك الوقت، هى التى تم تطبيق نظام العمل الجديد فيها لأول مرة.

بحلول عام١٩٩٠، كانت بانثيون جزءًا من مجموعة راندوم هاوس لما يقرب من ثلاثين عامًا. لقد كانت معروفة بترجماتها للقصص الأجنبية، والنشر المبتكر فى العلوم الاجتماعية، واستعدادها لنشر كتب فى السياسة والفنون، تلك الكتب التى تتحدى وجهات النظر العامة. لكن على الأغلب، لم تحقق كتبها أرباحًا خلال العام الأول، إنما على المدى البعيد، أصبحت كثير من الكتب، التى تعرف بأنها كتب صعبة، أساسية لتغيير المناهج ـ كتب مثل أعمال نعوم تشومسكى Noam Chomsky، وفوكو Foukault، وإدوارد ب. تومسون Edward B. Thompson، وإريك هوبسباوم Eric Hobsbawm، وكثيرين غيرهم. والأخذ بمبدأ المحاسبة كل سنة بسنتها، حقق عدد صغير نسبيًا من الكتب الأكثر مبيعًا، أرباحًا كبيرة للشركة. وكانت بانثيون هدفًا واضحًا لمديرى نيو هاوس، الذين كانوا عازمين على فرض معايير جديدة للربحية بأى ثمن.

كان روبرت بيرنستاين Robert Bernstein رئيسًا لراندوم هاوس فى ذلك الوقت. قد تمسك بشجاعة، لسنوات كثيرة منذ توليه المنصب، بالمعايير القديمة.

ومن الواضح، أنه وقف فى وجه النظام الجديد، وتم فصله من منصبه فى عام١٩٩٠ بعد ذلك بوقت قصير، نهج خليفته، ألبرتو فيتالى Alberto Vitale مع بانثيون نظامًا بسيطًا جدًا. وبما آن عددًا قليلا نسبيًا من الكتب يمكن أن تكون من أكثر الكتب مبيعًا، فلماذا لا يقتطع من قائمة بتنثيون ـ وموظفيها ـ بمقدار الثلثين؟ سيكون لذلك ميزة القضاء على كل هذه الكتب الصعبة والمزعجة فكريًا (ناهيك عن الكثير من الكتب التى أثار مضمونها الميول السياسية لنيوهاوس).

افترض معظم الناس فى هذه الصناعة، أننا سنقبل بهذا العرض. لماذا نجازف بأقدميتنا، وبمكاتبنا المريحة، وبمعرفة أن رواتبنا ستكون مضمونة مهما حدث؟ لكن أنا وزملائى شعرنا كما لو كان يطلب منا أن نقضى بقية عملنا فى النشر، فى تدمير ما بنيناه، وفى حالتى، ما بنيته على مدى ثلاثين عاما. ولدهشة الجميع وذعره، فضل المحررون التنفيذيون الثمانية الكبار فى بتنثيون، وكذلك المحررون الصغار، وأنا معهم ، الرحيل عن الاستسلام. اعتقد كثيرون فى مجال النشر وفى ذلك الوقت، أن هذا رد فعل مبالغ فيه. بالتأكيد كانت هذه تكتيكات التفاوض. وكان الناس على يقين أنه لا يوجد ناشر يرغب حقًا فى إزالة كل أثر من النشر الجاد من على قائمته.

يجب أن يرى المرء ما حدث، ليس فقط "لراندوم هاوس"، لكن أيضًا للتكتلات الأخرى فى السنوات التى انقضت منذ وقوع تلك الأحداث الصاخبة، حتى يستطيع أن يرى كيف تغيرت الأمور كثيرًا. ماديًا، تبدو الكتب أفضل من أى وقت مضى. والمضمون هو الذى تغير وبشكل كبير. ويقوم الناشرون الآن بتمويل وسائل الترفيه أو المعلومات، وليس التحقيقات الثقافية. وقد اختفت فعليًا الترجمات، سواء كانت قصصية أو غير قصصية. وأصبح، وبشكل متزايد، من الصعب العثور على الكتب الجديدة والجادة للدارسين من الشباب الأمريكى. ودور نشر مثل "نويف"، التى كانت تفخر ذات يوم بوجود قوائم كبيرة من الكتب فى النقد الفنى، والتاريخ الفكرى، والفلسفة، وما شابه ذلك، يجب أن تعترف الآن للمؤلفين أنها "لم تعد قادرة على تحمل" النشر فى هذه المجالات. وينطبق الشىء نفسه على شركة "هاربر ورو" الشهيرة (الآن "داربر كولينز") وكثير غيرها. ومؤخرًا، فى أواخر

عام١٩٩٧، تم بيع جميع المطبوعات القليلة الأخيرة داخل التكتلات المخصصة لكتب أكثر جدية، أو تم إعادة توجيهها. باعت "هاربر كولينز "الكتب الأساسية"، على الرغم من أنها كانت لا تزال مربحة. تتحول الآن دور "فرى بريس" للنشر، و"تايمز للكتب"، لناشرين فى المقام الأول، لكتب الأعمال التجارية، والكتب العملية، وكان كل منهما يقوم بنشر كتب تمثل مجموعة من الآراء السياسية. ويأسف محررو المجلات النقدية لأنهم يمكن أن يقرأوا فهرسًا كاملا لناشر كبير ولا يجدون سوى القليل الذى يستحق النقد.

ولإيجاد الكتب الجادة والناقدة للسياسة المعاصرة، يجب اللجوء للناشرين الذين لا يهدفون الربح ـ مثل "معهد بروكينجز"، و"مؤسسة القرن" (المعروفة سابقًا "بصندوق القرن العشرين")، وأيضًا الشركة التى أملكها، "نيو بريس". وبالطريقة نفسها، تصدر الآن القصص والترجمات الأدبية والشعر، عن دور النشر الجديدة المستقلة والبديلة، وهى مجموعة واسعة من الدور المتميزة، أسماؤها غير مألوفة للجمهور الأمريكى، والتى بدأت قوائم الكتب بها تملأ الفراغ الذى خلفه انسحاب دور النشر العتيدة فى هذه المناطق. ومعظم هذه الدور، مثل "داكلى أرشيف" للنشر"، و"كوبر كانيون للنشر"، و"جرايولف للنشر"، تقع خارج نيويورك، ويقع الكثير منها فى الحرم الجامعى للجامعات، حيث يمكن لهذه الدور الاعتماد على مساعدات التحرير الرخيصة، وعلى دعم أعضاء هيئة التدريس المتحمسين.

هل يمكن لمجموعة من الشركات الصغيرة أن تلعب الدور الفعال الذى لعبته ذات مرة دور النشر التقليدية؟ كان اعتقادى الشخصى أن هذا الشكل يمثل الأمل الوحيد المتبقى لنا. وبناء عليه، وبعد تركى العمل بدار "بانثيون"، ساعدت على بدء شركة نشر لا تهدف الربح، تسمى "نيو بريس"، والتى نشرت خلال السنوات الخمس الأولى مائتى كتاب. وناشر هذا الكتاب الذى بين يديك، هو دار نشر "أيلند بريس"، وهى دار مماثلة لدار "نيو بريس"، على الرغم من أنه تأسست قبله بمدة أطول. وإذا ألقينا نظرة على باب "نقد كتاب"، الذى ينشر يوم الأحد من كل أسبوع فى الصحف فى جميع أنحاء البلاد، وأيضًا إذا ألقينا نظرة على أفضل المكتبات، سنتأكد من أن كثيرًا من الكتب التى تهم القارئ الآن، هى من دور النشر الجديدة البديلة.

لكن بقدر أهمية هذه الجهود، يكون من الحماقة افتراض أن الثقافة ككل لم تعان من التغيير الذى أصفه. فهؤلاء الناشرون الجدد هم من صغار الناشرين، الذين عادة ما يعانون من النقص الشديد فى التمويل، ويكونون غير قادرين على إنفاق المبالغ الكبيرة لتمويل عمل جديد، والحصول على هذا النوع من التوزيع والتخزين الذى لا تقدر عليه إلا الشركات الكبرى. لذا فإن هؤلاء الناشرين الجدد، جنبًا إلى جنب مع المطابع الجامعية، يمثلون أقل بكثير من ١٪ من إجمالى مبيعات الكتب فى البلاد.

فى هذه الثقافة المتأثرة بالبورتانية، يلعب مفهوم إنقاذ ما تبقى، دورًا مهمًا. وبالنسبة للكثيرين، تعتبر حقيقة أن هذه الكتب لا زالت تنشر، وأنه مازال يتم إنشاء الشركات الجديدة، علامة على أن مجتمعنا فى الأساس صحى، وقادر على تطوير أشكال جديدة لتحل محل تلك الأشكال القديمة. هناك ما يمكن أن يقال عن هذه القراءة المتفائلة للأوضاع: ربما يكون واقعيًا أن نقول، ولاسيما بالنسبة للروايات والشعر، أن لدى الكتاب الجيد جدًا، فرصة كبيرة للنشر، مثل تلك التى كانت له منذ عشرين أو ثلاثين عامًا مضت. أما بالنسبة للكتب غير القصصية، فالاحتمالات مختلفة تمامًا، حيث إنه من غير المرجح أن تمول الكتب التى يحتاج مؤلفوها إلى دفعة مقدمة من التمويل لتمكينهم من قضاء سنوات كثيرة فى البحث.

يتم الآن، بصفة أساسية، اتخاذ قرار بشأن كتاب، أو مقترح كتاب، طبقًا لأبسط المعايير: هل سيمكن تسويق هذه الفكرة؟ لا يهم ما إذا كانت مثيرة للاهتمام، أو مهمة، لكن مايهم هو، هل هى فكرة ساخنة، وتجارية، وشعبية؟ تُظهر، بشكل كبير، محنة الأعمال الجادة غير القصصية، مدى الدرجة التى أصبحت فيها الأفكار سلعة يمكن قياسها بعدد العملاء المحتملين، واحتمال إيجاد ناشر للأفكار المعارضة، احتمال بعيد. وهناك شكل من أشكال الرقابة رسخت نفسها. والنتائج واضحة حقًا فى مكتباتنا. يعتبر قيام مؤسسات يمينية بتمويل عدد من الكتب المهمة استثناء للقاعدة. واليمين، وهو محق فى ذلك، لا يضمن مستقبله فى السوق. لكن الكتب التى تتحدى الوضع الراهن من وجهات نظر

أخرى، هى أكثر ندرة بكثير. ويعتبر تقليداً آمريكيًا، أن يشهد كل عام انتخابى، ظهور موجة من الكتب التى تتناول القضايا الرئيسية فى عصرنا. ويجب على المرء أن ينظر إلى القضايا التى تواجهها البلاد الآن، سواء القضايا المتعلقة بمصلحة الدولة فى المستقبل ، والحاجة إلى مزيد من الاتفاقيات التجارية الدولية، أو المتعلقة بحالة التدخل فيما وراء البحار، لندرك كيف أن قليلا من الكتب حول هذه القضايا قد تم نشرها فى عام ١٩٩٦ أو، فى الواقع، فى عام١٩٩٢. ولم يكن التفكير المتأنى اللازم لمناقشة هذه القضايا، على قوائم دور النشر الكبرى.

كما لا يمكننا الاعتماد على الصحف والمجلات لتمويل هذا النوع من الأبحاث. والتركيز على الربح كان أقوى فى وسائل الإعلام منه فى مجال نشر الكتب. وهذا فى حد ذاته، موضوع لمقال آخر. لكن يكفى القول إن الاحتمال ضعيف أن تقوم الصحف بإرسال الصحفيين فى مهام طموحة ومستهلكة للوقت، والاحتمال حتى أقل بالنسبة للتليفزيون والبرامج الإخبارية الإذاعية. لقد ولت الأيام التى كانت هيئة الإذاعة الوطنية تدفع أجرا كاملا لفرقة أوركسترا سيمفونى بقيادة أرتورو توسكانينى Arturo Toscanini.

كيف، إذًا، سيناقش المجتمع الأمريكى قضايا المستقبل؟ وكيف سنعرف الأفكار الجديدة، والمناهج والاتجاهات المختلفة، والأفكار المعارضة؟ هذا هو السؤال الحاسم الذى يمثله التحول فى نشر الكتاب. قد يظهر رجال جدد من أمثال إدوارد بيلامىEdward Bilamy، وهنرى جورجز Henry Georges، وهارييت بيتشرHarriet Beecher، على استعداد للاستيلاء على خيالنا، أو طرح حلول جديدة للمشاكل التى نواجهها. لعبت دور النشر فى الماضى دوراً مشرفًا - فى الواقع حاسما - بنشر أفكار جديدة لشريحة عريضة من الجماهير. سواء سيستمر ذلك، فى القرن المقبل، عندما يزداد التحدى الذى ستواجهه أمريكا، هو سؤال يجب أن يترك مفتوحًا.

الأفلام السينمائية: ترويج لرغبة الاستهلاك

إدوارد إن. لو تواك

فى الستينيات والسبعينيات من القرن التاسع عشر، أصابت الدهشة كثيرًا من الأمريكيين، من الذين فروا إلى باريس هربًا من المادية فى وطنهم، من دور العرض التى تقوم بعرض الإعلانات التجارية الفجة. كيف يمكن للفرنسيين، كهنة الثقافة، رفيعى المرتبة، وذوى الذوق العالى، آن يرتكبوا مثل هذه الخطيئة التجارية الصارخة بينما حافظ بلدنا مهد الإعلان، على دور عرضه خالية من الإعلانات!

وعلى الرغم من أننا لا نستطيع الفصل بين هوليود وشارع ماديسون، فإنهما مازالا يحافظان على الفصل من الناحية الرسمية. يتوقع من دافعى ثمن تذكرة دخول دور العرض، أن يتحملوا عمليات التملق لراعى العرض على الشاشة. وتطلق جماهير نيويورك، وأنا أحدهم، صيحات الازدراء والاستهجان عندما تحاول شركة كوكاكولا أو أمريكان إكسبريس التسلل إلى العرض، وبالتالى فإن الراعى، وقد وعى الدرس، يتوارى بعيدا، ثم يحاول مرة أخرى بعد بضع سنوات قليلة، لكنه يقابل بردود الفعل نفسها. لقد كان ذلك آنذاك، أما الآن، فيجلس المشاهدون فى صمت كفاقدى الحس (أو البعض يجلس حتى مسرورًا) وهم يتلقون إعلانًا تلو الآخر بينما تؤجل مشاهد الفيلم إلى ما نهاية. وأخيرا عندما يبدأ عرض الفيلم ، تفاجأ أنه ليس فقط مليئا بذكر بعض المنتجات، وبالتالى يعتبر امتدادًا للإعلان التجارى، لكنه أيضًا من إخراج أحد المخرجين المخضرمين من قناة إم تى فىMTV، أو قنوات الإعلانات التجارية للتليفزيون مستخدمًا الأسلوب الخاطف نفسه من القطع السريع لبعض اللقطات المشحونة، والإيقاع ذى

الفولت العالى للقطات الذروة المختارة بعناية. وبالنسبة لأولئك الأصوليين الذين يفضلون التغيب أثناء الإعلانات التجارية، لهم هذا الخيار (وهذا الخيار مازال متاحًا للجمهور الفرنسى، حيث تتجه دور العرض إلى الفصل بين الفيلم الروائى وبين الفقرات الإعلانية، وتحشر الإعلانات التجارية بشكل خبيث بين لقطات من العرض القادم: مشاهد بارزة لفيلم سيعرض قريبًا، ثم إعلانات تجارية، ثم مشاهد بارزة لفيلم سيعرض قريبًا، ثم إعلانات تجارية. وبالإضافة إلى ذلك هناك الإعلانات المعروفة أيضًا بإعلانات الخدمة العامة، التى توجه الجماهير غير المنظمة للسلوك الملائم الواجب اتباعه فى محراب السينما، التى يفوح منها بالفعل رائحة زيت الفشار القديم وصوت مضغ وجبات الطعام الخفيفة. وعلاوة على ذلك، فإن المشاهد من العرض القادم لم تعد تلك المشاهد الرقيقة للأحداث، بل هى هجوم شامل، نسخة مصغرة من الفيلم بها لقطات الذروة بالكامل وتطور الحبكة، متكدسة فى إعلان جنونى. إنها تقفز إلى شاشة التليفزيون، للترويج للفيلم جنبًا إلى جنب مع إضافة "لمحات" عن نجم الفيلم، لجذب جمهور المراهقين الذى يسارع إلى شباك التذاكر فى كل افتتاح مهم فى نهاية الأسبوع.

هل تذكر الضجة التى قوبل بها الإعلان فى الخمسينيات من القرن التاسع عشر؟ لقد احتج رجال الدين والمثقفون بشكل عاصف على احتمال وصول الإعلانات على كفوف الراحة لتنتزع أرواحنا(١). لقد قيل لنا إن شباب اليوم قد نشأ فى جو يسوده الإعلانات لدرجة أنه أصبح جزءًا من خلفيتنا البصرية والسمعية، لذا فليس هناك ما يثير القلق. قد تولد عن جنون الإعلان والنشاز المغالى فيه والمستمر، طفرات فى التناغم فى الإيقاعات الخاصة به، حتى إن الذين يتحدثون عن عدم وضوح الخط الفاصل بين الإعلان وبين المحتوى، كأنهم يعلنون عن قدم أفكارهم. وجمهور "الشباب"، وهو من مواليد الثقافة المضادة للستينيات من القرن التاسع عشر، أصبح الوسيلة والغاية فى الوقت نفسه التى تستحوذ على تفكير صناع الأفلام والمعلنين لدرجة أنها اكتسبت قوة المطلق، الذى يُخشى منه ويتم السعى وراءه لكن لا يكون أبدا موضع مساءلة. وبالمصطلحات الديموجرافية التى تؤدى الآن وظيفة الكتاب المقدس، لا يتكون سوق الشباب فقط

من المراهقين الأمريكيين ولكن أيضًا من الجمهور العالمى من معجبى أفلام الحركة، بمعنى الجماهير المشتركة فى الحد الأدنى من الثقافة والحد الأقصى من الانطباعية والقوة الشرائية.

لكن هل هم، بوصفهم مستهلكين للفيلم، وبوصفهم مستهلكين لصناعة الفيلم، سلالة مختلفة، أو مجرد نسخة أخرى من الأجيال السابقة ولكن أكثر تقربًا من جهة الإنتاج؟ وكيف نبرر، نحن الذين نلوم تلك العمليات، إعلاننا نهاية العالم المتحضر كما نعرفه، بينما مازال هناك الكثير جدًا من الأفلام فى طريقها للخروج إلى شاطئ محيط السينما كما ورد ذات مرة فى كلمات مخرج الموجة الجديدة الفرنسية كلود شابرول؟ أليست السينما، رغم ذلك وفى مجال أعمال الإغراء التجارية، وحتى قبل أن تصبح صناعة السينما فى هوليود صناعة مادية صرفة، ألم تكن الأفلام تسهل علينا عملية القتل؟

السؤال الذى يطرح نفسه هو، ما مدى جودة الزمن الماضى الجميل، وما مدى نقاء الأفلام التى كنا نحتقرها فى يوم من الأيام، والآن نبكى عليها؟ هل يمثل القياس الكمى لكل شىء بأرقام عدد الحضور، وبالربح الذى تحققه الأفلام (أيضًا بعدد الحضور فى المتاحف وبعدد الذين يشترون الكتب، بالإضافة إلى الأشكال الأكثر شعبية من وسائل الترفيه) هل يمثل ذلك تغييرًا فى الجوهر أم يمثل تغييرًا فى المقياس فقط؟

لم تولد السينما الأمريكية فى مختبر الفن الخالص النقى أو التكنولوجيا النقية، لكن ولدت فى عالم حضرى، مشبوه، وسافل، وانتهازى. وعندما بدأ ظهور ما كان من المفترض أن يصبح سينما، بعد مرحلة اللعبة والتجربة، سرعان ما تم تغليفها فى موجة من الحماس الترويجى من جانب الأبطال الأوائل - من أمثال توماس إديسون فى الولايات المتحدة، والأخوان لومير فى فرنسا. ومثلما كانت السينما فى وقت مبكر على بعد خطوة أو خطوتين من العرض، كذلك كان اليهود الذين وجدوا الباب أمامهم مفتوحًا على مصراعيه أمام صناعة صاعدة، فأصبحوا من أقطابها وحققوا نجاحهم من خلال إعجاب جمهور شبه محروم من المهاجرين. أما بالنسبة للمشاهدين، الذين كانوا بصفة عامة من الفقراء ولا

يتكلمون الإنجليزية، كانت السينما هى وسيلة الترفيه الوحيدة التى فى متناولهم، يتلقون عن طريقها دروسًا فى عادات نخبة المجتمع الأمريكى وسلوكها، كما تتخيله هوليود. ويمكننا القول إن السينما، بطريقة ما، قد دارت دورة كاملة لتعود إلى جذورها الأمية، والآن تخرس الجماهير البدائية التى كانت فى وقت ما تتأنق من آجلها.

صناعة السينما هى صناعة، بموجب التعريف، استبدادية ومهيمنة، يديرها مجموعة من حديثى العهد الاستبداديين الذين عززوا انعدام الأمن الاجتماعى بشعور مبالغ بالمسئولية الأخلاقية. لقد كانت السينما مثل طفل غير شرعى، ولد من الفن والتجارة ومن الرداءة والسحر، وكان الوسيط دائمًا فى خطر أن يفقد الطبقة الرقيقة من الاحترام وينزلق إلى الهلاك. كانت هوليود فى العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، موطن الرزيلة بأمريكا. ولكى تطفئ نيران الفضائح، وضعت هوليود قانون "السياسة الذاتية للإنتاج"، المصاغ بشكل جذاب من مزيج من البلاغة العامة الجريئة، والنفاق الحافظ لماء الوجه. لم تكن تلك هى المرة الأولى أو الأخيرة التى نجد فى السينما مفترق طرق، حيث تلتقى أخلاقيات العالم الفيكتورى القديم مع عالم الانتهازية والرأسمالية الفاقد لحس المسئولية الأخلاقية.

منذ بدايتها، تغذت السينما على، وجاءت متوازية إلى حد ما، مع النزعة الاستهلاكية التى ساهمت فى خلقها. جاء نمو الصور المتحركة قبل وبعد الحرب العالمية الأولى، متزامنا مع النمو الصناعى المكثف بشكل عام، فى وقت ظهور منتجات جديدة. لقد كان هذا هو عصر الصعود السريع وجمع الأموال، وقد أقحم الإعلان نفسه كوسيلة لاستغلال أسواق جديدة وبيع البضائع المتبقية. وقد تحول الإعلان سريعًا إلى آلية وحدت العرض والطلب فى آلة مستمرة الحركة، لاحقت المستهلكين وأبقت على شهية المشاهد التى لا هدف من ورائها، خصوصًا فى الأوقات القاحلة التى انكمشت فيها القوة الشرائية. وجنبًا إلى جنب مع الدور الذى لعبته السينما فى ظهور النزعة الاستهلاكية، كان ظهور المراكز التجارية فى نهاية القرن التاسع عشر. نرى فى مجال هذا الفن الرائد، فن العرض السينمائى،

تركيز صناع السينما ومروجى السلع، مثلهم فى ذلك مثل رجال السياسة المحنكين، على الاحتياجات والرغبات التى مازالت فى اللاشعور ولم يعبر عنها أصحابها بعد لكنها فى طور الظهور لتلتقط الطعم. والوصف نفسه ينطبق على ظهور نخبة من نجوم هوليود. ولم يخلق المنتجون، الذين يتصفون بالشح الشديد، هذه النخبة الرائعة من الممثلين، الذين سريعًا ما طلبوا إلقاء الضوء عليهم، لأن هؤلاء المنتجين كانوا يفضلون أن يظل الممثلون فقراء ومجهولين، لكن مشاهدى السينما هم الذين ساهموا فى خلق هؤلاء النجوم الذين بدأوا يتعرفون عليهم من خلال الأفلام، ويفضلون واحدا عن الآخر، ويسعون لمعرفة أخبار نجومهم المفضلة.

لقد كانت النزعة الاستهلاكية والشهوة للسينما هى فى كثير من الأحيان، القوة التى تربط آمريكا المكونة من مجموعات عنصرية ودينية متباينة ولغات مختلفة، وطبقات اقتصادية متفاوتة. قدمت السينما، فى مجتمع مقسم بشكل حاد ومقيد طبقيًا، رؤية للتجانس والوصول لكل ما هو أفضل فى الحياة، بحيث يستطيع الجميع المشاركة. ومن سخرية الأقدار أن ما بدأ كتأثير موحد، يدمج القيم العائلية مع المثاليات السائدة لثقافة الطبقة المتوسطة، أصبح فى النهاية مصدرًا للتقسيم والتجزئة، حيث تحولت السينما - فى النمط اللانهائى لتكيف الديمقراطية مع الرأسمالية نفسها - إلى تجسيد لحركة التغيير وتهديد للحرية فردية.

ويمكن أن نرى فى تاريخ السينما، الانتقال من مرحلة الحفاظ على الفضائل الفيكتورية، مثل المدفأة والتضحية والواجب، إلى مرحلة اعتناق المثاليات الأكثر ترفًا للقرن العشرين، من الاهتمام بالنفس وتحقيق الذات. توضح المؤرخة جيرترود هيملفارب Gertrude Himmelfarb، فى كتابها المثير إفساد أخلاق المجتمع Demoralization of Society، أنه على النقيض من الكثير مما كان شائعًا فى القرن العشرين، لم تكن تلك الفضائل الفيكتورية مجموعة من المبادئ، تستطيع عن طريقها الطبقة البرجوازية ذات الأفق الضيق، التحكم فى الطبقة الاجتماعية الأدنى. بل إن هذه "الفضائل" - وهى مجموعة صارمة من المثل العليا،

تختلف عن "قيم" اليوم المترهلة - كانت فى الواقع الغراء الاجتماعى الذى وحد بين الطبقة الدنيا والطبقة المتوسطة، مع التركيز على الاحترام كأحد الصفات الكبرى للحفاظ على هذه الوحدة(٢).

يتداخل الاحترام مع النزعة الاستهلاكية بشكل غريب بظهور الطبقة الأمريكية المتوسطة. فبسبب السينما - وهى أداة فعالة فى هيمنة فكرة أهمية الحفاظ على المظهر فى القرن العشرين - أصبح بالتدريج مفهوم أهمية المظهر، الذى كان فى وقت ما مرتبطًا بمفهوم احترام الذات، أقل ارتباطًا بالشخصية والسمعة لأنه أصبح ببساطة أكثر ارتباطًا بمفهوم أن تبدو فقط حسن المظهر.

ونتيجة للتركيز على كل ما هو مرئى، ونتيجة لتكيفنا مع مشروع الاستهلاك، أصبح النظر والشراء متشابكين. فالأفلام هى الساحة المثالية للنظر، بتطلع واشتياق، إلى الصور التى تسكر وتهدئ، وتكون مصدر إلهام وإثارة وتحفيز للافتتان السلبى الذى يغذى التطلع الغامض، لكن فى الوقت نفسه هو تطلع قوى.

وعلى النقيض من استراتيجية التسويق الحالية، والتى هى موجهة تقريبًا بشكل حصرى إلى الشباب من الذكور، كان المشاهد والمستهلك المثالى للسينما فى العقود السابقة هو المرأة. وفى حين كان الساكن الأول لجنة عدن فى سفر التكوين الإنجيلى رجلاً، نجد أن فى جنة الاستهلاك، التى أطلقتها السينما فى القرن العشرين، كان المستهلك الأول هو المرأة - فهى التى قامت بالشراء، وهى التى تخيلت نفسها فى ملابس بطلات العرض السينمائى التى تعيش أجواءه. وكانت فى الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، تتخيل نفسها سيسيليا، تلك الشخصية التى جسدتها ميا فارو، الممثلة الأمريكية، فى رواية ودى ألين وردة كايرو القرمزيةThe Purple Rose of Cairo، وهى شخصية فتاة تعمل بأجر منخفض، أو ربة منزل حزينة تفقد نفسها مرارًا وتكرارا - وتهرب من ويلات الكساد العظيم - فى مشهد بارك أفينو حيث تسمع كلمات الحب الهامسة. فى العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر - فى الواقع، فى كل عقد من عقود تقدم السينما حتى السبعينيات - كانت النساء هن الجمهور الأول للأفلام التى تعرض نهارًا، وهن اللاتى يقررن أى فيلم يردن مشاهدته. وعلى النقيض من

موقف المرأة الفعلى فى المجتمع فى ذلك الوقت، قدمت الممثلات (فى أفلام كتبتها كاتبات السيناريو) الكثير من الأفلام مثل نظرائهم من الذكور، وكانت أجورهن متساوية ومتكافئة ـ إن لم تكن أحيانًا أعلى.

فى كل من رواية أوليف هيجنز بروتى فى عام ١٩٢٣ ستيلا دالاس Stella Dallas والقصة السينمائية المأخوذة عنها (خاصة النسخة الكلاسيكية لعام ١٩٣٧ من إخراج كنج فيدور وبطولة باربرا ستانويك)، كانت البطلة الطموحة، لكن فى الوقت نفسه يائسة وتنتمى إلى الطبقة الدنيا، تقرأ المجلات الترفيهية وتذهب إلى السينما لتشبع تلهفها للحياة الرومانسية(٢). تتركز أحلامها على التمتع بحياة أفضل. وهى، مثل إيما بوفارى، فى رواية الكاتب جوستاف فلوبير مدام بوفارى Madame Bovary، تشعر بنوع من النشوة النرجسية حيث تندمج المادية والروحية فى محاولة لتحسين الذات وتحسين الظروف الاجتماعية من خلال الحب.

تصور كثير من الكتابة النظرية عن "المرأة المشاهدة" فى الماضى، المرأة كضحية للدعاية. على أى حال كانت المرأة سلعة للعرض. وأود أن أقترح أن ما تشتريه المشاهدة، أو ما يباع لها، ليس مجرد وسائل تؤدى لحياة أفضل ـ مثل، فى وردة كايرو القرمزية The Purple Rose of Cairo، شقة فى مبنى بارك أفينو والشمبانيا و"عطلة نهاية الأسبوع فى مانهاتن" ـ لكنه أيضًا نسخة أخرى من ذاتها. فالمرأة المثالية ليست فقط هى تلك التى ترتدى الملابس الفاخرة، وتقيم فى مسكن أنيق، لكن هى تلك التى تمتلك مشاعر رقيقة وأفكارًا متعمقة. ويحدث نوع من التحول فى الديناميكية الفريدة فى توحيد الهوية مع نجوم السينما. ومن الصعب الفصل، فى اللقطات المضيئة والمقربة، بين المادى والروحى، بين الوجه والروح، وبين الأشياء والمشاعر، حيث تعتبر الأولى الغطاء الخارجى للأخيرة. ويصبح الجمال الأيقونى لهذه الوجوه التى تملأ الشاشة، مجازًا للجمال الداخلى.

تصبح الحياة، بالنسبة لكل من ستيلا (باربرا ستانويك)، الحبيسة فى مدينتها، وسيسيليا (ميا فارو)، المحاصرة فى زواج متعسف، حياة لا تطاق. بالنسبة للمرأتين فإن مركز التطلعات ليس نابعًا من عالم خيالى بالكامل، لأن مجرد وجود هذا العالم يعطى شكلاً وصوتًا لسخطهما. وغالبًا ما توصف الأفلام بأنها مثل

الأفيون، أو منفذ للهرب يسمح للبؤساء بالعودة طواعية لتعاستهم، وأن ثورتهم لتوفير منفذ ولغة لتطلعاتهم لا طائل من ورائها. ويرى الماركسيون وعلماء الاجتماع الأفلام مجرد أداة صرفة للرأسمالية، تعمل بطرق مشينة متعددة ـ مثل شرك إغراء المادية، و مسكن يضمن الاستسلام، أو أداة لإثارة مشاعر الاستياء التى ليس لها منفذ آخر. فى الواقع، لعبت السينما دورًا تقدميًا ومحافظًا فى الوقت نفسه، وكانت ديمقراطية فى توجهها الشعبى، تقليدية فى قبولها الأمر الواقع، ومتناقضة فى هذا الصراع الداخلى المستمر بين النخبة (النجوم) و(القصة).

بكت الجماهير (ومازالت تبكى) مع ستيلا، عندما تنازلت عن ابنتها، لوريل، قرة عينها، إلى هيلين موريسون التى تعيش حياة رغدة. والآن يمكن للأرمل العجوز، المرموق اجتماعيًا، والد لووريل، أن يوفر لها الملبس والتعليم، وقبل كل شىء، يتيح لها فرصة الزواج من زوج من الطبقة العليا. ولكن لا أحد يرى فى ذلك خطأ على الإطلاق، حيث كانت فكرة أن يحسن المرء من وضعه فى الحياة، فكرة جوهرية جدًا فى الثلاثينيات، وأيضًا لأن ستيلا تفتقد فى حياتها المثل العليا. فهى غارقة فى أسفل درجات السلم الاجتماعى، وغير موفقة فى اختيار أصدقائها وثيابها، وتكافح للتشبث بمسئولياتها، لكن جهودها تتقوض بسبب زينتها الزائدة عن الحد.

إن التعلم من الأفلام كيفية الحفاظ على المظهر، وكيفية ارتداء الملابس المناسبة ـ وبالتالى اكتساب الرقى المطلوب للانتماء للطبقة العليا ـ كان هدفًا نبيلا، ولكنه كان هدفًا يتعذر على ستيلا حتى التطلع إليه. مع ذلك فتستطيع ابنتها، التى ولدت بفرص أفضل وبجينات الطبقة العليا الموروثة من والدها، أن تعتبر بسهولة من هؤلاء الذين يحتفظون بمزايا القشرة العليا– وإن كانت لا تخلو من الألم والشعور بالذنب بسبب الخيانة تجاه طبقتها.

ومهمة النساء الأساسية، والوسيلة لتحقيق غاية الصعود الاجتماعى، هى أن يجعلن من أنفسهن ـ أو من أنفسنا ـ موضعا للرغبة. فكانت النساء، من أمثال ستيلا وسيسيليا، المهاجرات والفقيرات من الطبقة العاملة، يتطلعن إلى الطبقة الوسطى التى تكون فيها الرومانسية هى معيار اختيار الزوج. والأفلام، وأغانى

الحب التى غالبًا ما يتم إدراجها فيها، تعلمنا فن المغازلة: ماذا نقول، وكيف نلبس، وكيف نمارس القبلات والحب، وكيف ننفصل، وقبل كل شىء، تعلمنا كيف نتجاوز الحواجز والفروق الدقيقة بين طبقة وأخرى، وكيف يمكن إسقاطها. أخذت النساء، من أفلام العشرينيات والثلاثينيات من القرن التاسع عشر، دروسًا فى الزواج، أو دروسًا فى كيفية التعامل مع الزوج الشارد، لكن الرسالة أصبحت أكثر راديكالية - من حولى بصرك وابتسمى بشجاعة فى العشرينيات، إلى حولى بصرك واذهبى إلى رينو للحصول على الطلاق فى الثلاثينيات. والنسخة السينمائية من مسرحية كلير بوث لوسى النساء The Women تصور نماذج من كل من: نورما (المتكبرة)، وشيرر الزوجة الشجاعة الحمولة، وبوليت جودارد الأنيقة المفعمة بالحيوية، خريجة رينو.

والحكمة المشتركة بين المنظرين من مناصرى المرأة، هى أن عملية التماثل مع نجمة الفيلم المرغوبة، تعنى جعل المرأة من نفسها سلعة، وتضعها فى موضع "للنظرة المحدقة" من جانب الرجل. وهذا لا يعنى أن "الرجال يقومون بالفعل والنساء يقمن برد الفعل". ولا يعنى موقف النساء من الجنس و"الاختلاف"، كما عرفه علماء التحليل النفسى سيجموند فرويد وجاك لاكان، إن هذا يتعلق بالعامل، أو الفاعل، لكنه يتعلق بالآخر الذى يحده ويحيده مخاوف الرجل وأوهامه. لكن عندما توضع النساء فى قالب القابعات فى انتظار لقرار الهلاك المحتوم، فإنه من النادر الاعتراف بالمدى الذى يغيره وجود المرأة القوى، ومدى التعقيد الذى يحدثه فى التشكيلات الثنائية الثابتة، باعثًا على قوى أكبر بكثير من الدور المرسوم لهن.

صورت أفلام الثلاثينيات، الغارقة فى الصراع الطبقى، والتى تجاهد للصعود للطبقة الأعلى وبالتالى تنشر الأمل، نساء من أمثال بطلات الروائية جين أوستن من الطبقة الوسطى الصاعدة، يقمن بالفعل باختيار زوج بدلاً من أن يقوم أحد باختيار زوج لهن: مستهلكين، إذًا، ليس فقط القبعات وأدوات، الزينة لكن أيضا لشريك الحياة. بدأت المرأة بالتحرك، بعد تمكينها من حق الاقتراع العام، للمطالبة بالمساواة الجنسية، والتى كثيراً ما تصورها وألح إليها الكثيرون، ومع

ذلك فقد تم التنبؤ بالصعوبات التى تنطوى عليها فى قصص كانت ترفع المرأة من وضعها العادى لكن لتعود بها سريعًا إلى قفص الزوجية.

كانت الأفلام دائمًا من الأعمال التجارية التى تبيع نفسها جنبًا إلى جنب مع المنتجات التى قد تكون مرتبطة بها من خلال الترويج لها. والاشتياق إلى شىء والحنين إليه هو فى حد ذاته قصة من الغموض بين الآمال المثارة والإحباط، لرغبة لا تنتهى ولا ترضى أحدًا أبدًا.

وصف فرويد الرغبة الجنسية بأنها محكوم عليها بالإحباط لأن شيئًا ما فى طبيعتها الفعلية غير قابل للتحقيق. وليس فى هذا أى غموض على الإطلاق إذا أخذنا فى الاعتبار أن مصدر هذه الرغبة هو شوق الطفل للاتحاد مع الأم، وهذا الشوق لا يظهر إلى حيز الوجود إلا عندما يحدث الانفصال ويولد إحساس الفرد بالذاتية "أنا". هذا التناقض هو تكرار لافتتاننا بالنجوم - بل إنه أساس سحرهم، وسيطرتهم علينا - يقوم على الشعور بالألفة والدمج، وفى الوقت نفسه هو وهم محض. والنجوم هم أيضًا فى الوقت نفسه خدم وسادة لنا. نحن ندفع النقود ونقبلهم أو نرفضهم، فى الوقت الذى لم نتمكن فيه من قبول والدينا أو رفضهم، ذلك لكونهم "ملكية" خاصة بنا على الأقل فى الوقت الراهن. هم الوسيلة التى نثأر بها من إذلال الطفولة والكثير من عجزها الجنسى. لكن لأنها ملكية كل فرد، فإنها ليست ملكية أحد، وبالتالى نجد مشاعر الاستياء، والتقبل، والارتياح للقيل والقال فى سرد مصائبهم. فهم يستاءون منا لتطفلنا على حياتهم، ونحن نستاء منهم لأنهم أكثر حضورًا وقوة منا، ولكشفهم لاحتياجاتنا. وهكذا، مثل الإغريق وآلهتهم الجميلة ذات النزوات المتقلبة، فإننا نستمر فى احتياجنا لبعضنا البعض، واعتماد كل منا على الآخر. وعندما نفهم كيف يعمل مخ الإنسان وكيفية عمل الموصلات العصبية، من الفيرمونات والدوبامين، وطريقة عمل الإدمان - ضجيج التسوق، والاندفاع من أجل الحصول على الأشياء، والإنفاق، والمشاهدة والرغبة - قد ندرك أن الأفلام قد غيرت بشكل دائم آلية استجابتنا. نحن نستهلك بشغف كل فصل، وفقرة، ووثيقة من وثائق فضيحة رئاسية - وأين هى تلك الأفلام التى تستطيع أن تجمع بين سلطة النجم وخطر الحياة الحقيقية؟ - لكنها تعرض بهذه

الطريقة للجمهور المستعد لاستقبال هذه الفضائح لأنه قد تم إعدادنا لكل من الشكل، والمضمون، واللغة التى كانت فى وقت ما لا يصح ذكرها، خلال عقود من السيناريوهات الفاضحة فى الأفلام.

إننا جميعًا، كما أقنعنا ألفريد هتشكوك بخبث فى فيلم بعد آخر، نعيش من خلال نجومنا، متورطين فى أعمال سيئة، مليئة بكراهية الذات، والسادية، والخيانة. والسينما والآن التليفزيون، هى النافذة الخلفية حيث نشاهد من مكاننا الآمن هؤلاء البدلاء المتألقين يواجهون الأخطار نيابة عنا.

والأفلام هى، وكما كانت دائما، قوة ثورية. فهى تسعى، مثلها مثل الرأسمالية، إلى أسواق جديدة، ولا تعترف بحدود قومية، وفى القصص التى تعرضها، تروج للطريقة المادية فى الحياة. وهى تجعل، بحكم طبيعتها الحركية، أكثر أشكال النقل الحديثة ووسائله، مألوفة ومرغوبة. ولسهولة التنقل اليوم، فلا توجد الآن حاجة لأن تقيم أجيال من عائلة واحدة فى مكان واحد، حيث تتوفر الطرق القصيرة السريعة التى تصل بين مدينة وأخرى، أو بين بلد وآخر، عبر حدود الزمان والمكان. قال لى صديق، وهو أب، كيف أخذ ولده البالغ من العمر ١٢عاما لمشاهدة أحدث أفلام جيمس بوند. لقد سحر الفيلم الصبى، لكن والده كان ساخطًا بسبب التأثير السيئ للفيلم على العقل، وبالكاد استطاع الاستمرار فى مشاهدة الفيلم . عاد بابنه إلى المنزل واستأجر شريط فيديو لأحد "كلاسيكيات" شين كونورى التى نشأ عليها. وهذه المرة فر الفتى من الغرفة وقد أصابه الضجر، تاركًا الأب يتأمل افتقار الذوق عند مراهقى اليوم مقارنة بالعصر الذهبى لأفلام جيمس بوند، مثل الإصبع الذهبى Goldfinger ودكتور نو Dr No. وأفلام جيمس بوند هى كبسولة زمنية افتراضية للصنعة، ولاتجاه الاستهلاكية لأواخر القرن العشرين: فهى مثلا حقل ألغام من المبتكرات التى تستخدم مرة واحدة فقط، ومعالجة الأحداث العالمية، وتحالفات فى إطار من المؤامرات، وأحدث موديلات المركبات والبنادق، وأجمل الفتيات. تعكس الأفلام وتخلق فى الوقت نفسه الظروف الاجتماعية، لكن سحرها الخاص يكمن فى تقديم الخيال فى هيئة واقع افتراضى، الذى هو عالم يستهلك فيه الناس بدون هذا الملل الذى

يصاحب العمل. وتأتى الشخصيات بمواردها ومقتنياتها التى لا تحتاج إلى تقديم تفسير لكيفية الحصول عليها، ولا إظهار للجهد الذى بذلوه فى الحصول عليها. إنها شخصيات تحلق فى عالم بطاقات الائتمان، حيث لا نرى معاملات، وحيث الفواتير المستحقة التى لا تأتى أبدا... وبعد ذلك نتعجب لماذا نحن أمة مدينة!

والأفلام السينمائية، بتقديمها الدائم لنجوم جدد ووجوه جديدة لتبث الحياة حتى فى أقدم وأكثر الحبكات استهلاكًا، هى الرائدة فى مجال البحث عن الجديد. ويمجد فيلم تيتانيك Titanic، الذى تكلف ٢٠٠ مليون دولار، والذى يعتبر من أكثر الأفلام التى تم صناعتها تكلفة على الإطلاق، يمجد البروليتاريا "الناس الحقيقية" فى موقفهم من مسافرى الدرجة الأولى. يبدو أنه لإضفاء مصداقية أيديولوجية للمشاريع الاستهلاكية ، فإنه يجب أن يحتفظ كل جيل، وكل عقد من الزمان بوضع التمرد: يتمرد الشباب على كبار السن ، شباب الهيبيز على الشباب التقليدى، الابتكاريين والخلق على ضيق الأفق.

يتحدى توماس فرانك، فى كتابه المثير غزو رابط الجأش The Conquest of Cool، وجهة النظر النمطية لأعوام الستينيات للثقافة المؤسسية بوصفها شخصا ضخما قوى البنية[٤]. وهو يشير إلى أن الشركات الكبيرة التى يقودها الفوضويون من شارع ماديسون كانت مستعدة للخروج من القالب مثلها مثل أى متظاهر من أجل السلام، أو شاب فى ريعان الشباب. وعلاوة على ذلك، وبعيدًا عن مجرد اصطفاء بلاغى للتمرد - كما هو الحال فى حملات شركة بيبسى كولا، وشركة فولكس واجن التى تشجع الشباب والمرح، وتهاجم النفاق الإعلانى، على سبيل المثال - كان شارع ماديسون يشهد فى الوقت نفسه، ثورة موازية خاصة به - ضد البلادة والتسلسل الهرمى، وضد انسجام طبقة أصحاب البذل الرمادية - التى وجدت فى لغة الثقافة المضادة صوتها الثورى.

إذا انتقلنا إلى التسعينيات، إلى السؤال عما هو الرمز الذى يوحد العالم فى معسكر شعلة الأوليمبيات؟ إنه ليس هذا التشابك من الدوائر المنسجمة، لكنه الرمز الخاص بنايكى سيووش، رمز السرعة والتجارة الدولية. يسرق الأولاد فى

الأحياء الفقيرة من أجلها، ويعبر مراسلو التليفزيون عن حيادهم بتعليق الشعار على ستراتهم، ويعلن عنه ووليم بورو من خلال أغانى فريق البيتلز.

تكرار التأكيد على ما هو موضوع الساعة وما هو ليس كذلك، قد شحن الجو بالقلق: هل سيخرج فريق سبايس جيرلز للوجود قبل أن نتمكن من معرفة من هم فى الواقع، وهل يستحقون ذلك العناء؟ إن الكم الهائل من الأفلام - حوالى أربعمائة فيلم سنويًا فى أواخر التسعينيات، فى مقابل نصف ذلك العدد فقط فى أوائل العقد - يجعل من الصعب ممارسة التفكير فى أوقات الفراغ أو التمسك بشخصية واحدة بينما نحن مدفوعون تحت ضغط من المحررين الصحفيين لترك الأعمال الفنية التى عرضت الأسبوع الماضى والقفز إلى الفوز بالجديد الذى يعرض الآن. بالطبع، ليس هناك جديد مهما كان "الآن" الذى نعيش فيه. سجلت السينما، منذ ستين عامًا، معركة الجيل الأكبر سنًا فى مقاومة إغراءات موسيقى الجاز والسوينج (التأرجح) فى الموسيقى الشعبية. وفى الوقت نفسه، شاهدت فى كثير من الأفلام حنين العودة إلى الأغانى القديمة الجيدة لتصل حتى إلى أغانى جاى ناينتيز. وبالتالى، تعايشت إيقاعات الماضى البطيئة، الهادئة مع إيقاعات العصر الحديث السريعة، تماما كما هو الحال مع الثقافة الأدبية اليوم، التى تتعايش جنبًا إلى جنب مع (وأحيانًا تتداخل وتستغل) ثقافة الإنترنت. وعلاوة على ذلك، وعلى الرغم من كل هذا التغيير فى العقلية وهذا التداخل من الوسائل المختلفة عن أى وقت مضى لتهيئنا لمسايرة إيقاعات الاستهلاك وقواعده، فمازال يبقى للبعض هامش ثمين من المعارضة، والاستخفاف، والمنظور التاريخى. على سبيل المثال، هناك اتجاه واحد يعمل ضد التصرف المفترض فى الأفلام والأعمال الفنية الأخرى من الثقافة الشعبية، وهو نمو مبادرات محافظة تتيح لنا أن نرى أن ما نحن عليه ليس مختلفًا بشكل جوهرى عن الذى كنا عليه.

البيئة: عطاؤها واستهلاكها

ديفيد دبليو. أور

ما يحصل عليه شخص ما، لا يستطيع شخص آخر الحصول عليه... وكل ذرة من مادة، مهما كان نوعها، وسواء كانت مستخدمة أو مستهلكة، تعنى استهلاك الحياة البشرية.

Unto These Last : John Ruskin

كيف نستطيع بيع الكثير من السلع، لكثير من لأشخاص فى أماكن كثيرة.

إعلان أى بى إم IBM

لا تحاول أن تأكل أكثر مما تستطيع أن تحمل

الآنسة بيجى

منذ بضع سنوات أهدانى صديقى، ستيوارت ميس Steward Mace، فتاحة خطابات قام بنحتها يدويًا من قطعة من خشب الورد. وقد أصبح ستيوارت، خلال سنوات حياته التى تجاوزت السبعين عامًا بقليل، حرفيًا بارعًا فى الأخشاب، ومصورًا فوتوغرافيًا، ومدربًا للكلاب، وطاهيًا ذواقًا للأكل والخمور، ومعلمًا، وراويًا، ومتزلجًا، وعالمًا بالتاريخ الطبيعى، قد أصبح أسطورة فى مسقط رأسه ببلدة أسبن، بولاية كولورادو. ولقد أدار ستيوارت وزوجته إيزابيل، متجرًا فى الجبال أعلى أسبن يسمى "توكلات"، ويعنى هذا المصطلح، بلغة الإسكيمو، "مياه قمة الألب"، يعرض فيه مجموعة من الأعمال الخشبية اليدوية، وسجاد نافاجو،

ومجوهرات، وبقايا أسماك متحجرة، وصورا فوتوغرافية. لقد استثمر وقت "فراغه" فى مواسم الصيف فى إعادة بناء أجزاء مدينة مهجورة تسمى أشكروفت، لصالح USDA لخدمات الغابة. ولم يتقاض أى مقابل لوقته وعمله. وكان يقوم هو وزوجته وإيزابيل، بطهى وجبات الطعام المحلى للمجموعات التى تقوم بمغامرة تسلق الجبال من آسبن، ويصحب الطعام رواية قصص رائعة عن الجبال، والمدينة، وعن حياتهم. وكان ستيوارت دائمًا لا تعوزه الكلمات، كان يكسب معيشته من تصنيع الخشب، هذا إذا كانت كلمة "معيشة" ملائمة للطريقة التى يكسب بها رجل من عصر النهضة قوت يومه. فقد قام هو وأبناؤه، بصنع طاولات وخزانات يدوية ذات أنماط حفر دقيقة ومزخرفة، مستخدمين مجموعة من أخشاب الغابات من جميع أنحاء العالم. ولم تكن الطاولة التى يصنعها ميس مثل أى طاولة أخرى رأيتها. ومن قبل أن يكون مضطرًا آن يقوم بذلك بمدة طويلة، كان ستيوارت يشترى الخشب من غابات معالجة بيئيًا لكى تعيش فترة طويلة. ويؤمن ستيوارت بأن الكلام عن البيئة، والعمل بهذا الكلام ليس شيئا نظريًا، فقد كان يهتم بالتفاصيل الدقيقة.

قابلت ستيوارت أول مرة فى عام ١٩٨١، حيث كنت أقيم فى أوزاركس فى ذلك الوقت، وكنت عضوًا فى منظمة تعليمية تتضمن، ضمن أشياء أخرى، مزرعة، ومنشارا يدار بالبخار. وفى صيف عام١٩٨١، كان أحد مشروعاتنا هو تزويد معهد روكى مونتين، والذى كان قد تم بناؤه بالقرب من مدينة أولد سنوماس، بكولورادو، بحمولة جرارين من عوارض خشب البلوط. ولقد استشرنا ستيوارت عن كيفية قطع أشجار الغابات الضخمة وعن كيفية التعامل معها ، حيث كنا لا نعرف إلا القليل عن تلك الأشجار. ومنذ ذلك الوقت وصاعدًا، كنا نرى أنا وستيوارت بعضنا البعض عدة مرات فى العام، سواء عندما كان يسافر إلى أركانساس، أو عندما كنت أقوم أنا بزيارة أسبن للاستجمام بعيدًا عن صيف أركانساس. لقد تعلمت منه الكثير، ليس فقط فيما يتعلق بالخشب، لكن الأهم فيما يتعلق بالبيئة، والاقتصاد، والعمل الحرفى، والكرم وطيبة القلب. آخر مرة رأيت فيها ستيوارت كان فى غرفة المستشفى قبل أن يتوفى متأثرًا بمرض

السرطان، بفترة قصيرة، فى يونيو عام١٩٩٢. وأتذكر، فى المحادثة الأخيرة التى جرت بيننا، أنه كان إلى حد بعيد أكثر اهتمامًا بسلوك الطيور خارج نافذته عن الاهتمام بالسرطان الذى كان يأكل فى جسده. وقام بإلقاء محاضرة مرتجلة عن بيئة جبال الروكى. لقد بكينا قليلا وتعانقنا، وذهبت فى طريقى. وبعد ذلك بقليل ذهب هو فى طريقه ـ إلى الموت.

فى كل مرة أستعمل فتاحة الخطابات، أفكر فى ستيوارت. أعتقد أن هذا هو الغرض من إهدائها لى. أما بالنسبة لى، فإن الفتاحة فى حد ذاتها درس فى العطاء والمادية الملائمة. أولاً، هى شىء مفيد، فنادرًا ما يمر يوم لا أستعملها فى فتح بريدى، أو فتح أى شىء آخر، أو أستخدمها كعامل مساعد فى الحديث للتأكيد على نقطة ما. ثانيًا، هى جميلة، الألوان تتدرج من البنى الغامق إلى الأصفر الداكن، والخشب صلب يصعب معه أن تبلى بسرعة، حتى بعد عقد ونصف من الاستعمال المستمر. ثالثًا، لقد تم صناعتها بمهارة، وبذكاء شديد فى التصميم. المقبض منحوت ليناسب اليد اليمنى. ويسكن إصبعان فى الانخفاض المحفور على القاعدة، ويسكن الإبهام فى انخفاض آخر على طول قمة الساق، مما يجعل الإمساك بها متعة، وتمنحك نعومتها شعورًا جميلاً عند لمسها، كما أنها تعمل فى الغرض المخصص لها، إذ ينحنى النصل قليلاً إلى اليمين، مما يساعد على فتح المظروف، حيث يقطع النصل خلال الورق.

لو كان ستيوارت مستهلكًا تقليديًا، لكان قد وفر على نفسه بعض الوقت والجهد، ولكان قد أسرع إلى محل أدوات مكتبية، التى تقدم تنزيلات فى الأسعار، لشراء إحدى الفتاحات المعدنية الرخيصة المطلية بطبقة من الكروم، والتى قام بصنعها عشرات الآلاف من العمال فى بعض الدول "النامية"، عمال يحصلون على أجور منخفضة، ويعملون ساعات زائدة لدى شركات متعددة الجنسيات، وتقوم مجموعة من شركات حرة أخرى، بأخذ مواد منتزعة من الأرض، تشحنها، فى كل اتجاه، عبر المحيط بناقلة مكتظة بالخام السعودى، ويبيعها موظفون غير معروفين، لمستهلكين مجهولين، فى مراكز تسوق تجارية مشيدة على أراضٍ كانت فيما مضى أراضى زراعية، وهى الآن أقبح من الإثم

نفسه، لتدر دولارات قليلة لبعض المنظمات التى تسعى لشراء نفوذ فى واشنطن، وتغرى الجمهور بالإعلانات التليفزيونية . أعتقد أنه يمكنك أن تدرك ماذا أعنى بكل هذا.

وبمعنى آخر، لو كان ستيوارت اقتصاديًا "عقلانيا"، لكان قد وفر على نفسه كثيرًا من الوقت، والذى كان يمكن أن يستغله فى مشاهدة قنوات التسوق المنزلى التليفزيونية، ولكان يمكن أن يزيد من مكاسبه ويقلل من خسائره. لو كان قد فعل ذلك، لكان قد شارك فى الخداع الضخم المسمى الاقتصاد العالمى، والذى يعنى مساعدة بعض الدول الأخرى أن "تنمو"، عن طريق بيع كرامة شعبها، وإرثهم الطبيعى، من أجل مصلحة آخرين لا ينقصهم شىء، و لكان قد ساعد فى أن يصبح إجمالى الناتج القومى لبلده أكثر ضخامة.

ويجرى الآن جدل عالمى واسع، حول استمرارية الأنماط الحالية للاستهلاك ومشروعيتها. فمن ناحية، هناك الذين يتحدثون عن فقراء العالم، مثل المنظمات الدينية، والبيئية المتعددة، ويجادلون بإصرار، أن الأثرياء الأمريكيين، واليابانيين، والأوروبيين، هم الأكثر استهلاكًا وفى هذا، كما يعتقدون، ظلم للفقراء، وللأجيال القادمة، وللأشكال الأخرى من الحياة. إن ذلك يجهد الأرض. وهناك آخرون، يعتبرون أنفسهم يأخذون موقفًا وسطًا، يجادلون أننا لا نستهلك كثيرًا، ولكن نستهلك بكفاءة أقل. وأظن أن وراء هذه الآراء، الاعتقاد المتشائم بأن الوقت قد تأخر لكبح مذهب المتعة، الذى تطلقه الإعلانات، ويطلقه على العالم متعهدو مؤسسات اللهو. والطبيعة البشرية، كما يعتقدون، هى فى الأصل طبيعة متدنية، وإذا تُرك للناس الاختيار، فإنهم سيرغبون فقط فى رؤية العالم كمادة للاستهلاك، وهم بذلك يسعون إلى الهدف الأسمى للحياة، وهو تعظيم المتعة الجسدية والنفسية. أما بالنسبة لرجال الإدارة، فإن الذى يضمن استمرارية استهلاك السلع، هو تنوع وتنظيم أفضل، وجرعة أكبر من التكنولوجيا. وعلى أى حال، فلا توجد هنا أى مشكلة. فهذا الرأى فى الطبيعة البشرية يمكن اعتباره نبوءة عن تحقق الذات من النوع الذى كان سيقدره المحقق الكبير فى رواية فيودور ديستوفسكىFyodor Dostoyevsky، الإخوة كارامازوف. وعلى الجانب الآخر من

الجدل، هناك المغامرون الاقتصاديون وأصدقاؤهم المقربون الذين يتحدثون بشكل ارتجالى عن نمو اقتصادى أكبر، وعن أسواق عالمية. ونظرة سريعة للخطايا السبع القاتلة، تكشف أنهم وثنيون بالكامل، وأنهم سيحترقون فى نار الجحيم إلى الأبد. (أنا ابن واعظ بالكنيسة البروتستانتية).

ولأننى أعتقد أن ذلك صحيح، ولأننى أعلم أن الأمر فى حاجة إلى مساعدة، فإن الموقف الأول فى هذا الجدل هو الذى أريد التحدث عنه. يجب أن أبدأ بملاحظة أن معنى كلمة "يستهلك"، كما جاء فى قاموس أكسفورد الإنجليزى، هو "يحطم بواسطة، أو مثل النار، أو مرض سابق". و"المستهلك" إذًا، هو "الشخص الذى يبدد، أو يحطم، أو يستنفد". وتضمن كلمة الاستهلاك فى هذا الرأى القديم الواضح، الاعتلال، والمرض، والموت. وعلى أية حال، فى وقتنا الحاضر، نحن نُعرف أنفسنا بفخر ليس بوصفنا مواطنين، أو بوصفنا منتجين أو حتى بوصفنا أفردا، بقدر ما نُعرف أنفسنا بوصفنا مستهلكين. إننا ندافع بشدة عن حقوقنا كمستهلكين، بينما نترك حقوقنا كمواطنين تذبل وتضمحل. وبالفعل، يوجد الاستهلاك فى كل ما نعمل. لقد شيدنا حولنا اقتصادًا، ومجتمعًا، وما سيصبح قريبًا، عالمًا كاملاً ، ما كان يعتبر، فى وقت ما، شكلاً من أشكال التشويش العقلى. لكن، كيف حدث ذلك؟

لم يكن ظهور المجتمع الاستهلاكى حتميًا، ولا عرضيًا، لكنه نتج عن التقاء أربع قوى: مجموعة من الأفكار تفيد أن الأرض هى ملكنا، وظهور المادية الحديثة، والمهارة التكنولوجية والسخاء غير العادى لأمريكا الشمالية، حيث تأسس لأول مرة نموذج الاستهلاك الموسع. وبشكل مباشر أكثر، فإن سلوكنا الاستهلاكى هو نتيجة إغواء الدعاية ، والوقوع فى شرك الائتمان السهل، والأسعار التى لا تنبئ عن حقيقة التكاليف الكاملة لما نستهلكه، والجهل بالمضمون الخطير لكثير مما نستهلكه، وانحلال المجتمع، والاستخفاف بالمستقبل، والفساد السياسى، وضمور الوسائل البديلة التى قد نزود بها أنفسنا. علاوة على ذلك، يطلب المجتمع المستهلك، أن تقوم التكنولوجيا، والتنظيمات، بدور الوسيط فى العلاقة بين الاتصال البشرى بالطبيعة، الذى كان فى وقت ما مباشرًا، ومتكررًا وعميقًا. لقد

تحركنا بأعداد كبيرة للداخل، تاركين الطبيعة التى بها قليل من تدخل البشر وتحكمهم، لتحل مكانها الطبيعة التى يتحكم فيها البشر بقدر كبير. واستبدلت، بشكل متزايد، الحيوانات البرية، التى كانت فى ما مضى تعتبر بمثابة المعلم والرفيق، بحيوانات مستأنسة معتمدة على الإنسان. وشعورنا بالواقع، الذى كان فيما مضى قد تشكل بتفاعلنا الحسى المعقد مع فصول السنة، والسماء، والغابة، والحياة البرية، والسافانا، والصحراء، والنهر، والبحر، وسماء الليل، أصبح بشكل متزايد، يتشكل بالتكنولوجيا، والواقع الاصطناعى. وأصبح، فى أحوال كثيرة، الفساد الحضرى، والفوضى، والقبح، هو القاعدة، والاستهلاك الجبرى، الذى ربما يكون شكلاً من أشكال الحزن، أو ربما دليلا على مجرد السأم، هو استجابة لحقيقة أننا معزولون، وغرباء فى عالم يتقلص، عالم كنا فيما مضى نطلق عليه بيتنا.

بما أن الحماقة هى عادة ما تكون تفسيرًا كافيًا للأخطاء البشرية، لذا لاضرورية هناك لنظريات المؤامرات التى تتطلب مهارة كبيرة، وهى بصفة عامة غير محتملة. وعلى أية حال، فى هذه الحالة، هناك اعتقاد قوى أن كليهما كان فعالاً. وبوضوح أكثر، نحن نتسم بالسذاجة التى جعلتنا ننقاد لأناس مثل أقطاب محلات لينكلون فيلين Lincolin Filene، وللمدير التنفيذى لجنرال موتورز، ألفريد سلون Alfred Slone، الذى تآمر لخلق نوع من البشر الذى يمكن استغلاله، والذين يمكن حتى أن يشعروا بفخر زائف فى عبوديتهم لهذه السلع. وقد قام برواية القصة بشكل جيد، كل من ثورشتين فيبلين Thorstein Veblen، وستيوارت إيوين Steward Ewen، ووليم ليتش William Leach، وآخرون، ولا حاجة هنا لإعادتها بالتفاصيل. والقصة فى جوهرها بسيطة. تضمن الخطوة الأولى خداع الناس، بالاعتقاد أن فكرة من يكونوا وما ملكوا هو شىء واحد. الخطوة الثانية، حرمان الناس من الوسائل البديلة، وهى غالبًا الوسائل التعاونية، التى قد يحققون عن طريقها، الحاجات الأساسية، ويحصلون على الخدمات الأساسية. إن قيام مؤسسة جنرال موتورز بالتآمر بتحطيم أنظمة السكك الحديدية الخفيفة فى كل مكان فى الولايات المتحدة على سبيل المثال، ليس له علاقة بالأسواق أو

بخيارات الجمهور، لكن له علاقة بالاتفاقات الخلفية التى تستهدف القضاء على آى منافسة لسوق السيارات . الخطوة الثالثة، جعل أكبر عدد ممكن من الناس مستهلكين على الرغم منهم، بمعنى آخر جعلهم مدمنين، وذلك بمطاردتهم يوميًا بالإعلانات. الخطوة الرابعة تتطلب أن يُضفى على النظام كله صبغة قانونية، عن طريق شراء عدة أجيال من السياسيين والمحامين. الخطوة الأخيرة، الحصول على مباركة رجال الاقتصاد، وإعلانهم أن الجشع، والسعى وراء المصالح الشخصية، هما فى الواقع أشياء منطقية. وهذا يعنى ضمنيًا، أن عدم التبذير، والاهتمام بالآخرين وبعد النظر، وإنكار الذات هى أفكار قديمة وغير منطقية. إذا جمعنا كل ذلك، سنصل إلى المراد: المستهلك هو كائن داخل الأماكن المغلقة، يسعى إلى المتعة، وقد تأقلم مع الإضاءة الصناعية وغير قادر على التفريق بين "هذا هو الشىء الحقيقى"، كما فى إعلانات كوكاكولا، وبين الشىء الحقيقى فعلاً.

هل نحن نستهلك كثيرا؟ بالتأكيد نحن نفعل ذلك! ويقول رجل الأعمال والاقتصاد بول هوكين Paul Hawken:

> فى المتوسط، وبشكل مباشر أو غير مباشر، يستخدم الأمريكيون، الذين لهم أكبر متطلبات مادية فى العالم، ١٢٥رطلا يوميًا من المواد الاستهلاكية، أو حوالى٢٣ طنا سنويًا... يهدر الأمريكيون سنويًا أكثر من مليون رطل للفرد، ويشمل ذلك: ٣,٥ بليون رطلاً من السجاد، و ٢٥بليون رطلاً من ثانى أكسيد الكربون، و ٦ بليون رطلاً من البوليسترين. ومحليًا، نحن نهدر ٢٨ بليون رطلاً من الطعام، و٣٠٠ بليون رطلاً من الكيماويات العضوية وغير العضوية المستخدمة فى التصنيع والمعالجة، و٧٠٠ بليون رطلاً من المخلفات الخطيرة المتولدة عن الإنتاج الكيميائى... و يتجاوز إجمالى المخلفات فى الولايات المتحدة ، باستثناء مياه الصرف، ٥٠ تريليون رطلاً سنويًا... يتولد عن كل ١٠٠ رطل من الإنتاج الذى نصنعه فى الولايات المتحدة، على الأقل ٣,٢٠٠ رطلاً من

المخلفات. وفى خلال عقد من الزمان، تم تحويل ٥٠٠
تريليون رطلاً من الجزيئات إلى مواد صلبة، وسوائل وغازات
غير منتجة

هل يضيف الاستهلاك الجبرى إلى نوعية حياتنا؟ وبدون أى تواضع، فإن الإجابة هى لا. هل يشبع هذا رغباتنا الدفينة؟ الإجابة لا، وليس المقصود أن يفعل ذلك. على العكس، الاقتصاد الاستهلاكى مصمم لمضاعفة عدم رضانا، ومن اعتمادنا عليه. وكما يقول العالم النفسى بول واشتل Paul Wachtel: "إن تأكيدنا الحالى على النمو، والإنتاجية، هو أساسًا مرتبط بالتدهور فى الأصل. وقد سعينا من أجل مواجهة الوحدة، والقابلية للتأثر، نتيجة الحرمان فى المجتمع الشامل، إلى كبح جماح هذه القابلية بتملكنا للأشياء.

هل نشعر بالذنب تجاه الشراهة، والجشع، والشهوة، والفخر، والحسد، والكسل التى تدفعنا إلى الإدمان؟ القليل منا قد يشعر بذلك، ولكن على ما أعتقد، يستهلك معظمنا بدون تفكير، ثم يشعر بأنه مثقل بامتلاك أشياء كثيرة. إن رد فعلنا النمطى هو بيع الأغراض التى لا نحتاج إليها، ثم نذهب إلى المركز التجارى للتسوق، والبدء فى الشراء من جديد. هل يمكن الاحتفاظ بمستوى الاستهلاك نفسه فى الولايات المتحدة لكل الـ ٥,٨ بليون نسمة يعيشون الآن على الأرض؟ لا أظن ذلك. فى إحدى التقديرات، يتطلب تحقيق ذلك لسكان العالم الحاليين فقط، موارد كوكبين إضافيين مثل الأرض.

إذا كانت هناك صفقة يمكن أن نطلق عليها صفقة سيئة، فهى أنه من أجل مقدار من الحساء، تنازلنا عن جزء كبير من حقنا بالميلاد فى الارتباط بعضنا ببعض، وبالأماكن التى نعيش فيها، بالإضافة إلى تنازلنا عن جزء لا بأس به من كفاءتنا العملية، وذكائنا، وصحتنا، وتماسك مجتمعنا، وراحة بالنا، وقدرتنا على المواطنة والجيرة. ويمكن لأولادنا، المستهلكين تحت التدريب، التعرف على العلامات التجارية لأكثر من ألف مؤسسة، لكن لا يستطيعون التعرف إلا على فقط عشرات النباتات والحيوانات فى منطقتهم. ونتيجة لذلك، فهم فى خطر العيش حياة غير كاملة ومشتتة. ونحن نستهلك، غالبًا عن جهل، المواد الكيميائية

مثل، إترازين، والكلور فى رقائق الذرة التى نتناولها، والفورمالدهايد فى خشب الأبلاكاج وفى الألواح، وبيركلوروثيلين فى تنظيف ملابسنا بالبخار. وربما يكون هناك ما يقرب من خمسمائة مادة كيميائية مركبة أخرى، أصبحت جزءًا من الخلايا الدهنية، تؤثر على صحتنا وسلوكنا، بطريقة يصعب علينا فهمها. والمناظر الطبيعية الريفية، التى كانت فيما مضى يملؤها بالسحر والصحة، تذبل الآن من جراء التنمية الزائدة، وردم الأراضى الخربة المستغنى عنها، وتعدد الطرق السريعة، والمناجم. وقد دمرت السيارة المدن، مهد الفنون المدنية، والمواطنة، والكياسة، وأصبح الموت، بسبب الاستهلاك الزائد، هو نتيجة اختيار الطريقة الأمريكية للحياة، وشهادات الوفاة بها قائمة من الأمراض، منها السرطان، والبدانة، وأمراض القلب. ويقتل بعض أولادنا بعضهم البعض بسبب حذاء ماركة نايك، أو سترة تحمل علامة NFL وفى كل عام يموت عشرات الألوف على الطرق السريعة، وهم يحاولون استهلاك المسافة بقطعها فى وقت أقل. ولكى نحمى "حقنا" فى استهلاك بترول دولة أخرى، أعلنا أننا مستعدون لأن نحرق الكوكب بأكمله. وباختصار، فلقد خلقنا ثقافة تستهلك كل شىء فى طريقها، بما فى ذلك مستقبل أولادنا. إنها حقا نوع من الغش والتدليس - لا تفى باحتياجاتنا الأساسية للانتماء، والسكينة، و الأصالة.

"يجب" كما يقول ويندل بيرى Wendell Berry "أن نحطم يوميًا جسد الكون، ونريق دمه. وعندما نقوم بذلك بمعرفة، وبحب، وبمهارة، وتبجيل، فإن ذلك يكون قربانًا مقدسًا. ولكن عندما نقوم بذلك بجهل، وبجشع، وبطريقة خرقاء وتدميرية، فإن ذلك يكون انتهاكًا للقدسية"(٨). هل يمكن أن يتحول استخدامنا للعالم من التدنيس إلى التقديس؟ بمعنى آخر، هل من الممكن خلق مجتمع يعيش حدود إمكاناته البيئية - لا يأخذ أكثر من احتياجاته، ويستبدل ما يأخذه، ولا يستنفذ سواء رأسماله الطبيعى أو أناسه - مجتمعًا قويًا بيئيًا، وأيضًا قويًا بشريًا؟

الخصائص العامة لهذا المجتمع معروفة لدينا الآن. أولا، مجتمع قوى، قد يدار بضوء الشمس الحالى، وليس بالشمس المشرقة القديمة المخزنة فى وقود من بقايا حيوانات متحجرة. مجتمع تعكس فيه الأسعار، كما يقول هنرى دافيد ثورو

Henry David Thoreau "مقدار الحياة المستبدلة مقابل شىء ما"، بمعنى التكاليف الكاملة للأشياء، مجتمع لن يقوم بمجرد إعادة تدوير المخلفات، لكن بالتخلص من مفهوم المخلفات نفسها. وحيث إن ، وكما يقول ألدو ليوبولد Aldo Leopold "القانون الأول للإصلاح الذكى، هو الاحتفاظ بكل الأسعار" فإن المجتمع القوى هو الذى يقوم بحماية كل من التنوع البيولوجى، والتنوع الثقافى"(٩). ويظهر هذا المجتمع المنطق المتأصل فيما يسمى ديناميكيات النظام، والتى تتعلق بالطريقة التى تتوافق بها الأشياء مع بعضها، فى أنماط متناغمة على مدى فترات طويلة من الزمن. يجب أن تعكس قوانين هذا المجتمع، ومؤسساته، وعاداته، وعيًا بالعلاقات المترابطة، وبالنمو المتضاعف، وأهمية ردود الفعل، وقيمة الوقت، وبذلك يصبح مجتمعًا أكثر ذكاء وأكثر مرونة ـ مجتمعًا أكثر خبرة بيئيًا من المجتمع الذى نعيش فيه الآن. كما سيكون أيضًا مجتمعًا أكثر مادية، بمعنى أن يقدر مواطنوه كل المواد، تقديرًا مرتفعًا جدًا يصعب معه معاملتها بشكل عرضى أو بعدم مبالاة. و يجب أن يكون الناس فى هذا المجتمع على قدر كاف من التعليم، لكى يكونوا أكثر قدرة على عمل الأشياء وإصلاحها، وعلى إنتاج طعامهم. وبذلك يفهمون المصطلحات التى تم تزويدهم بها بشكل تام، أكثر مما يفعل أغلبنا اليوم.

وليس هناك حجة قوية يمكن أن نسوقها ضد هذا المجتمع ـ مما يدفعنا للتعجب لماذا كنا متوانين فى عمل ما ستراه الأجيال القادمة مجرد تقارب واضح من المصلحة الشخصية والأخلاق. بالتأكيد ليس هذا بسبب نقص الحبر المستخدم، أو قلة المؤتمرات المقامة فى أماكن غريبة، أو نقص البلاغة الداحضة. لكن لأن، فى معظم الوقت بالنسبة لأغلبنا، من النادر ما كان هناك تأثير عميق للمواعظ التى تهدف إلى جعلنا نشعر بالذنب بشأن استهلاكنا، والسبب حسب اعتقادى، يرجع لحقيقة أن خبرتنا بالجمال بكل أشكاله تدفعنا للعمل بطريقة أكثر اتساقًا وعمقًا، أكثر مما تدفعنا المناظرة الفكرية، أو اللجوء المجرد للواجب، أو حتى للخوف.

المشكلة هى أننا غالبًا لا نرى القبح الحقيقى لاقتصاد الاستهلاك، ولذلك لا نرى أن هناك ضرورة لفعل أى شىء حيال ذلك. وما يوهن إدراكنا أن هناك

آساسا خطآ ما، هو المسافة التى توجد بين المراكز التجارية للتسوق والأنشطة الأخرى المرتبطة بها من المناجم، والآبار، والمزارع، والمؤسسات، والمصانع، والنفايات السامة، وردم الأراضى. وحتى إذا كان قبح هذا النظام واضحًا للعين، فإنه يخفى هذا القبح عن عقولنا، بتعقيده الشديد الذى يجعل من الصعب إدراك الأسباب والنتائج. فسحابة من الأرقام المجردة تحجبها تلك الأرقام التى تقيس خطايانا بأجزاء من البليون، كما تقيس التناقص فى الظلم عبر العقود والقرون. إن قبح هذا النظام تغطيه أيديولوجية التقدم، التى تحول معظم فشلنا البشع إلى انتصارات مغلقة بطبقة من الكروم.

هناك نماذج من عالم أكثر شفافية وجمالاً، حيث تتوفر وسائل أفضل للتزود بالطعام، وبالألياف، وبالمواد، وبالمأوى، وبالطاقة، وحيث يمكن العيش فى الطبيعة الخاصة بنا. خلال الـ ٣,٨ بليون عام الماضية، كانت الحياة تقوم بتصميم استراتيجيات، ومواد ووسائل وتطويرها لتحقيق حياة أفضل على الأرض. والنتيجة، هى قائمة من التصميمات الحكيمة، التى هى أعلى بكثير من تصميمات العصر الصناعى. وهذه الحكمة قد تكون دليلنا عند إنشاء مزارع تقوم بوظائف البرارى نفسها، والغابات، وتشمل أنظمة مياه الصرف على نموذج الأراضى الخصبة الطبيعية، وتشيد مبانيًا تصبح رأسمال طبيعيًا على غرار الأشجار، وأنظمة تصنيع تحاكى العمليات البيئية، وتقنيات ذات كفاءة تفوق أفضل تقنياتنا الصناعية، وعمليات كيميائية تتم بأمان، وببراعة شديدة، واقتصاديات تتوافق داخل حدودها البيئية(١٠). وتزود الطبيعة الباحثين من ذوى الفطنة، بتعليمات عن مدى حدود، إمكانياتنا وآفاقها. إنها المعيار النهائى الذى نقيس عليه استخدامنا للعالم.

إن التصميم، كما يقول المهندس بيل ماك دونو Bill McDonough، هو أول دليل على نية البشر. وكان القصد من وراء تصميم اقتصاد جبرى للاستهلاك، هو تحرير الفرد، من المجتمع والقيود المادية، والسيطرة التامة على الطبيعة، وبذلك يتم توسيع المملكة البشرية إلى حدها الأقصى. ولقد افترض معماريو العالم الحديث: رنيه ديكارت Rene Descarte، وجاليليوGalileleo، وسير إسحق نيوتن

Sir Isaac Newton، وأدام سميث Adam Smith، أن الطبيعة، مثل الماكينة، بدون حدود، وافترضوا أن البشر، بالمثل، ماكينة ولاحد لرغباتهم. فأصبح الإفراط، طبقًا لهذه الافتراضات، هو الخاصية التى يتم بها تعريف الاقتصاد الحديث، ودليلاً على الإخفاقات فى التصميم، التى تدفعنا إلى استخدام الكثير جدًا من الطاقة المتولدة من البقايا المتحجرة، والكثير جدًا من المواد، وأن نصنع موادًا أكثر مما نستطيع استخدامها استخدامًا جيدًا، حتى لو كان لنا مائة حياة زيادة من حياة البشر.

وتظهر استراتيجية تصميم مختلفة، إذا أردنا بناء مجتمعات قادرة على التحمل والاستمرار، وإذا بدأنا بمعرفة أن العالم معقد بيئيا، وأن الطبيعة فى الحقيقة لها حدود، وأن صحتنا وصحة العالم الطبيعى مرتبطان بشكل سرمدى، وأننا نحتاج لمجتمعات متماسكة، وأن البشر قادرون على تجاوز أنانيتهم. ومن أجل تصميم مجتمع أفضل، ومجتمعات صحية أكثر، يقول فاكلاف هافيل Vaclav Havel، يجب أن نستقى معاييرنا من العالم الطبيعى غير مبالين بأى سخرية، ونعيد التأكيد على شرعيته المرفوضة. يجب أن نحترم، بتواضع الحكماء، روابط هذا العالم الطبيعى، والغموض الذى يقبع وراءه، مع الاعتراف بأن هناك شيئًا ما فى نظام الكون يتجاوز بكل وضوح كل مكانتنا"(١١).

يتطلب استقاء معاييرنا من العالم الطبيعى، أولا: العمل بطرق تتوافق مع أنماط أكبر من الانسجام، والصحة، وخلق مجتمعات تتوافق داخل الحدود الطبيعية، وطبقًا لمنطقة كل مجتمع. وعلى مقياس أكبر، يجب حث الإرادة السياسية لخلق حضارة توازن إجمالى أفعالنا مع الدورات الكبرى للأرض. وعندما نعقد النية على ذلك فعلاً، فسيعنى التصميم بكل مقاييسه ليس فقط صنع الأشياء، بل بالأحرى، البراعة الفائقة فى صنع أشياء لتتوافق داخل سياقها البيئى، والاجتماعى، والتاريخى. ويركز التصميم على العقلانية بمعناها الواسع:عطاء الأولوية لمقاصدنا الحكيمة، وليس لمهارة أساليبنا. وكما يحث الأطباء بعدم القيام بما من شأنه الإضرار بأنفسنا، كذلك يهدف ممارسو التصميم البيئى، إلى عدم التسبب فى أى قبح، سواء كان بشريا أو بيئيا، فى أى

مكان، أو فى أى وقت لاحق. وعندما نقوم بعمل التصميم الصحيح، سيكون هناك تأثير مضاعف من شأنه أن يعزز النظام الجيد، وتجانس النمط الأكبر. أما إذا كان التصميم خاطئا، فسيضاعف من التكلفة، والمرض، والتنافر.

وللتصميم البيئى قواعد ومعايير، مثله فى ذلك مثل أى حقل آخر من حقول المعرفة التطبيقية. أولا، التصميم البيئى هو عملية بيئية تهدف إلى تشجيع عودة السكان المحليين، عن طريق بناء روابط بين الناس بعضهم ببعض، وبين الناس والبيئة فى منطقتهم، وبين الناس وتاريخهم. وبالمقارنة بالتصميم الهندسى الذى يهدف إلى خلق مرونة عن طريق الإطناب والطرق المتعددة الأخرى، نجد أن التصميم البيئى يعمل ضد الفردية والتشتت، والإغراق المتأصل فى الاقتصاد الاستهلاكى، باستعادة الروابط على مستوى المجتمع. وتبدأ عملية التصميم بأسئلة مثل الأسئلة التالية: كيف يتوافق العمل المقترح مع بيئة المكان بمرور الوقت؟ هل يحتفظ بالثروة داخل المجتمع؟ هل يساعد الناس على أن يصبحوا أكثر كفاءة؟ ما هى التكاليف الحقيقية، ومن الذى يدفعها؟ ما الذى يجب عمله من أجل الأطفال، أو ما هى التوقعات بالنسبة لأطفالنا؟

إن المجاورات، والمجتمعات ذات التصميم الجيد، هى تلك الأماكن التى يحتاج الناس فيها إلى بعضهم البعض، لذا يجب أن يتخلصوا من اختلافاتهم، ويتحملوا بعضهم، وإذا لزم الأمر، يسامحوا بعضهم. هناك تصميمات فى الهندسة المعمارية تضمن توثيق هذا الارتباط، مثل شرفات أمامية فى مواجهة الشارع الرئيسى، وحدائق خاصة بالمنطقة، والفراغات المدنية، والشوارع الصديقة للمشاة، والمقاهى المقامة على أرصفة الشوارع، ومبان تسع عددًا كبيرًا من السكان(١٢). هناك اقتصاد خاص بالارتباط يتضمن الأعمال التى يملكها أصحاب عمل محليون، والتى تقوم بالإصلاح ، وبإعادة الاستخدام، وتعاونيات تقوم بعمليات الشراء، ومزارع يديرها ملاك وليس تعاونيات، وأسواق عامة، وحدائق حضرية ـ أى أنماط من المعيشة تتطلب معرفة تفصيلية ببيئة أماكن محددة. وتظهر هذه النوعية من البيئة فى الأراضى ذات الاستخدام الجيد، وفى الحواجز الثقافية والسياسية التى تقام ضد فقدان الأراضى الخصبة القيمة، والغابات، وشريط الأراضى بضفة النهر، وموطن الكائنات.

ويؤدى التصميم الكفء بيئيًا إلى نتائج معدة خصيصًا لتناسب بيئات مناطق معينة. أو، كما يقول العالم البيولوجى جون تود John Todd "حلول آنيقة مبنية على تفرد المكان". ويمثل التصميم الجيد تأثير الجهد طويل الأجل للمجتمعات لكى "تتوافق أكثر وأكثر" داخل أماكن معينة، وطبيعة خاصة. وفى كلمات جاكيتا هوكس Jacquetta Hawkes إنها مثل "الغزل المتأنى" بين الناس وأماكنهم(١٣). هناك ارتباط تاريخى يتضمن الذكريات التى تربطنا بأماكن، وبأشخاص، وبتقاليد خاصة - أى أحواض سباحة، وممرات العشاق، وأراضى التخييم، والغابات، والحقول الزراعية، والمدارس، والمواقع التاريخية، والمدافن.

والدرجة التى يبدو فيها الارتباط بعيدًا عن واقعنا الحالى، هى مقياس ما فقدناه عندما جعلنا من الاستهلاك شيئا سريعا، ورخيصا، وسهلا. والاستهلاك الجبرى هو، فى الواقع، عملية تناسبية مع تشتيت الناس، وتجزئة المجتمع، ومدى بعد المسافة العاطفية القائمة بين الناس وأماكنهم. إنه مقياس لعدم الكفاءة البشرية التى لا تتطلب مهارة، ولا مالاً كافًا، بخلاف ملكية بطاقة اعتماد.

الارتباط، على الجانب الآخر، يتطلب القدرة على التحدث، وحل الصراعات، وتحمل الخلافات، وأداء واجبات المواطن، والتذكر، وإعادة التذكر. إنه يتطلب معرفة التاريخ الطبيعى لمكان ما، والبراعة العملية، ومهارات هذا المكان المحدد وحرفه. إنه يخلق جذورًا، كما يخلق تقاليد وهوية مستقرة فى مكان ما.

والتأنى الجاد هو القاعدة الثانية للتصميم البيئى، ويتأتى ذلك بوضع حدود لسرعة حركة المواد، والمواصلات، والمال، والمعلومات، وتعبير المثل القديم، فى العجلة الندامة، عن حس التصميم البيئى الجيد. فزيادة السرعة غالبًا ما ينتج عنها زيادة فى الاستهلاك، وبالتالى توالد نفايات أكثر، وفوضى أكبر، وقبح زائد. وعلى النقيض، يهدف التصميم الجيد إلى استخدام المواد بحرص وتأنٍ. ويضع حدودًا لسرعة المواصلات، للمحافظة على المجتمعات، وعلى الصحة العقلية للفرد(١٤). وللاستفادة مما يسميه رجال الاقتصاد التأثير المضاعف، فإنه يبطئ من المعدل الذى يستبدل به المال مقابل الخدمات والبضائع المستوردة من الخارج، مما يساعد على تكوين الاقتصاد المحلى(١٥). ويعترف التصميم الجيد بحقيقة أنه

وراء أى بداية، بطيئة نسبيًا فى السرعة، تكمن الحركة السريعة للمعلومات، التى تعمل ضد بزوغ المعرفة، التى تتطلب وقتًا كافيًا يسمح للناس بإعادة التفكير فى كثير من الأمور، وفى اختبار النتائج، وإذا لزم الأمر، تسمح لتغير مداركهم وسلوكهم. وسرعة العمل بحكمة حقيقية، والتى تتطلب التكامل بين كثير من مستويات المعرفة، مازالت أبطأ إلى حد ما. ويمكن للمعرفة، لكن ذلك فقط على مدى أجيال، ومن خلال المرور بعمليات التجارب بين الصواب والخطأ، يمكن أن تسفر فى النهاية عن تصميم حكيم لكيفية الحياة الرغدة فى حدود موارد مكان ما وأصوله. ويهدف التصميم الجيد إلى مضاهاة المتطلبات المادية لمجتمع ما، مع التزايد المستمر على مدار الساعة، لأعمال الإحسان، ولحسن الجيرة، التى هى دائمًا آبطأ من تلك المتاحة تكنولوجيًا.

والاستهلاك الزائد، على الجانب الآخر، هو بمقياس كبير مرتبط بالسرعة. فتتحرك الدراجة، على سبيل المثال، بسرعة ٢٠ ميلا فى الساعة، وتتطلب فقط طاقة راكب الدراجة. وتحرق السيارة، التى تسير بسرعة ٥٥ ميلا فى الساعة، إلى ٢ جالون من الوقود فى الساعة، وتحرق طائرة٧٤٧، تطير فى رحلة طيران عبر الأطلنطى بين نيويورك ولندن بسرعة ٥٥٠ ميل فى الساعة لمدة ٦ساعات،١٠٠جالون من الوقود النفاث لكل راكب. والفرق ليس فقط فى الوقود المستهلك، لكن أيضًا فى كافة الأجهزة المساعدة اللازمة لزيادة سرعة السفر. فتتطلب الدراجة دعمًا بسيطًا من البنية التحتية. وعلى النقيض، يتطلب نظام خطوط الطيران، بنية تحتية ضخمة تشمل مطارات، وطرقًا، وإنشاءات، ومرافق، وتصنيعًا، وتسهيلات فى الإصلاحات، ونظام تحكم فى حركة مرور الطيران الجوى، ومناجم، وآبار، ومعامل تكرير، وبنوكًا، وصناعات مستلزمات السفر التى يحتاجها المستهلك.

ويستطيع التصميم البيئى، إذا نحن استخدمنا الوقت استخدامًا جيدًا، وبجدية كافية، إعادة تهيئة السرعة لتتناسب وإحساس الناس بآداب المجتمع. ويعمل المجتمع الاستهلاكى بشكل أفضل، عندما يقوم الناس بعملية الشراء بدون تروٍ، مع التوقع أن تتحقق رغباتهم فوريًا. وقد يستطيع التصميم البيئى، بتهدئة سرعة

تدفق المواد، والمال، والنقل، والمعلومات، أن يقدم دروسًا كبيرة تتعلق بنظام المعيشة فى حدود الموارد المالية للفرد، وتأجيل مطلب الشعور الفورى بالرضا، وأهمية عدم الإسراف، وفضيلة عدم التملك.

القاعدة الثالثة للتصميم البيئى هى التخلص من مفهوم المخلفات، وإحداث تحول فى علاقتنا بالعالم المادى. يستخدم الاقتصاد الاستهلاكى، ويتخلص من كميات ضخمة من المواد من ردم الأراضى، ومن الهواء، ومن الماء. ونتيجة لذلك، فإن السياسة البيئية هى غالبًا لعبة الأصداف التى تنتقل فيها المخلفات من وسيط لآخر. علاوة على ذلك، ينتج عن الإهمال فى صنع المواد واستخدامها، الانتشار العالمى لحوالى ٧٠,٠٠٠ مادة كيميائية مُخلقة، تحملها الرياح، والماء، إلى أركان الأرض الأربعة.

يتطلب التصميم البيئى مرتبة أعلى من الكفاءة فى صناعة المواد واستخدامها، بوضوح أكثر عما هو فى الاقتصاديات الصناعية، ثم فى النهاية إعادة استخدام هذه المواد. وليس هناك، من وجهة النظر البيئية، مخلفات؛ فكل المواد هى "غذاء" لعمليات أخرى، والتصميم البيئى هو فن ربط المواد فى دورات، وبذلك نتفادى مشكلة الاستخدام، ومشكلة التخلص من المواد. وطبقًا لذلك فإن الطبيعة تضرب لنا المثل فى تصنيع المواد، فإن لم تفعل، فهناك أسباب ترجع للتطور يجب أن يحتذى بها الإنسان. أما إذا اضطر الإنسان، فعليه أن يفعل ذلك فى أضيق الحدود، ويكون ما يصنعه قابلاً للانحلال البيولوجى، وبمعنى آخر مثلما يتم بتصنيع الكيمياء فى الطبيعة. وتقوم الطبيعة بتصنع المواد الحية غالبًا من ضوء الشمس والكربون، وكذلك يجب أن نفعل نحن. ولا تخلط الطبيعة أشياء مثل الكلورين مع بيولوجيا الثدييات، ولا يجب أن نفعل نحن ذلك. وتخلق كل ما هو جديد ببطء، وعلى مقياس يمكن التعامل معه، وكذلك يجب أن نفعل نحن.

يقوم الاقتصاد، الذى يأخذ التصميم بشكل جدى، بتدبر تدفق المواد، بحيث تتم أكبر الاستفادة من إعادة استخدام، وإعادة تدوير، هذه المواد وإصلاحها وتجديدها، ويقوم أيضًا بالتخلص من المخلفات، وذلك بإلزام المنتجين بإعادة منتجاتهم مرة أخرى للمصنع، وللتفكيك، ثم اعادة التصنيع. وذلك يشكل الفرق

بين ما يسميه المعمارى بيل ماك دونو Bill McDonough منتجات الخدمة ومنتجات الاستهلاك. فنحن، على سبيل المثال، لا نستهلك السجاد، بل نستخدمه ولكننا نتخلص منه كمخلفات عندما تنتهى مدة صلاحيته، ويمكن أن نعيده إلى المُصنع لإعادة صنعه فى شكل منتج جديد. وفى أوروبا، يطبق هذا المفهوم على المذيبات، والسيارات، ويجب أن يصبح روتينًا لكل منتجات الخدمة المدون عليها بالخطأ "سلع معمرة".

القاعدة الرابعة هى أن للتصميم البيئى على كل المستويات، علاقة بهيكل النظام، وليس معامل التغيير. كما يركز التصميم البيئى على النظام وعلى "أنماط مرتبط بعضها ببعض". وكما يقول عالم الأنثروبولوجى جريجورى باتسون Grego- ry Bateson، "عندما نقوم بعمل الهيكل بشكل صحيح، فسوف تقع "النتيجة المرغوبة، بشكل أو بآخر، أوتوماتيكيا دون أى تدخل من الإنسان[١٦]. وفى مجتمعات الأميش، على سبيل المثال، يقلل الحصان من الجهد الذى يبذله المزارعون، حيث يوفر النقل، والقوة الميكانيكية فى أعمال المزارع، ونصف القطر المؤثرة لعربة يجرها حصان هى ٨ أميال وقدرة الجذب منخفضة. والنتيجة، هيكل نظام مبنى حول قدرة الحصان، وهذا من شأنه الحد من متاعب الإنسان، ومن التكاليف الاقتصادية، ومن الاستهلاك، ومن الاعتماد على الموارد الخارجية، ومن الضرر البيئى، بينما يتيح وقتًا للاستقرار البشرى، ويكون مصدرًا للأسمدة، وراحة البال التى تصاحب الإيقاع البطىء للحياة. ويعمل الحصان، فى ثقافة الأميش، بطاقة مماثلة للطاقة الشمسية، ويجدد طاقته ذاتيًا. وهو متعدد الوظائف ولا يحتاج إلى قواعد وتنظيمات مستمرة من جانب الإنسان.

ونحن نتوقع فى ثقافتنا الكبرى أن تقوم القوانين واللوائح بأداء الوظيفة نفسها، لكن ذلك نادرًا ما يحدث. والسبب أننا، بدلاً من أن نتعامل مع هيكل الأنظمة التى تسبب المشكلات فى المقام الأول، نميل إلى العبث بمعاملات مشكلاتنا - أى المعدلات التى تصبح عندها الأشياء أسوأ، أو الدرجة المسموح عندها أن نسمم بعضنا البعض. وقد هدف قانون الهواء النظيف لعام١٩٧٠، على سبيل المثال، إلى خفض التلوث من انبعاث السيارات، بتركيب محول حفاز فى كل

سيارة ـ هذا هو حل معاملى. وفيما بعد، تقريبًا بعد أربعة عقود، ومع زيادة عدد السيارات، وازدياد عدد الأميال التى تقطعها كل سيارة، وحتى مع تلوث أقل للسيارة، فإن نوعية الهواء لن تتحسن إلا بقدر ضئيل، وسيصبح المرور أسوأ من أى وقت مضى. وتتضمن التكاليف الحقيقية لهذا النظام، والتأثيرات الصحية والبيئية لتلوث الهواء، والتسرب النفطى، والأرواح التى تزهق فى حوادث السيارات، وانحطاط المجتمعات، ودعمًا ماليًا يقدر بثلاثمائة بليون دولار فى العام للسيارات، ومواقف انتظار السيارات، والوقود، وتشمل التكاليف العسكرية اللازمة لحماية مصادرنا من البترول المستورد، والتكاليف المستقبلية لتغيير المناخ. والنتيجة، نظام لا يمكن أن يعمل إلا بتكلفة عالية، وبشكل مدمر. وعلى النقيض، يجب أن يهدف الحل التصميمى لمشكلة المواصلات، إلى تغيير هيكل النظام بتقليل اعتمادنا على السيارة، عن طريق مزيج من خدمات السكك الحديدية السريعة، وقطارات المدن الخفيفة، وحارات الدراجات، وتصميم حضرى ذكى يقلل، فى المقام الأول، من الحاجة إلى المواصلات.

وينطبق المنطق نفسه على الهياكل التى تزودنا بالطعام، والطاقة، والمواد، والتخلص من المخلفات. ومعظم استهلاكنا، الذى يشمل استخدام عبوات زائدة وإضافة لمواد حافظة للطعام، تم تصميمه داخل النظام، لمقابلة متطلبات النقل لمسافات طويلة. ويرجع بعض استهلاكنا إلى أنظمة بالية مصممة للترويج لمزيد من الاستهلاك، ويكون البعض الآخر منها، كشراء أقفال ومسدسات، ضروريًا لمعادلة نقص الارتباط بين أفراد المجتمع، ونقص الثقة الراجعين بنسبة كبيرة إلى ثقافة الاستهلاك. وأيضًا البعض من استهلاكنا يمليه علينا الامتداد الحضرى الذى يؤدى إلى الاعتماد الزائد على السيارات. لقد أنشأنا، باختصار، هياكل ضخمة التكلفة، وشديدة التدمير، لكى تقوم بما كان يمكن أن نقوم به بشكل أفضل محليًا، وبتكلفة واستهلاك أقل بكثير. ويعنى إعادة تصميم هذه الهياكل تعلم كيف تعمل السياسات، وقوانين الضرائب، والقانون، وكيف يمكن جعلها تعمل فى تناسق ومرونة بيئية.

ودون أى قصد منا، خلقنا ثقافة عالمية للاستهلاك، والتى ربما تنتهى خلال العقود القليلة القادمة، وربما بعد ذلك بقليل. نحن نواجه خطر أن يجرفنا فيضان من الهمجية التى ضخمتها كوابيس علماء البيئة: الزيادة السكانية، ندرة الموارد، الفقر، المجاعة، المرض المفرط، التلوث، وتغير المناخ. وإعادة رسم طريقنا هو رد الفعل الوحيد الذى يمكن أن ينصفنا أمام أنفسنا، بصفتنا منتمين للجنس البشرى. وفى اعتقادى أن هذه العملية قد بدأت بالفعل، لكن الأمر يتطلب قيادة قوية، وخيالا واسعا وحكمة واعية، لكى نتعلم، وفى بعض الأوجه لإعادة التعلم، كيف نعيش فى العالم بكفاءة بيئية، وبتكنولوجية رائعة، وبعمق روحى. ولدينا نماذج لمجتمعات، وثقافات، وحضارات، قامت بذلك، والقليل منها استمر فى القيام بذلك. مازال هناك البعض الذى يعيش على الفطرة، ويعرفون أكثر مما يمكن أن نعرفه، فى وقت ما، عن الحياة النباتية، والحيوانية لمناطقهم، والذين بمرور الوقت، قاموا بإنشاء أنظمة إدارة للموارد التى تحد بشكل مؤثر من الاستهلاك(١٧). وهناك طوائف مثل الأميش، الذين يستمرون فى مقاومة الاقتصاد الاستهلاكى. لكن على الرغم من ذلك، تمكنوا من أن يعيشوا حياة مزدهرة ومقبولة. وهناك ممارسات قديمة، مثل فينج شوى feng shui، التى استرشد بها الصينيون لعدة قرون، للوصول لأفضل استخدامات الأراضى، وفى التصميم المعمارى. وهناك أدوات تحليلية جديدة قد تضع، بمرور الوقت، الأسس لعالم أفضل، مثل التحليل الأقل تكلفة للاستخدام النهائى، وأنظمة المعلومات الجغرافية، التى تساعدنا فى رؤية طريقنا بشكل أكثر وضوحًا. كما تظهر الآن أيضًا بعض مجالات المعرفة المتداخلة، مثل العمارة "الخضراء"، وعلم ترميم البيئة، والهندسة البيئية والتصميم الشمسى، والزراعة الدائمة، والبيئة الصناعية، والاقتصاد البيئى.

والمشكلة ليست مشكلة إمكانات، لكن مشكلة حوافز. ويجب، لكى نعيش على مستوى إمكاناتنا، أن نعرف أولاً، أنه من الممكن أن نعيش بشكل جيد دون استهلاك بهجة العالم، وبدون استهلاك ميراث أبنائنا. لكن يجب أن نستلهم العمل من الأمثلة التى نستطيع أن نراها، ونلمسها، ونختبرها. وقبل كل ذلك، فإن

هذا تحدٍ لكل المؤسسات التعليمية، على كل المستويات. سوف نحتاج مدارس، وكليات، وجامعات ويكون الحافز لهذه المؤسسات هو رؤية ذات مرتبة عالية من الجمال، أكثر وضوحًا من تلك الموجودة فى العالم الصناعى، أو تلك المحتمل حدوثها فى المستقبل. يجب أن تساعد هذه المؤسسات التعليمية فى التوسع فى الخيال البيئى، وتغرز فى الجيل القادم، الكفاءة العملية والفكرية، التى تحول تعليل النفس بالآمال، إلى أمل ممكن تحقيقه.

لقد جاءت فتاحة خطابات ستيوارت لى هدية، تجسيدا للمهارة، وللذكاء فى التصميم، وللكرم، وللاقتصاد. لم يستخدم ستيوارت فى صنعها أكثر من واحد على عشرة من لوح من الخشب، ولم يستخدم أدوات بخلاف مقشطة الخشب، وبعض ورق الصنفرة، وزيت بزر الكتان. والخشب نفسه منتج من ضوء الشمس والتربة، وهو رمز لهدايا أخرى آكبر. فقد هذه الفتاحة سيسبب لى حزنًا شديدًا، لأنها تحمل كثيرًا من الذكريات، والمعانى، ورؤيتها واستخدامها فى كل يوم، يذكرنى بستيوارت، ويجدد لى الدرس عن أهمية الحرفية، والإحسان، والاقتصاد الحقيقى. سأستخدمها لبعض الوقت، ثم فى يوم ما ستنتقل إلى شخص آخر.

الاستهلاك والعمل المنزلى

جاين سمايلى

عندما رأى الإنجليزيان، موريس بريكبيك وريتشارد فلور، مقاطعة إدوارد بولاية إيلينوى الأمريكية، فى عام ١٨١٧، ازدادت ثقتهم من أن العناية الإلهية قد خلقت هذه الأراضى الأمريكية لغرض محدد وهو أن تجعل من كل رجل إنجليزى لوردًا. لقد بدت لهم البرارى المرصعة بشجر البلوط، تمامًا مثل الحدائق التى تم زراعتها بعد جهد جهيد فى عزب الريف الإنجليزى، ولا ينقصها إلا بعض السدود، وبعض الأسوار، وبعض المنازل الكبيرة المبنية بالطوب، وبهذا تنتهى كل المشاكل البيئية الأولية وما يتبعها. ومع ذلك عندما بدأوا فى بناء مستوطناتهم فى مدينة البيون، واجه السكان مشكلة كانت موضع شكوى الأوربيين والأمريكيين خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، وهى مشكلة نقص الأيدى العاملة. كتب فلورFlower فى عام ١٨٢٥يقول: "لا يخفى على أحد أننا نحتاج لكثير من عمال الزراعة... وفى أمس الحاجة إلى خادمات من النساء"[1] ونحن أيضًا نشاركهم هذا المطلب. فالتاريخ الأمريكى بقدر ما هو تاريخ حروب، ومستوطنات، واستغلال، وصنع المال، بقدر ما هو أيضًا تاريخ البحث عن طرق لإنجاز العمل مع وجود هذا النقص الشديد فى الأيدى العاملة. وليست النزعة الاستهلاكية الأمريكية الحديثة مجرد نزعة استهلاكية للمتعة واللعب فقط، بل هى أيضًا نزعة استهلاكية للعمل المنزلى، وللعمل فى المزارع، والنقل، والعمالة الصناعية، والتشييد. وتختلف الثقافة الأمريكية عن ثقافات نصف الكرة الشرقى، وعن ثقافة أمريكا الجنوبية، فى مدى اضطرار الأمريكيين، الذين لديهم إمكانية العمل

بأنفسهم دون اللجوء إلى المساعدة، لإيجاد سبل أخرى لإنجاز عملهم غير تلك التى يوفرها المستأجرون الخاضعون لهم. وحيث إن هذا النمط من النزعة الاستهلاكية الأمريكية يهيمن الآن على العالم بأسره، فقد جاءت الحلول التى أتى بها الأمريكيون لحل مشكلة نقص العمالة، لتكون بمثابة نموذجًا للنزعة الاستهلاكية، لدرجة أن كل شخص تقريبًا، لديه جهاز تليفزيون، يرغب فى محاكاته. لقد وضعتنا، كما يقول البعض، وجهًا لوجه أمام القيود المطلقة للعالم الطبيعى.

إنه لمن المفيد، فى اعتقادى، أن نركز على الأعمال المنزلية. فى عام ١٨٤١، كتبت كاثرين بيتشر Catherine Beecher، مقالاً عن الاقتصاد المنزلى تقول فيه بصراحة: "إن رقم عدد النساء الشابات اللاتى تحطمت صحتهن قبل مضى السنوات الأولى القليلة من حياتهن الزوجية، قد يبدو غير معقول لشخص لم يبحث فى هذا الموضوع، ولن تجدى محاولة تصوير الحزن والإحباط والضيق الذى تشعر به معظم الأسر التى تكون فيها الزوجة والأم معتلة دائمًا(٢). تستمر بيتشر بعد هذه الملاحظة فى ذكر تفاصيل مهام ربة المنزل وهى، بالإضافة للإنجاب الذى يجعل الزوجة معتلة دائمًا، مهام كثيرة وشاقة، والمساعدة الوحيدة التى يمكن أن تقدمها بيتشر (فى واقع الأمر هى مساعدة مهمة) هى وسيلة لتنظيم هذه الوظائف وترتيبها، مثل صناعة الصابون، والصباغة، والتمريض، ورعاية الحيوان، والتى كانت آنذاك من مسئوليات ربة المنزل، بالإضافة إلى مهام الطهى والتنظيف المعروفة لنا اليوم. ولا تسدد بيتشر أى لكمات، لكنها تحذر القارئ أن كل امرأة يجب أن تكون مستعدة فى كل الأوقات لظهور معارضة لخططها وترتيباتها، وتحطيمها. والمرونة والمزاج الجيد هى من الضروريات الأولى لهذه الحياة الصعبة. ويلى ذلك مباشرة التهوية والتغذية الجيدة، والملابس الدافئة، وتجنب "المشروبات المنبهة". وبعبارة أخرى، كانت الحياة المنزلية مؤسسة، وكان على المرأة فى القرن التاسع عشر التدرب عليها، على نحو تدريب الرياضيين اليوم. وكانت العقوبة على عدم القيام بذلك هى المرض، أو حتى الموت.

ليس من الصعب أن نرى، إذا أجرينا تحليلاً لمتوسط يوم عمل المرأة، الأسباب وراء ذلك. أولاً هناك إشعال النيران. وقد كتبت سوزان ستراسر Susan Stresser فى كتابها لن يتم أبداًNever Done:

العناية المستمرة بالنار، مثل تحريك الجمر وإضافة الخشب، هو ما يجعلها دائمًا متقدة فى أفران الطوب أو المدفأة. فيجب شطر الأخشاب، وتقطيعها ونقلها للمنزل؛ وعادة ما يقطع الرجال والفتيان الأشجار، ولكن كان ذلك أيضًا من عمل المرأة. وكانت مهمة الطهى على تلك النيران مهمة خطيرة نظرًا للسخونة الشديدة. فعلى الرغم من أن أوانى الطهى كانت ذات مقابض طويلة، فإنه كان على الطهاة أن ينحنوا ويركعوا ليصلوا إلى اللهب. ويتطاير الرماد من نيران المطبخ الذى لا يوجد به ساتر، فيحترق الجلد، وتحترق الملابس، ويكون الأطفال الصغار عرضة للخطر وهم فى منازلهم(٣).

تستهلك العناية بالنيران قسطًا كبيرًا من يوم المرأة، على تقدير ستراسر، Strsser حوالى ثلاث أو أربع ساعات. وفى أواخر القرن التاسع عشر كانت المواقد والمدفأة، المصنوعة من الطوب قد تم استبدالها بمواقد من الحديد الزهر، وفيما بعد بالتدفئة المركزية، لكن مع ذلك كان مازال يجب إشعال النيران، والعناية بها. وصاحب التكنولوجيا الجديدة، الخطر الجديد الناتج عن التسمم بأول أكسيد الكربون. وتقتبس ستراسر من ملاحظة هارييت بيتشير ستو Harriet Beecher Stowe ما مفاده أن الفرن المحكم "فى الآلاف والآلاف من الحالات... قد أنقذ الناس من متطلبات بشرية أخرى، ووضع للأبد نهاية لأى احتياجات غير تلك الستة أقدام من الأرض الضيقة، وهى الملكية الوحيدة للإنسان التى لا يمكن للتصرف فيها(٤).

بمجرد إشعال النار يوضع الماء ليغلى بغرض الغسيل والتنظيف، بالإضافة إلى الطهى. ولقد قامت منظمة تحالف المزارعين فى ولاية كارولينا الشمالية، بعملية حسابية قدرت فيها أن إحدى العضوات، والتى لديها ينبوع ماء يبعد ستين ياردة عن منزلها، قد قطعت ما يقرب من ١٤٨إلى٢٢٠ ميلاً لنقل الماء لمنزلها من ست إلى عشر مرات كل يوم، وكان الجزء الشاق هو حمل دلاء مملوءة بالماء. وبمجرد

حملها إلى المنزل، يجب على ربة البيت أن تصب الماء وتسخنه، وتحمله هنا وهناك، وفى النهاية، تحمله خارج المنزل وتتخلص منه مرة أخرى. وعلى الرغم من أن ستراسر لم تحسب هذا الجزء من يوم المرأة التى تقضيه فى نقل المياه، فإن هذا يوضح لماذا كانت المرأة فى القرن التاسع عشر غالبًا ما تشكو من أنها تقضى حياتها كلها فى الذهاب إلى الآبار وينابيع الماء، ومصادر الماء الأخرى، وكان هناك بالطبع التفريغ والتنظيف اليومى للأوانى المنزلية.

وكان كل ذلك قبل أن تبدأ ربة المنزل فى عملها اليومى فى تنظيف المنزل، والغسيل، والطهى، ورعاية الأطفال.

وبعبارة أخرى، وعلى الرغم من أننا قد نعتز بالمنازل المشيدة على الطراز الفيكتورى التى نراها الآن بيننا، وأن البعض منا يعتبر محظوظًا لأنه يعيش فيها، فإننا لا نعيش الحياة نفسها التى عاشتها جداتنا داخل جدران هذه المنازل. ولقد بدا عملهن اليومى أكثر شبهًا بالعمل اليومى للنساء فى قرية هندية أكثر من كونه بالعمل اليومى لنساء اليوم.

ويبدو واضحا لى أن مشكلة الأيدى العاملة هذه كانت الموقف غير المعلن فى الخلافات التى أدت إلى الحرب الأهلية. كتبت هاريت بريتشر ستو بصراحة ووضوح عن هذه القضايا فى روايتها الحكيمة كوخ العم توم Uncle Tom's Cab-in فى عام ١٨٥١، بريتشر نفسها زوجة، وربة منزل، وأم لسبعة أطفال. فى روايتها تقارن بوضوح بين الحياة المنزلية لأسرة كلير، من نيو أورليانز، حيث ينتهى المطاف بتوم، بعد بيعه عبدًا بعيدًا عن منزله، فى ولاية كنتاكى وبين هؤلاء الذين ينتمون للفرع الشمالى، وتمثله ابنة العم أوفيليا، التى تأتى للجنوب للزيارة والمساعدة. والآنسة أوفيليا، التى كرست نفسها لتربية إخوتها وأخواتها، "كانت مثالاً حيًا للنظام، والالتزام والدقة. كانت فى احترام المواعيد فى دقة الساعة، وفى الالتزام كقطار السكة الحديدية؛ كانت تشعر "بالازدراء والكره لأى شخص يخالف ذلك"(٥). لقد عاشت خمسة وأربعين عامًا فى أحد مزارع نيو إنجلاند الأنيقة، حيث "تجلس ربة المنزل، فى ردائها الناصع البياض، تقوم بالحياكة بين بناتها وكأن لم يتم القيام بأى من الأعمال المنزلية أو كأنه لا يوجد هناك ما يجب القيام به".

لأنهم قد قاموا بالفعل بتلك الأعمال المنزلية "فى فترة سابقة منسية من اليوم" ـ تركت أوفيليا وراءها الاقتصاد فى الإنفاق، والنظام الخاص الذى عاشته فى نيو إنجلاند، لتأتى إلى تبذير نيو وورليانز ورفاهيتها(٦). على الرغم من أن ستو تبدو مولعة بأوفيليا، فإنها ركزت على نقطة أن حياة أوفيليا قد حدت من خياراتها وشخصيتها. فهى ليست فقط عذراء نيو إنجلاند المحرومة من الحب والحياة الأسرية الخاصة بها، ولكن كان أيضًا "معيار الحق لديها مرتفعًا جدًا، ويشمل الجميع. إنه فى غاية الدقة، ولا يسمح بتقديم إلا القليل من التنازلات وبسبب الضعف الإنسانى. وعلى الرغم من أنها تحاول الالتزام بهذا النظام البطولى، فإنها فى الواقع لم تفعل ذلك أبدًا، وبالطبع كانت مثقلة بشعور دائم ومزعج بالنقص ـ وقد ألقى ذلك بظلال شديدة، وبعض القتامة على الطابع الدينى الذى تتسم به(٧).

عندما جاءت أوفيليا لتعيش مع ابن عمها أوغسطين سانت كلير، وجدت نفسها موضع مقارنة صريحة مع اثنين من النساء المسئولات عن المنزل: زوجته، مارى، والطاهية دينا. كانت مارى معتلة الصحة ودائمة الشكوى بشأن صحتها، ودائمة الشكوى من عبيدها، خصوصًا مامى، التى من الواضح أنها طوال الوقت تدور على قدميها بلا رحمة، لتلبية احتياجات مارى المستمرة. والأهم هى دينا الطاهية، وهى "علمت نفسها ذاتيا". حاولت أوفيليا فى يومها الأول تنظيم مطبخ دينا، لكنها أُحبطت بسبب فشل دينا فى التعاون معها، وتمسكها بنظامها الخاص الفوضوى وعندما اشتكت لابن عمها، قال لها:

الآن تستطيع دينا أن تعد عشاء فاخرًا ـ من الحساء، والدواجن، والحلوى، والآيس كريم، وغير ذلك ـ وهى تخلق هذه الوجبة من حالة الفوضى، والظلام القاتم هناك بالأسفل، فى ذلك المطبخ. أعتقد أن قيامها بذلك يتسم بالسمو، لكن نحمد الله أنه ليس علينا أن نذهب إلى هناك ونشاهد الدخان والترتيبات، والتحضيرات اللازمة، وإلا فإننا لن نأكل المزيد!...

"لكن، أوغسطين، أنت لا تعرف كيف وجدت الأمور!"

"أحقًا لا أعرف؟ هل لا أعرف أن نشابة العجين تحت سريرها، ومبشرة جوزة الطيب فى جيبها مع التبغ ـ وآن هناك خمسة وستين طبقًا مختلفًا من السكر، واحد فى كل ركن من المنزل، وآنها تغسل الأطباق بفوطة العشاء فى يوم، وفى اليوم التالى بجزء من ثوب نسائى؟

لكن المحصلة النهائية أنها تحضر عشاء فاخرا، وتصنع قهوة رائعة، ويجب أن تحكمى عليها كما نحكم على المحاربين، ورجال الدولة والحكم، أى من خلال نجاحها."

"لكن ماذا عن المخلفات! ـ والمصروفات!"(٨)

الدرس الحقيقى الذى تتعلمه أوفيليا فى نيو أورلينز، هو درس القلب ـ أنه لا يمكنها إحداث تغيير فى حياة توبسى، وهى طفلة من العبيد تقوم على رعايتها، حتى تفتح لها قلبها، ولم يساعدها فى القيام بذلك معرفتها بالتدبير المنزلى، والدين اللذين تعلمتهما فى نيو إنجلاند. والمعنى من وراء رواية ستو واضح: التأكيد على أن الظروف المادية للحياة المنزلية فى كلتا المنطقتين، تخلق فضائل معينة، كما تخلق عجزًا معينًا، فى الشخصية، وهذه الشخصية هى التى تملى المصير، ولا تستطيع الشخصية أن تملك القدرة إلا إذا تم بذل قدر أكبر من الشجاعة والخيال، حتى يمكن تجاوز الظروف المادية.

وقد قام تشارلز ديكينز أيضًا فى روايتيه مذكرات أمريكية American Notes ومارتن تشزلويت Martin Chuzzlevit، بتدوين الظروف المحيطة بالمنطقة القومية الثالثة، أى الغرب. لم يكن أحد أكثر وضوحًا من ديكينز، من ناحية تأثير الهجرة الغربية على صحة المرأة الأمريكية العادية ورفاهيتها. ففى مذكرات أمريكية يقول: "لقد كان مشهدًا يُرثى له، رؤية سقوط واحدة من تلك العربات الخاصة بالمستوطنين فى حفرة عميقة، ومحور العجلة مكسور، والعجلة ملقاة جانب العربة، وقد ذهب الرجل بعيدًا لمسافة أميال، للبحث عن مساعدة، وتجلس المرأة بين أغراضها المنزلية المبعثرة، وطفل رضيع على صدرها. صورة للبؤس، والصبر الموهن للعزيمة"(٩) وعندما يصل مارتن تشزلويت إلى المكان (حول مدينة كايرو،

بولاية إلينوى) حيث يعتزم أن يستقر، لا يجد سوى المرض، والموت، والعبث، لاسيما بين النساء والأطفال.

والحقيقة هى أن الحياة المنزلية فى أمريكا فى القرن التاسع عشر، لم تكن للضعفاء. كانت النساء والأطفال فى الشمال والغرب، بكل معايير الرفاهية التى نعتبرها اليوم طبيعية، مثقلين بضرائب ضخمة، ويعانون من نسبة وفايات عالية بين السكان، ومن المسافات الشاسعة، ومن مشكلة العمالة الطاغية. وكان على النساء فى الشمال والغرب، ضرورة تزويد الأسرة بالطبقة العاملة، فى شكل أطفال. ومن هنا كان تعدد الإنجاب الذى يؤدى إلى وفاة المرأة فى سن مبكرة. أما فى الجنوب، فأوضاع العبيد فى المزارع معروفة جيدًا. وقد طالت مساوئ نظام العبودية المطلقة الأسياد أيضًا.

وكان الحل هو الاختراع، التكنولوجيا. فى أعقاب الحرب الأهلية، كان الحل يكمن فى وقود البقايا المتحجرة. وبالتأكيد نذكر كلنا ما درسناه فى المدرسة الابتدائية، عن المخترعين والاختراعات، والذى لم يكن ذا أهمية كبيرة بالنسبة لنا عندما كنا نبلغ من العمر ثمانى أو عشر سنوات - روبرت فولتون وسفينته البخارية، وإيلى ويتنى ومحلج القطن الخاص به، وآلة حصاد ماكورميك، وماكينة خياطة سنجر، والأخوين رايت، وهنرى فورد. هل كان هناك ما تم اختراعه فى مكان آخر فى العالم؟ بالطبع نعم، لكن هؤلاء المخترعين الأمريكيين العظماء كانوا مدفوعين بالحاجة، تلك الحاجة نفسها التى قدمت لنا الأدوات المنزلية الأثرية والرائعة، وأحيانًا الغامضة، التى نجدها اليوم فى المتاحف - مثل نازعة النوى من الكرز، ومقشره التفاح والذرة، والمقاعد الهزازة الغريبة (مجهزة لهز الطفل والحفاظ على يد الشخص حرة فى الوقت نفسه)، ومخفقة البيض. كل هذه الأدوات وآلاف غيرها صممت لتوفير الوقت، أو كعامل مساعد للمرأة للقيام بمهمتين فى الوقت نفسه. والحاجة إلى هذه الأدوات واضحة. إذا لم يكن هناك فئة من العمال يمكن الاعتماد عليها فى حمل المياه يومًا بعد يومًا طيلة حياة المرأة، إذًا كان لابد من استنباط بعض النظم الميكانيكية لنقل المياه، والقيام بكل شىء آخر. لم تكن هناك هذه الطبقة من العمال، كما أن التقدم التكنولوجى فى

الولايات المتحدة لم يقابل بالمقاومة، وتحطيم الماكينات، التى قوبل بها فى أوروبا. على آية حال، فقد كان لدى العمال، الذين تم استبدالهم بماكينات فى الولايات المتحدة، طموحات آكبر.

أعتقد، إذا كنا مازلنا نتذكر الحركة النسائية فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، أن هذه الحركة لها علاقة بقيام المرأة بالتصويت. لكن مُنظرى الحركة النسائية لديهم الكثير ليقولوه عن العمل المنزلى أيضًا، وكانوا يرغبون فى تخويل المرأة مهمة محددة ومعينة، وانبثقت الحركة النسائية نتيجة لمعرفتهم معرفة دقيقة، لكيفية قضاء معظم النساء لوقتهن. وتمثل أعمال كاثرين بيتشر Catherin Beecher، هذا الاتجاه فى الحركة النسائية الذى يأمل فى الحفاظ على فصل عالم الذكور، وعالم الإناث إلى العام والمحلى. لكن تتطلع الحركة أيضًا، إلى رفع مكانة عمل المرأة وصورتها الذاتية. ويرى بعض المُنظرين الآخرين أن الكثير من المهام المنزلية فى القرن الثامن عشر، مثل صناعة الشموع والغزل والنسيج، قد انتقلت خارج المنزل، ولديهم آمال كبيرة فى أن هذا النمط سوف يستمر، وقريبًا سيشمل المهمة الأكثر مشقة فى عمل المرأة الأسبوعى: أعمال الغسيل، الذى يتضمن نقل المياه، وإشعال النار، وغسيل الألياف الطبيعية، والملابس شديدة الاتساخ. لذا كان الغسيل الأسبوعى عملاً ثقيلاً ومرعبًا، ويستمر طوال اليوم. فكان يجب أن تنقع الملابس، وتزهر، وتصبن، وتبيض، وتغلى، وتشطف، وتعصر، وتنشر، وتنشى، وتكوى، ويجب القيام بالكثير من هذه العمليات أكثر من مرة. حتى بيتشير، التى اعتقدت أن النظام والمزاج الجيد، يمكن أن يخفف من معظم هذه الأعباء المنزلية، كانت تؤيد مبدأ المساعدة فى عملية الغسيل، إما عن طريق امرأة تقوم بالغسيل فى يوم الغسيل أو، وهذا يفضل، امرأة تكسب لقمة عيشها من غسل الملابس فى كل يوم من أيام الأسبوع مقابل، على الأقل جزء من غسيل الأسرة- ملاءات، ومفارش الطاولات، وملابس رجالى -كل أسبوع. وقد أطلقت ستراسر على الغسيل خارج المنزل، انتقال المهمة المنزلية إلى "مرحلة حرفية" تبعها مرحلة صناعية: حلج (ويتنى لحلج القطن والغزل) و (جينى للغزل والنسيج)، فى كل من المناطق الحضرية والريفية، وذلك فى أوائل القرن

العشرين. وفى ذلك الوقت، كان قد تم اختراع الغسالة الكهربائية بنماذجها المختلفة، ولذلك كانت مركزية الغسيل أمرًا طبيعيًا. لكن فى حين تحركت صناعة الملابس، واستمرت فى التحرك بعيدًا عن المنزل الأمريكى، عادت عملية الغسيل، بفضل آلة الغسيل، إلى المنزل مرة أخرى أثناء الثلث الأوسط من القرن العشرين (مثلما عادت مركزية النقل، التى كانت فى شكل خطوط السكك الحديدية والترام، تقريبًا فى الوقت نفسه، إلى فرديتها على شكل سيارات للأسباب نفسها).

ويجادل مُنظِرو تاريخ الشئون المنزلية بشأن المكاسب والخسائر الناتجة عن الغسيل المنزلى (فالمرأة، على سبيل المثال التى تقوم بالغسيل الخاص بها بالمنزل تفقد الفرصة التقليدية للتواصل الاجتماعى)، لكن لا توجد امرأة واحدة ذات عقل سليم تريد العودة لعذاب غسيل الملابس فى القرن التاسع عشر.

والدرس المستفاد هنا هو أن الحركة النسائية والنزعة الاستهلاكية مرتبطان ارتباطًا وثيقًا. فحرية حصول المرء على ثقافات أخرى، بخلاف الاقتصاد المنزلى، وحرية كسب المال، والحصول على مهنة، وممارسة هواية، والمشاركة فى جميع الأنشطة المفيدة وغير المفيدة ، كل ذلك يعتمد على تخفيف عبء العمل المنزلى، عن طريق الاختراع، والتكنولوجيا، واستخدام الطاقة وغير البشرية وغير الحيوانية. ويبدو أن الملاحظة الرئيسية فى عصرنا هذا، هى أن الآخرين فى جميع أنحاء العالم، يرغبون فى الحصول على مثل هذه الحريات أيضًا. والسؤال الرئيسى المطروح هو: كيف يمكن الحصول على هذه الحريات؟

ومثل هذه التساؤلات هى، فى جوهرها، مسائل سياسية وأخلاقية، تتطلب إجابات سياسية وأخلاقية. ولقد تناولت هنا، هذا الموجز التاريخى لأننى لا أعتقد أن الحركة البيئية تتناول مثل هذه الأسئلة كثيرًا، أو حتى تتناولها بطريقة تعرفنا كيف وصلنا إلى ما نحن عليه الآن. ويضع عالم الطبيعة حدًا (على الرغم من أننا حتى الآن لا نعرف تمامًا ما هو هذا الحد) لاستخدامنا لهذا العالم فى القيام بعملنا. ويبدو أن معظم الجدل يدور حول أين يجب أن يكون هذا الحد، أما العواقب فلتذهب للجحيم! ويجب أن يكون هذا الجدل من وجهة نظرى، أكثر

جرأة وأكثر صدقًا. أولاً علينا مناقشة ما إذا كان ينبغى أن يكون هناك فائزون وخاسرون فى المراهنة على الموارد الطبيعية، وبعد ذلك علينا مناقشة حدود المحدودية وجوائز المحظوظين. وأخيرًا يجب أن نعترف، أنه على الرغم من أن هذه القضايا لم يتم البت فيها أبدًا من خلال مناقشة، أو تم البت فيها فى وقت سابق نظرًا للأنانية وقصر النظر من قبل معظم الجماعات الإنسانية، فإنها تكشفنا أمام أنفسنا، وتساعدنا كأفراد، على معرفة من نحن وماذا نريد.

وبصفة عامة، لم يشك أى من الذين يستمتعون بوقت فراغ، أو بمتعة اقتناء سلع إضافية فى العالم الرأسمالى والاستعمارى والإمبريالى خلال السنوات الـ ٣٥٠ الماضية، فى حقهم فى ذلك. فما لم يكن "عطاء من الله" كان على الأقل وفقًا "للنظام الطبيعى"؛ وما لم يكن موروثًا وأقرته التقاليد، كان يعتبر مستحقًا؛ وما لم يكن حظًا سعيدًا لا لوم فيه، كان حافزًا بريئًا لمن لا حافز له. وعلى أية حال، فإن سخاء العالم الطبيعى قد أتاح مساحة كبيرة. فكان يبدو العالم، فى معظم هذه الفترة، عالمًا مفتوحًا، ومكانًا متسعًا، يستوعب بسهولة رغبة الإنسان فى التنقل والبحث عن أراضٍ جديدة. وبطرق كثيرة، كان المستعمرون ذوى حظ وفير. فعلى حسب التقديرات، فإن ما يصل إلى تسعين فى المائة من سكان العالم الجديد قد ذابوا حتى قبل أن يراهم الفاتحون القادمون من أوروبا، حيث وقعوا ضحايا لأمراض وبائية لم يتعرضوا لها من قبل نظرًا لعزلتهم. والحظ أيضًا لعب دورًا، عندما شجعت الطبوغرافية الأوروبية، التى تختلف تمامًا عن طبوغرافية آسيا وأمريكا الجنوبية، على رعى الحيوانات من أجل الغذاء، وشجعت على العمل، والسفر، والحرب، وأتاحت للأوروبيين فرصة اكتساب جميع أنواع التجارب التى تم الاستفادة منها جيدًا عند غزو شعوب أخرى. وكانت المسيحية، بتاريخها النشط فى التبشير، وقناعتها المطلقة بالتقوى والصلاح، ووضع اهتمامات الإنسان على قمة الهرم الدنيوى، ضربًا آخر من الحظ. كان عدم تقديس العالم (وهو وفقًا للاقتصادى روبرت هايلبرونرRobert Heilbroner، شرطًا مسبقًا ضروريًا للتراكم الرأسمالى، ولتطوير العلوم) بالفعل عقيدة ثابتة فى الفكر الغربى فيما قبل العصور الوسطى. وإذا رجعنا عدة قرون للخلف، سنرى أنه عندما بدأ

الأوروبيون فى غزو باقى العالم فى القرن السابع عشر، لم يكن هناك ما يوقفهم. لقد كان لديهم كل ما يحتاجونه من الاقتناع، والقوى العاملة، والممارسة، والابتكار، والجشع المُحفز. أما مشاكل التقنية والمسافات، فكانت مجرد تحديات ودوافع.

بدت أمريكا الشمالية فى القرن التاسع عشر، طبيعية مزدهرة، وفى الوقت نفسه النقيض الثورى للحياة الأوروبية. ومن ناحية أخرى، وفى أمريكا، اعتقد كثير من الأمريكيين أنهم عاشوا المثل العليا للمسيحية الحقة، وأنه قد تم إظهار التفوق الطبيعى للجنس الأبيض. ومن ناحية أخرى، سقط نفوذ النظام الطبقى الأوروبى، ويمكن أن يجد كل فرد مساحة ليحقق قيمته الحقيقية. وكانت النتيجة الحتمية لردود الأفعال المتناقضة مع التقاليد الأوروبية، هى الفلسفة الأمريكية للذات ـ وهى شعور متزايد بالفردية، أى لا يجب أن يقع أى إنسان تحت وطأة الطاغية، والتوسع فى مقاومة جميع العلاقات بين الإنسان، والتى كانت أقل هرمية. فالشخص المنعزل، وراعى البقر، والخارج عن القانون، والمعتمد على نفسه، والمزارع ومربى الماشية، كل واحد من هؤلاء يمكن، على الأقل، سواء فشل أو نجح، أن يعلن، "لقد فعلت ذلك بطريقتى الخاصة". وهناك نموذج بديل ـ حيث إن بعض الأشياء لا يمكن أن يقوم بها إلا مجموعة شركات، مثل السكك الحديدية وجسر بروكلين ـ هو البارون مالك الأراضى، والبارون السارق، ورجل الصناعة، ورجل المشاريع الذى لا يرحم، الذى يعلن "افعلوا ذلك بطريقتى". ولا يطمح أحد، على أى حال، فى أن يعلن "فعلت ذلك بطريقته".

نتيجة للتوسع فى الأراضى الأمريكية، وللزيادة فى السكان الأمريكيين، وقع تحت ضغط كبير هذا النوع من الفردية المصاحب للمسئولية الاجتماعية، التى كانت رؤية القائمين على تشكيل الدستور، وكتاب الصحف الفيدرالية. كانت بعض المجموعات قادرة على الحفاظ على التماسك الاجتماعى لبعض الوقت، لكن معظم الجماعات التى لم تساندها عقيدة دينية صارمة، استسلمت لإغراءات التجزئة، وهى إغراءات عززتها المثل الاجتماعية العليا المقبولة، مثل الاستكشاف، والسعى لتحقيق النجاح، والحداثة، والقيمة المعطاة للرغبة بدلا من الالتزام. وتتطلب تعزيز القيم الأخلاتية، مثل "أن تكون صادقا مع النفس" و "أن يكون

ضميرك هو مرشدك"، أن يولى الفرد اهتمامه، فى الأول وفى الآخر، إلى نفسه، حتى ولو أدى ذلك، فى نهاية المطاف، إلى عزله داخل نفسه.

تنبثق هذه الأنواع من المثل العليا، فى كل من مظاهرها الجيدة والسيئة، عن ثقافة مادية يتم من خلالها مساعدة الفرد فى عمله، والاستعانة ببعض المصادر الأخرى من السلطة. وأبسط الصور هى راعى البقر ممتطيًا جواده ـ احتياجاته بسيطة، لكنه يحتاج إلى الجواد، وإلا لن يكون راعى بقر. ويحتاج الشخص الذى يعتمد على نفسه، إلى ورشة ممتلئة بالأدوات، وبعض الكتيبات، وإمدادات من البطاريات، وكهرباء. ولا يستخدم الشخص المنعزل الحافلة فى تنقلاته، ويتم التعرف عليه كشخص منعزل، فى اللحظة التى ينزل فيها من الحافلة، ويمكن معرفة ما إذا كان سيعيش أو سيموت من اللحظة التى يركب فيها سيارته الخاصة. وبالمثل، لا يستطيع الخارج عن القانون، استخدام مترو الأنفاق فى الفرار ـ فهو يعتمد على وجود سيارة خاصة به، أو على أن يسرق واحدة، والمزارع منعزل هناك وحده على جراره، ومربى الماشية على شاحنته الصغيرة. الجميع مثل ربة المنزل، فهى وحدها فى المنزل مع غسالتها الكهربائية، ولها الخيار فى إما أن تغسل مرة كل أسبوع، أو أن تغسل كل يوم، تخلط كما تشاء الملابس البيضاء بالملابس الملونة، مستخدمة الأنواع المختلفة من المنظفات التى تروق لها. وأيضًا يتم التعرف على البارون اللص من سلطة تسخيره- الآلات الكبيرة التى تنفث الضجيج، والعادم، وضخامة المشروع، وهرولة أسراب الرجال التى تشبه أسراب النمل حول قاعدتها، والمسافات التى تقطعها المواد الخام، والمصاريف التى لم يسبق لها مثيل فى كل شىء. (الاستهلاك الواضح، وهو السمة المميزة للامتياز الأوروبى، لكنه خارج الموضوع هنا. ونحن قد نتذكر شيئا عن ملابس لويس الرابع عشر وأين كان يقيم، ولكننا لا نتذكر ملابس جون دى. روكفلر وكيف كان يبدو مكان إقامته).

ربما تكون الحرية هى المثل الأعلى الذى يشترك فيه كل الأمريكيين بشكل لا إرادى. وللحرية سلسلة من التعريفات، لكن بالنسبة للغالبية العظمى من الناس، هى تجربة اختيار، أو على الأقل، هى اختيار محتمل. هى أيضًا وقت حر، وحرية

إنفاق بعض الدخل التقديرى، وحرية إبداء الرأى، وحرية الترحال بدلاً من البقاء بمكان واحد. وأعتقد أن معظم النساء يتفقن معى على أننا فى هذه المجالات فى عام ١٩٩٠، كنا أكثر حرية من نساء ما قبل مائة عام مضت. نحن لنا الاختيار فى أن ننجب أطفالاً أو لا ننجب، ولنا اختيار عدد الأطفال الذى ننجبه. وقد نختار إما أن نربيهم بأنفسنا بالكامل، أو نستأجر مربية، أو نأخذهم لمركز الرعاية اليومية. وبدون الحاجة لإشعال النيران، أو حمل المياه، أو تفريغ أوانى الغرفة، أو رعاية الحيوانات، يكون لدينا الوقت الكافى للإشراف على نظافة المنزل، وتغذية الأسرة بشكل جيد، ومعرفة كم نستغرق من الوقت فى قضاء هذه الأعمال، وكم نمضى من الوقت فى المنزل أو خارج المنزل، والأهم من ذلك، أتاح انحسار الأعمال المنزلية للمرأة أن تختار عملاً آخر، كطبيبة أو محامية، أو روائية، أو أستاذة، أو عاملة فى مصنع (رغم أن هذا كان فى معظم القرن التاسع عشر خيارًا متاحًا لبعض النساء فقط وفى بعض مناطق من البلاد) أو سائقة حافلات، وجميع الوظائف والمهن الأخرى التى نراها حولنا الآن. لم تعد هناك حاجة اجتماعية لتركيز جميع طاقات طبقة واحدة من العمال فى نوع معين من العمل. لذا، فإن هذا النوع من الانتباه لما "يجب" أن تفعله النساء، وما خلقن للقيام به، وما هن "ملزمات معنويًا" للقيام به، ليس هو سمة من سمات ثقافتنا، بقدر ما كان هو فى القرن التاسع عشر، عندما فاق عدد الطرق التى تم تعريف المرأة بها بأنها ربة منزل، عدد المرات التى كانت تطالبها بأن تكون كذلك.

أقيم فى منزل نظيف ومريح، به غرف كبيرة ويدخله الكثير من الضوء، ويتم تدفئته بالغاز الطبيعى. وعندما أستيقظ فى الساعة السابعة والربع صباحًا، أستدير لأضىء النور، وهو عمل يستغرق لحظة. أحتاج إلى خمس عشرة دقيقة لأعد لأبنائى وجبة الإفطار المكونة من البيض، والخبز المحمص، والفاكهة، والحبوب. وأحتاج إلى عشر دقائق أخرى لأعد لابنى وجبة الغذاء المدرسية (شطائر زبد فول السودانى، وشرائح الجبن مغلفة فى البلاستيك، وفواكه، وعصير، ورقائق البطاطس، ومقرمشات). بينما يتناول الأولاد الطعام، أضع كمية من الغسيل فى الغسالة، وأدور فى المنزل، أرتب الفراش، وألتقط الأكوام غير

المرتبة من الملابس، وأقوم بتفريغ غسالة الصحون، وأضع كمية آخرى من الأطباق المتسخة، وآخذ دقيقة أو دقيقتين لإطعام الكلاب، ومساعدة ابنى فى ارتداء ملابسه، وأودع ابنتى وهى تغادر المنزل إلى المدرسة بالسيارة. يركب ابنى حافلة المدرسة فى الساعة الثامنة والربع. وأقوم أيضًا ببعض الأعمال غير الميكانيكية تمامًا - مثل رعاية الخيل، ووضع العلف، ونشر القش، وتنظيف الإسطبل. وفى الساعة الثامنة والنصف، يكون المنزل قد أصبح نظيفًا نسبيًا، وأكون قد اعتنيت بالحيوانات، ويكون الأولاد خارج المنزل طوال اليوم. لقد حان الوقت لأكون روائية، وأن أواصل هوايتى فى ركوب الخيل، والتواصل مع الأصدقاء عبر الهاتف.

وصديقاتى هن: موظفة إدارية فى مهرجان موسيقى لا يستهدف الربح، ومحامية، وأستاذة جامعية، وجيولوجية محيطات، ومدربتا خيول، ومدلكة خيول، ومدلكة أفراد، وربة منزل، ونادلة، ومتسابقة فى حلبة سباق، ومديرة تنفيذية فى دار نشر، وطالبة. جميعهن من النساء، ولا واحدة منا تجد العمل المنزلى مرهقًا، وكلنا يعتمد كليًا على الأجهزة المنزلية، والكهرباء، والمتاجر، والسيارات، والمدارس، وشبكات توصيل الغاز الطبيعى، والهواتف، والتليفزيون (على الأقل للترفيه عن أولادنا من وقت لآخر).

أعمار معظمنا تقع فى أواخر الأربعينيات ومنتصف الخمسينيات. نحن جميعًا فى حالة صحية ممتازة. لقد أنجبت أكبر عدد من الأطفال، وهم ثلاثة أطفال. كلنا قمنا بتربية أطفالنا، وكلنا لديه حياة مليئة ومشغولة، مع الكثير من التشويق والكثير من الخيارات. كل منا لديه بعض أوقات الفراغ. لا أحد منا يستغنى عن النوم، أو التغذية بحجة ضيق الوقت، أو نفاذ الطاقة، أو قلة المال. وقد أصبحت حياتنا، بصفة عامة، إن لم تكن بالتفصيل، بالقدر الذى كنا نأمل أن تصبح عليه - فعملنا مرض، وحياتنا المنزلية هادئة نسبيًا، ومنازلنا نظيفة بشكل معقول، وجيدة التدفئة والإضاءة. والسؤال هو ليس كيف يمكننا الاستفادة بشكل أفضل من وقتنا، حيث إنه لا أحد يستفيد بشكل مثالى من الوقت (والمثل الأعلى الأمريكى للحرية يعنى أننا أحرار فى أن نضيع وقتنا إذا أردنا ذلك). لكن السؤال هو ما الذى يجعلنا نتخلى عن الامتيازات والحريات التى اكتسبناها والعودة إلى حياة

أكثر مشقة، حياة روتينية، وغير صحية، ومحدودة، يسودها القلق ـ أو، حيث إن معظمنا لديهن بنات، ما الذى يجعلنا نقصر من أعمارهن ونحد من حياتهن.

لقد أجريت دراسة استقصائية غير رسمية بشأن هذه المسألة. قد تقبل ابنتى مبلغ مليونى دولار، مقابل أن يقتصر مستقبلها المهنى على العمل المنزلى، وأن تنجب سبعة أطفال قبل أن تصل إلى سن الثلاثين عامًا. ومع ذلك لا يمكن، تحت أى ظرف من الظروف، رشوتها لتتخلى عن الكهرباء، والسيارات، والمياه الجارية، ومحلات السوبر ماركت. صديقتى، المديرة التنفيذية فى دار النشر، مستعدة أن تحيا حياة جدتها مقابل ضمان مائتى سنة من الحياة حتى تتمكن من التمتع، فى وقت لاحق، بالحياة التى نحياها الآن. كما أنها توافق أن تحيا حياة جدتها لكى تتجنب الموت المبكر. وكان رأى صديقتى المُدلكة أن الوفاة المبكرة، كخبرة غير معروفة ومثيرة للاهتمام، تكون أفضل من حياة الجدات. وتعتقد مدربة الخيول، وهى امرأة معتادة على الروتين المتكرر، والعمل البدنى الشاق، أنها لا يمكن أن تقبل نمط حياة جدتها (بما فى ذلك إنجاب اثنى عشر طفلاً وتربيتهم) إلا إذا كان البديل هو الضعف الجسدى أو العقلى. ويمكن أن تقبل الأستاذة هذا الخيار إذا كان البديل هو وفاة أولادها. وابنة عمى، التى تعمل ممثلة وموظفة بمكتب، وتحيا حياة أكثر صعوبة منا جميعًا، تعتقد أن ٢مليون دولار، بالإضافة إلى الحياة فى مكان جميل، قد تكون تعويضًا كافيًا، لكنها تفضل هذه الحياة عن مرض عضال، أو ضرر بدنى، أو موت مبكر. فقط كانت صديقتى إدارية المهرجان الموسيقى، التى هى أكبرنا سنا وعاشت لمدة عشرين عامًا فى الريف الإنجليزى، على استعداد لتقبل على محمل الجد (لنفسها لكن ليس لبناتها) فكرة العودة لحياة امرأة فى القرن التاسع عشر، إذا كان يمكن أن تقضيها فى قرية، مع شركاء كثيرين وبمساعدة متبادلة. لقد اتفقنا على أن مثل هذه القرى لم يعد لها وجود فى أمريكا، هذا إذا كان لها أصلاً وجود بالفعل. وأولئك الذين يتذكرون الحياة فى بلدة صغيرة فى أوجها (لعدة سنوات فى بداية القرن العشرين)، يتذكرون دائمًا ريفها، وضيقها، وضيق أفق أهلها، وشائعاتها، بقدر ما يتذكرون الراحة التى وفرتها لهم.

والحقيقة، أن الطريقة التى نحيا بها حياتنا اليوم، تعكس ما كان يصبو أسلافنا إلى الابتعاد عنه. والأعمال المنزلية، التى هى الآن سهلة بالنسبة لنا، كانت فى وقت ما لا تقابل بالشكر، وكانت متواصلة لدرجة أن الأساليب والمنتجات التى صممت للتخفيف من عبء العمل المنزلى، قد وجدت سوقًا متلهفًا على استخدامها. يستخدم الناس السيارات، ويقطعون المسافات البعيدة التى تفصل بينهم، للابتعاد عن بعضهم البعض، لأنهم قد وجدوا أن العزلة أفضل من الصراع. ويختار الأمريكيون الرغبة بدلاً من الالتزام، والتلفزيون بدلاً من المحادثة، والرعاية الطبية المرهقة بدلاً من الوفاة والعجز، والعائدات المرتفعة بدلاً من التدابير الصارمة، لأنهم قد يفعلون ذلك برغبتهم وليس فقط لأنهم قد شُجعوا على القيام بذلك. والعمل المنزلى الشاق، والبقاء فى مكان واحد معظم الوقت، والظروف الاجتماعية المتقاربة، والترفيه المنزلى، والعجز، والوفاة المبكرة، وعادات الادخار، كل ذلك جاء صفعة للحرمان بالنسبة لهؤلاء الذين لم يمارسوا هذه الحياة من قبل، وأيضًا بالنسبة للذين مارسوها. ينظر للذين ينادون بها، مثل وندل بيرىWendell Berry، على أنهم ليسوا فقط غير واقعيين، بل على أنهم أيضًا بخلاء. هناك الكثير من الحديث عن خواء الحياة الحديثة، لكن عليك أن تتذكر تفريغ الأوانى من المخلفات المتراكمة الناتجة عن سبعة أو ثمانية أفراد من الأسرة، كل يوم لبقية حياتك، وأن تطلب من شخص آخر القيام بذلك. تذكر التنصل من واجباتك وعدم القيام بها.

ومع ذلك، لا يمكن لسكان العالم، الذين يبلغون الخمسة بليون نسمة أو أكثر، أن يحيوا الحياة التى يتطلع إليها الأمريكيون. وقد دعمت الحلول المبتكرة لمواجهة تحديات الحياة الأمريكية فى القرن التاسع عشر، المرحلة الأمريكية من تاريخ الرأسمالية، تمامًا مثلما دعمت الابتكارات السابقة المراحل المبكرة فى مواقع أخرى - مثل ظهور النظام المصرفى فى فلورنسا، واستكشافات ما وراء البحار فى أمستردام، والاستيطان الاستعمارى فى إنجلترا. وفى كلٍ من هذه الحالات، كان يأتى كل مركز جديد، بحلوله الجديدة لمشاكله الخاصة، ليخلف ابتكارات المركز القديم ويؤثر فى العالم، ثم يأتى الدور عليه ليخلفه مركز آخر، عندما تكون

الحلول، التى تم التوصل إليها، قد قوضت نتيجة للتناقضات الداخلية بها. ومثلما نمت الإمبراطورية البريطانية بشكل كبير وغير عملى، مما صعب من تماسكها معاً، كذلك التكنولوجيا الأمريكية التى نمت لتصبح تقريبًا عبئًا لا يطاق بيئيًا. ويجب أن تحل المرحلة القادمة من الرأسمالية، وسوف تحل، هذه المشكلة. وسيحدث ذلك فى مكان آخر، غير الولايات المتحدة، وقد لا نعترف، نحن فى الولايات المتحدة، بأن منظماتها الاجتماعية والاقتصادية هى شىء إيجابى، وبالتأكيد لن نشعر بارتياح، لكن فى النهاية، ومثلما أعاد البريطانيون تنظيم أنفسهم فى عام ١٩٨٠ ليصبحوا على خط متواز مع الخط الأمريكى، سوف ننظم نحن أيضًا أنفسنا، تقليداً للمجتمع الجديد الناجح، والمركز الجديد للمشاريع الرأسمالية.

وقد تصورت ابنة عمى الممثلة، كيف يمكنها أن تعد نفسها للحياة التى عاشتها جدتها عندما هاجرت إلى الولايات المتحدة قادمة من النرويج. وقالت إنها قد تكون قادرة على "أن تنفذ إلى طبيعة الحقيقة من خلال التأمل"، أى التركيز على الجوانب الروحية من مهمتها المعينة لها. وحلها لم يكن مماثلا لحل الآنسة بيتشير التى دعت إليه نساء القرن التاسع عشر ـ الصبر والمرونة وانتظار الأجر فى المستقبل ـ لكنه، بدلاً من ذلك، كان الحل هو الاستمتاع باللحظة التى نعيشها، والارتياح للعمل الذى نقوم به. وتبدو أفكار بيتشر الخاصة بالتضحية اليومية للمرأة من أجل أفراد أسرتها، مشكوكًا فيها، لكن ربما نستطيع تخصيص بعض الوقت فى اليوم، نعيش فيه، لحظة بلحظة، إدراكنا لأنفسنا ولعالمنا، مما يجعل من الكد المنزلى شيئًا آخر مختلفًا. وقد تم استعارة هذا المفهوم من مدربة الخيول، التى تمارس، مع كل مرة تقوم فيها بتنظيف الإسطبل، ومع كل خطوة ولفتة، انضباطًا شخصيًا يتناسب وطبيعة الحصان المتشددة وغير المرنة، كحيوان كبير و عنيد، ومن السهل أن يجفل.

ومن ناحية أخرى، أصبحنا نحن الأمريكيين على ما نحن عليه، لأسباب تاريخية محددة، وحلولنا للتحديات التى قدمها عدد قليل من السكان، وفرضتها طبيعية ضخمة، لا تزال ملائمة، لأنها فى الغالب لا تزال معقولة إلى حد ما،

وسط التصاعد السريع للقدرة على الابتكارات، أكثر من أى وقت مضى. نحن نعيش متفرقين تفصل بيننا، إلى حد ما، مسافات بعيدة. وسائل الاتصال بيننا هى الطرق السريعة، والسيارات، والهواتف، وأجهزة الكمبيوتر، والطائرات. لقد بنينا هذه النظم الضخمة، ولا نستطيع الفكاك منها، والحياة التى أمضيناها فى مقاومة تلك النظم أصعب بكثير من تلك التى يمكن أن نقضيها بدون هذه النظم. والأهم من ذلك، أننا نحن الأمريكيين مازلنا نشعر أن الطبيعية الضخمة، وأحيانًا الغامرة: العواصف الرعدية، والأعاصير، والعواصف الثلجية، والزلازل، والحرائق، وانقطاع التيار الكهربائى، والمحيطات، والجبال، والفيضانات، والجفاف، والوحوش الضارية، والأوبئة، وأنفلونزا الطيور، وخروج الحيتان للشاطئ، ومئات الفقمات التى تتسبب فى نفوق ملايين الأسماك لتملأ الهواء بالرائحة الكريهة لمدة شهور. نحن لم نعش على هذه القارة مدة كافية لكى نقرر ما إذا كنا نهيمن عليها، أو هى التى تهيمن علينا. ونحن نعيش فى اتصال نشط مع البيئة بطريقة لا يستطيع آخرون، فى أماكن كثيرة من العالم، أن يحققوها. لقد أمضوا فترة كافية من حياتهم مع الرياح الموسمية، والزلازل، والتربة المتجمدة، مما يجعلهم غير قابلين للاستسلام، أو التأقلم، أو القبول. ولا زال هجومنا على الطبيعة قائمًا، ولا زال هناك الكثير من المؤيدين لهذا الهجوم، لكنه قد حقق تمامًا الغرض منه - تعزيز قيمة الوجود الفردى. حتى ونحن نستنكر هذا، فإننا نستمتع به؛ فحياة الرغبة، الصحية والمحفزة والاجتماعية، تملؤنا، معظم الوقت، بشعور جيد بما فيه الكفاية، لدرجة أننا نخشى أن نتخلى عن هذه الحياة لشىء غير معروف، وربما لا سبيل لمعرفته.

ومن ناحية أخرى، فإن هؤلاء الصينيين، واليابانيين، والهنود، وغيرهم، يجلبون معهم تاريخًا مختلفًا، وعددًا أكبر من السكان، ليضاف لنموذجنا من التفكير والاستهلاك، وبالتالى يجب أن نحول طريقتنا فى القيام بهذه الأشياء إلى شىء آخر. مثلما سرق الأمريكيون الاختراعات الإنجليزية فى أوائل القرن التاسع عشر، ثم زادوا عليها، يجب أن تتعلم هذه المجتمعات ذات الكثافة السكانية والمليئة بالاختراعات، من أخطائنا. يجب أن نرى أن حلولنا لا يمكن أن تناسبهم، وذلك

لأن الطبيعة سوف تضع حداً شديداً عليهم، أكثر مما تضع علينا. لكن لا تعنى حقيقة أنهم يجب، فى النهاية، أن يفعلوا ذلك، إن الطريق من هنا إلى هناك سيكون مستقيما، وسلسا، وعقلانيا، أو أنه سيكون إنسانيًا. سيرتكبون أخطاء، وسيرتدون عن خيارات ويستنكرونها، تمامًا مثل اختيارنا للعبودية السوداء، وللإبادة الجماعية للأصول الأمريكية، والتى نتذكرها اليوم برعب - حتى الأوروبيون فى ذلك الحين كانت يثير اشمئزازهم كما سيثير اشمئزازنا ما هو آت.

تقدم كل ثقافة حلاً لتحدياتها التى تأخذ من، وتؤثر فى الثقافة بكاملها. وتمامًا مثلما نتج عن الفرص المادية، وقصور الطبيعة الأمريكية، كل من الابتكارات التكنولوجية والمثل الثقافية العليا، فسينتج أيضًا مركز، أو مراكز الرأسمالية فى المستقبل للحلول التى يمكن أن تتعامل مع الصعوبات المادية، وفى الوقت نفسه، تعزز الاتجاهات الثقافية. قد نفترض أن الفردية القائمة على أساس تكنولوجى، سوف تتنحى أمام شىء آخر، وأن هذه المثل العليا فى آسيا، سوف تعتمد على تقليد جماعى قوى بشكل مميز، أكثر مما لدى الأمريكيين. وقد نفترض أن المجتمعات الآسيوية سوف تضفى طقوسًا على العلاقات، وضروب الحياة، والحياة اليومية، بطريقة لا يهتم بها الأمريكيون. وقد نفترض أن الاتجاهات نحو العالم الطبيعى الواضحة فى كل أنواع الفن الآسيوى، سوف تحد من الملاءمة الكلية للطبيعية وللموارد الطبيعية. وقد نفترض أنه سيجلب الأفراد نوعًا من النظام التأملى والمتعة لعملهم اليومى. وقد نفترض أن ما نراه مفقوداً بشدة فى ثقافتنا، وهى تنمو وتتطور بشكل مبالغ فى مراحلها الأخيرة، سنجد الإجابة عليه فى الثقافات القادمة، تمامًا مثلما تم الإجابة على المجتمع الطبقى للثقافة الإنجليزية، التى سعى بريكبك Birkbeck وفلورFlower لاستيراده إجماليا إلى إلينوى عن طريق الفردية وليدة الثقافة الأمريكية. وقد نفترض أننا سوف نفقد، ونفتقد السحر الخاص لثقافتنا، والطريقة التى تلوى بها ثقافتنا التقلبات الكثيرة للطبيعة البشرية، وتقدم نمطًا مؤقتًا للواقع. لا يمكن لنا التخيل كيف ستعمل كل هذه التوقعات العامة بالتفصيل، لأن طبيعة الرأسمالية هى تقديم حل جديد تمامًا، فى موقع جديد، عندما تنهار الحلول القديمة بعضها على بعض.

إن تاريخ الأعمال المنزلية يخبرنا أن النزعة الاستهلاكية كانت، فى وقت ما، حلاً لمشكلة نقص العمالة. وبدورها مشكلة نقص العمالة فى أمريكا، كانت ظهوراً للحل، فى أوروبا، لمشكلة نظام طبقى ثابت. وسوف تجد مشكلتنا الحالية للتدهور البيئى، حلاً أيضاً. قد يعجبنا هذا الحل، ثم قد لا يعجبنا.

التوازن

مارتن إي. مارتى

طرح، مارفن زونيس Marvin Zonis الاقتصادى والعالم السياسى بجامعة شيكاغو بشكل جيد ، الأخبار السارة والسيئة للثقافة العالمية مع انعطاف الألفية. الأخبار السارة هى تفوق السوق. فقد أصبح هناك الآن سوق عالمى، متميز بوجود اقتصاد للأعمال. إنه يقدم بضائع كثيرة خاصة بالإنسان، وبضائع كثيرة للإنسان. (وتفسيرى لذلك: أنه بعد نسج ملايين الأميال من الأسلاك الشائكة لتحيط بالمعسكرات، وبعد سفك أنهار من الدماء وسكب محيطات من الحبر لفرض أيديولوجيات الشيوعية على الشعوب، فإن الأنظمة المضادة للسوق قد تهاوت وتركت خلفها أنظمة قليلة فقط تسمى نفسها بالأنظمة الشيوعية، وهى مُكرسة للتمسك أكثر بالسلطة من تمسكها بتفسير المعتقدات. وفى بعض البلاد، مثل الصين، بدأت الآن تسود الأسواق التى إلى حد ما حرة حتى ولو كانت غير مصحوبة بحرية سياسية).

ويقول البروفيسور زونيس Zonis إن الأخبار السيئة هى أننا ـ ويقصد، بدون شك، الذين يعملون أساسًا فى الاقتصاد العالمى، والولايات المتحدة التى تلعب دورًا بارزًا ـ ليس لدينا أبسط فهم لفلسفة اجتماعية تنشط، وتراقب، وتلهم هذا السوق. (وتعليقى على ذلك ـ وحتى لا تحملوا زونيس Zonis مسئولية هذا الكلام ـ إن الرأسمالية كقطب بديل للشيوعية هو الاسم الذى يطلق على مجموعة من الأيديولوجيات والأنظمة التى صمدت ضد المنافسة الشرسة. بالتأكيد الرأسمالية، مهما كان الوصف التى توصف به، تأتى بمفاهيم اجتماعية، وكل

مفهوم خاص هو فى حد ذاته فلسفة وهذا أكثر مما قد يسمح به كثير من الاقتصاديين. سواء كان النظام قد تم تعريفه درجة كافية أم كان تماسكًا مما يسمح بالاستعانة به، أو كان فلسفة اجتماعية كافية، أو توجيها كافيًا للبحث الشخصى عن المعنى والسلوك الأخلاقى للأفراد الذين يصنعون المجتمعات، فإن ذلك سيظل موضعًا للتساؤل. ولكن المحصلة النهائية أنه قد تفوق).

يقوم كل إنسان بممارسة عملية الاستهلاك، سواء أكان ما يستخدمه أو يستهلكه مصدرًا متجددًا أم لا. فنحن نأكل ونشرب، نحن نقطع الأشجار، نزرع القطن أو نجز صوف الأغنام أو، وبشكل متكرر أكثر فى الآونة الأخيرة، نخترع ونستغل المواد البلاستيكية فى تصنيع المواد الخام اللازمة لملابسنا. والتساؤل عما إذا كنا نستهلك لمستقبلنا أو حتى إننا نبدى فقط الملاحظة ثم نحكم بأننا فعلاً نقوم بذلك، هو تغليف سلبى للمفهوم وإضافة ism لنهاية الكلمة يحولها إلى السلبية المحضة.

وسأبذل قصارى جهدى لكى أكون منصفًا عند مناقشة هذه التساؤلات، على الرغم من صعوبة إرضاء البعض عند محاولة المرء اجتياز المنطقة المتنازع عليها بين الأطراف المستقطبة - الذين هم فى هذه الحالة، هؤلاء الذين يرون أن هناك بعض المشكلات القليلة فى قضية الاستهلاك، أو يرون أنه لا توجد مشكلات على الإطلاق، وبين هؤلاء الذين يرون أن هناك مشكلات كثيرة، ولا يرون فى معظم أنماط الاستهلاك إلا الدمار.

ويعنى استخدام كلمات مثل مراقبة وحكم، كما استخدمتها أنا آنفًا، إن عالم الاستهلاك له تضمينات أخلاقية، وقد يدفع استخدام، حتى الحد الأدنى منها، بعض الاقتصاديين لأخذ موقف دفاعى: فالاقتصاد، بالنسبة لهم، هو مسألة آلية وليس مسألة أخلاق، وقوانين السوق أو علم الأخلاق، والأمر يتطلب مزيدًا من البحث الأخلاقى سواء من ناحية إمكانية انتزاع السوق من السياق البشرى أو عدم إمكانية ذلك، حيث تظهر الأهمية الشديدة للدوافع فيما يتعلق بتخصيص الموارد. إذا ومتى كان الاستهلاك ضارًا للبيئة الحالية، كما فى حالة ما تفعله الانبعاث الزائد لثانى أكسيد الكربون فى الهواء الذى نتنفسه، وفى درجات

الحرارة التى نتحملها، فمن الصعب الهروب من فكرة وجود عامل الأخلاق وعندما تجادل الأطراف المتنافسة عما إذا كانت أنماط الاستهلاك تعكس فجوة بين الغنى والفقير، كما بالطبع تفعل، فإن هؤلاء المؤيدين لقضايا الإنصاف يرون الاستهلاك حدًا من حدود أخلاقية.

بعد الإشارة إلى هذه الحقائق يجب الإجابة على الأسئلة المتعلقة بالعوامل المتداخلة مثل سلوك أخلاقية من؟ وأخلاق من؟ وما هى الأساليب والأنظمة التى ستسود، أم هل سيكون هناك فقط سوق حرة من الخيارات بشكل جامح وجدال بشأنها وربما غير مباشر لا ينتهى؟ ودائما ما توصف الولايات المتحدة وكندا بأنهما مجتمعات تعددية. وعند ترجمة ذلك لمصطلحات رياضية، يعنى هذا أن أى عدد يمكن أن يلعب؛ الكثيرون يفعلون؛ هناك بعض القواعد الواضحة للعبة وهى محاطة، ومعززة، ومختبرة بالعادات والتقاليد المختلفة التى تأتى مع الثقافة دائمة التغيير ويقصد"بالعدد" الجماعات المتنوعة التابعة أحيانا بشكل تكميلى لكن غالبا لأديان وفلسفات ومصالح وأخلاق متنافسة. يوضح ما يلتزم به الناس وما يعيشون منه موقفهم من الاستهلاك. وعلى العكس، فبالنسبة لمؤيدى الفلسفات المادية فإن الذى يقرر ما يلتزم به الناس هو نوع الاستهلاك وكيفيته لذلك يقول لوفيج فيورباخ Ludwig Feuerbach، وهو قد ظهر فى وقت سابق لكارل ماركس "الإنسان هو ما يأكل" فإذا كنت ثريا وتحب الترف، فغالبا ما ستكون من أنصار الاستهلاك الضخم. أما إذا كنت فقيرا محروما من بضائع الرفاهية، فستكون ميالا للمناداة بتقييد الاستهلاك فى الدول الغنية أو بين القطاعات الغنية فى المجتمع. وإذا كنا غير راغبين حتى فى محاولة تسوية الجدل، الذى أشك فى إمكانية تسويته، عن القضية المادية فى الأيدولوجيا، يمكن أن نأخذ بالملاحظة أن مواطنى أمريكا الشمالية، حتى عندما يجادل بعضهم ضد ربط الأخلاق بالاقتصاد ومن ثم بالاستهلاك، قد تبنوا التفسير الأخلاقى، خصوصا عندما يشتركون فى إدانة متبادلة. ومن يستمع لمؤيدى التعددية الأمريكية فلن يعوزه الدليل بشأن الاهتمام الأخلاقى فى كل الجوانب.

ومازال السؤال الذى يلح علينا كثيرا: السلوك الأخلاقى لمن ؟ وأخلاق من؟ لدى معظم الثقافات والمجتمعات بعض الإجابات المتماسكة والجديرة بالملاحظة لهذه الأسئلة. فإذا ذكرت كوزا نوسترا Cosa Nostra وسوف تستحضر صور أخلاق الآباء الروحيين، وأخلاق المافيا. وقد لاحظ أوغسطين فى العالم القديم أنماط السلطة الأخلاقية التى كونتها حتى أسوأ عصابات اللصوص ـ واستخدمها فى البحث عن تشابهات مماثلة فى السياسة. هناك اهتمامات بلتواى Beltway فى ثقافة رأسمال الأمة. ويعرف أبطال الاستهلاك تمامًا ماذا يعنى التحدث عن أخلاقيات أعضاء حزب الخضر. ويرد الخضر بسرد التبذير المسرف والاستهلاك الضخم الواضح بين الأغنياء الذين ينفقون بحرية بالغة. ويفترض فى معظم الجدال تقريبًا أن هناك "ثقافة فقر" التى تنشط حياتنا بأنماط أخلاقية معينة وأنه على المقياس العالمى، فإن الشمال والجنوب يعيشون وفقًا لحوافز أخلاقية مختلفة. ونحن نستخدم التعميم بشأن استهلاك الغابات فى الأمم الأقل تنمية، حيث يحرق المزارعون الأشجار حتى يستطيعوا زراعة الطعام الذى يستهلكونه وحصاده، أو فى الأماكن الباردة، أو تلك التى أنهكتها الحروب مثل البوسنة، حيث يحرق الناس حطب الوقود ليبقوا على قيد الحياة.

هل هناك موارد أمريكية تعتمد عليها ثقافاتنا ومجتمعاتنا المعقدة لمواجهة القضية الأخلاقية؟ البعض قادر على أن يستبين هؤلاء الذين يدرسون تاريخنا. أما أنا فلأسباب تتعلق بالكفاءة والمعرفة فسوف أتكلم هنا عن الولايات المتحدة، وأريد أن أؤكد أن كثيرًا من الخصائص التى أصفها هنا موجودة أيضا فى كندا، حيث إن الدولتين تشتركان فى ميراث أوروبى واحد، وتتشابهان فى زمان الاستقرار والتنمية ومكانهما.

وتتكون هذه التقاليد من أفكار وممارسات متشابهة، واقتراحها يؤكد اعتقادى أنه حتى فى أنماط السلوك المنتشرة والعادية، فإن الأفكار لها تبعات. ويقدم الفيلسوف الاسداير ماك انتير Alasdair McIntyre توضيحًا واحدًا فقط لينبه هؤلاء الذين قد يستخفون بهذه الفكرة. وهو يخبرنا كيف أن رجل أعمال قام بمواجهة توماس كارليل Thomas Caelyleصائحًا فى سخط، "أفكار، يا سيد

كارليل، أفكار، ولا شىء غير أفكار." أجاب كارليل كما أسرد ماك انتير McIn-tyre: "كان هناك رجل ذات مرة يدعى روسو ألف كتابًا لا يحتوى على أى شىء بخلاف أفكار. وكانت الطبعة الثانية مغلفة بجلد هؤلاء الذين ضحكوا فى البداية"(١). ولا تثبت هذه الواقعة شيئا وإن كانت توضح الكثير. إن هدفنا هو رؤية الأفكار فى سياق بيئى قومى.

تسوى هذه البيئة، بالطبع، بين المجموعات التقليدية من الأفكار، أو الأماكن، وبعض تلك المجموعات المرتبطة أكثر بالممارسة غير التقليدية. ويكتب أحد هؤلاء الذين كرسوا أنفسهم لهذا الموضوع فيقول:

> ما يثير الإعجاب فيما يختص بقيم السوق من منظور دينى، ليس "طبيعية" هذه القيم لكن كيف أن أساليب تحولها هى بهذا التأثير والإقناع. وأنا أعمل، مدرس فلسفة، أنه مهما كان هذا الذى أستطيع فعله مع طلابى خلال ساعات قليلة أثناء أسبوع فهو غير مجد بشكل عملى فى مقابل التأثيرات التى تهاجمهم بعنف خارج الفصل الدراسى - الرسائل الدعائية الجذابة فى التلفاز والراديو وفى المجلات وعلى جوانب الحافلات، إلخ، والتى تستحثهم بشكل مستمر "إذا أردت أن تكون سعيدا فقم بشرائى"(٢).

يجب أن نستخدم التبسيط الشديد عند التعامل مع مقياس القضايا فى حيز مكانى وجيز. وإليك هذه الصورة: أراد الفيلسوف الاجتماعى الراحل إرنست جيلمر Ernest Gellme أن يقول إن المجتمعات المعقدة تعيش وفقًا "لعقود اجتماعية متفق عليها" سواء كانت تقليدية أم غير تقليدية. وهذا ينطبق بشكل غير محدد على أحداث وجدال وقع خاصة فى أوقات إبداعية حاسمة. وقد يعيد ورثة هذه الأحداث المبدعة أو الفاصلة ترتيب الأفكار والأيديولوجيات لدرجة جعلها من غير الممكن التعرف عليها. فما هذا الذى أدركه أتباع المذهب الكالفينى فى القرن السادس عشر والبيوريتانى فى القرن السابع عشر وتتطور كتحول للأخلاق البروتستانتية؟ ومع ذلك، إذا لم تكن هناك ثورة كلية فى الحضارة، فإن

المواطنين المعاصرين سوف يعيشون بشكل انعكاسى وتأملى بعيدًا عن تراكمات الماضى وخبراته. وبتخيل جيلنر آن نهرًا جليديًا يتحرك ببطء وبشكل غير ملموس للأسفل على طول منحدر جبل وعر، وسوف تتكدس حطام وثلوج خلف سلسلة صخور ثم تتحرك فوق ما يسميه "مرحلة انتقالية" إلى عقد اجتماعى جديد متفق عليه. لكن هذه الحركة الخطيرة ستخلف وراءها ما يقارنه جيلنر بركام جليدى أيديولوجى وعملى. يحدد ركام هذا النهر الجليدى المجازى منظرًا طبيعيًا جديدًا. ويستطيع المرء أن يحرك بعض الجلمود، ويزرع بعض أنواع المزروعات الجديدة، أو يستطيع بطرق أخرى أن يتكيف، لكن يبقى الركام الجليدى.

قام الشعب الأمريكى بثلاث حركات على طول المرحلة الانتقالية ولم يحدث شىء آكثر من إعطاء معلومات عن الأخلاقيات الاقتصادية وتشكيل الاستفسارات والجدل الأخلاقى عن الاستهلاك.

أولى هذه الحركات هى الميراث الاستعمارى والذى تلاه ميراث الإنجيل، وهذا يشير إلى السبيل الذى اختاره أغلبية الشعب الأمريكى فى أن يكون الكتاب المقدس اليهودى والعهد الجديد، ولهما تفسيرات كثيرة، ذات تأثير على مفاهيمهم الخاصة بأخلاقيات الاستهلاك. وهذه الكتب المقدسة لا ينقصها النصوص التى تتعلق بالمجتمع وبمعنى العمل، واستخدام السلع المادية والتزامات الفرد تجاه الآخرين فالأنبياء والأناجيل غنية بمراجع لهذه المواضيع.

ويتزامن مع تكوين الولايات المتحدة، سيطرة مجموعة ثانية من المثل المعقدة ويمكن أن نطلق عليها حركة التنوير، كما أشار عالم التاريخ الكبير كران برينتون Crane Brinton إلى هذه الحركة الفلسفية والدينية. وقد صاحب هذه الحركة فلسفات جديدة عن الفرد والحرية وتخصيص الموارد، والأسواق. وغالبًا ما تكون هذه الفلسفات فى صراعات صريحة مع وصايا الإنجيل ووعوده، حتى ولو كانت المجموعتان يعتنقهما الأشخاص نفسهم دون أن يظهروا دليلاً على تمزق الشخصية أو انشقاق ثقافى.

إذا كان معتنقو الإنجيل وحركة التنوير قد تخلوا عن تسريباتهم الركامية وقاموا بعملهم فى تشكيل المجتمع فى أواخر القرن الثامن عشر، ففى أواخر

القرن التاسع عشر ظهرت قوة دافعة ثالثة حيث استجاب الأمريكيون الشماليون لتحديات وفرص للوضع الصناعى والمؤسسى والتكنولوجيا المتقدمة.

لو كُلف أحد بمهمة نحت وجوه على جبل راشمور للاحتفال بالتفكير الاقتصادى للمستهلك، فإنه يمكن أن يكون الثلاثة المرشحون: المسيح (مع الأنبياء والحواريين منحوتين على إكليل زهر فى الخلفية)؛ آدم سميث (مع جون لوك، وبنجامين فرانكلين وآخرين من الأوربيين والأمريكان المتنورين فى نسيج صوفى لإكليل الغار خلف الرأس)؛ وتشارلز داروين وخلفه، بعض أقطاب الصناعة.

هذه الحالة الثالثة هى لمحة سريعة يصعب ضغطها فى جملة اعتراضية، وتم الرمز إليها هنا بما يسمى بالداروينية الاجتماعية، وهى ليست متوافقة مع الداروينية المحضة، أيا كانت. إنها تشير إلى سمو المبدأ التنافسى، إلى وضع مطلق فى التحكم فى القرارات الاقتصادية والعوائد فى المجتمع. قد يرغب المرء فى أن ينحت خلف رأس داروين الملتحية شخصيات مثل أندرو كارنيج، القطب الذى نشر كتاب إنجيل الثروة The Gospel of Wealth (٣)، وهو تفسير شبه دينى، أو مثل جون دى. روكفيلر، الذى كتب عن وردة الجمال الأمريكى، وقد اكتسبت هذه الزهرة جمالها وبقيت، كما حاول روكفيلر أن يبرهن، لأنه تم تقليم الأزهار الأقل على طول الساق. وإذًا لأنها "الأصلح"، حصلت على ما تستحق: التغذية الرئيسية، أو حتى كل التغذية.

إذا أنت أثرت أى قضية تتعلق بأخلاق الاستهلاك ـ واحتمال أخلاق الاستهلاك المفرط ـ أو عدم الاهتمام بالتوزيع العادل للسلع البشرية، أو عدم الاهتمام بالمستقبل من حيث استنزاف الموارد الطبيعية، فستسمع الأمريكان يقولون بشكل رسمى، وغير رسمى، إنهم يعتمدون على مصادر "ركامهم" الروحى. وكل من يقضى وقتًا فى تقييم هذه الموارد وما تطلبه سوف يدرك سريعًا أنها غالبًا ما تكون غير متوافقة.

وقد يكون الأنبياء اليهود، كما تم وصفهم، حزبًا خارج السلطة وينتقد هذا الحزب الذين هم فى السلطة، لكنهم أيضًا كانوا أكثر من ذلك. لقد شاركوا فى

دعاوى عهود إسرائيل لكنهم رأوا أن قيادة معاصريهم وممارساتها متناقضة مع هذه الدعاوى، وأزعجهم بالذات عدم المساواة بين الناس، وأثار غضبهم الاستهلاك المفرط.

كان أشعيا، الذى عادة ما يهاجم الرجال، موهوبًا أيضًا فى هجاء النساء المتبرجات فى مدينة زيون واللاتى يرتدين "زينة رنانة فى أرجلهن" بالإضافة إلى "السلاسل، والسوار، والقلنسوات، والزينة" المصاحبة (أشعيا ١٨ : ٣ ـ ٢٣). وقد انتقدهم عاموس بأنهم "عشيرة باشان" التى تقوم بقمع الفقراء وسحق المحتاجين؛ وتقول النساء لأزواجهن "أحضروا الخمر ودعونا نشرب" (عاموس ١ : ٤).

توجد فى تقاليدهم، وهى الآن على رأس العهد الجديد المسيحى، كلمات المسيح كما جاءت فى الإنجيل. فربما اختار المسيح وحواريوه أبسط الوسائل، وقد وصف نفسه أنه بدون مأوى وأرسل أتباعه ومعهم الحد الأدنى من الموارد وطلب منهم ألا يسعوا إلى، أو يستخدموا أكثر من تلك الموارد. لكن من أمثاله وأقواله يتضح أن مستمعيه هم من الطبقة الوسطى، لكنهم كانوا يعرفون كيف يرتدون الملابس الملائمة، وكيف تكون آداب المآدب. ومع ذلك فإن كلمات المسيح كانت دائمًا تأتى لتفسد النظم الاجتماعية والاقتصادية. لقد طرح بشكل ملح الورع الروحى والمادى: لا تستطيع أن تخدم الله ومامون Mammon (شيطان الجشع، تجسيد المال والمادة).

وفى مقابل هذا، كتب آدم سميث، وهو فيلسوف أخلاقى، الكثير عن الأخلاق والاقتصاد السياسى بصراحة فى كتابه نظرية الحس الأخلاقى The Theory of Moral Sentiments. وقد أخذ من المسيحية تقييمها المظلم للمصلحة الشخصية للفرد، لكنه نسجه داخل شىء إيجابى:

> لا نتوقع الحصول على الغذاء بدافع من نزعة عمل الخير لدى الجزار، أو صانع الجعة، أو الخباز، لكن ستحصل على الغذاء بدافع من المصلحة الشخصية لهؤلاء. ونحن لا نخاطب إنسانيتهم لكن نخاطب حبهم لذاتهم، لا نتحدث إليهم أبدا عن احتياجاتنا الخاصة لكن عن مصالحهم الشخصية.

وقد أكد سميث أن الاهتمام بالمصالح الشخصية،، وهى جزء من طبيعة البشر، يمكن أن تصبح المحرك لإنتاجيتهم، والقوه الدافعة لمساهمتهم فى مزيد من الاختراعات، أو الإنجازات. سيتم إنتاج سلع أكثر - حتى ولو تم توزيعها بشكل جائر. كيف يتوازن ذلك مع آراء المسيح الخاصة بالمصالح الشخصية والأنانية، باهتمامه أن يكون بعيدًا عن إغراء التملك، والسلع التى اهتم بهما سميث ولوك ورفقاؤهم فى حركة التنوير، وباهتمامه أن يرى الغنى - الذى كان أحيانًا يتفق معه - يبتعد بينما يأتى الفقير ليمتلك المملكة؟

وفى تعاليم إسرائيل أخلاق اشتراكية يطلق عليها تجمع يهوه. فاليهود، الذين كانوا الأوائل فى اعتناق المسيحية، فكروا فى ضوء koinonia و ekklesia، الصحبة الحميمة والصحبة المتكاملة، لهؤلاء الذين تم "دعوتهم". (يجب ملاحظة أن تجارب هؤلاء مع الاقتصاد الاشتراكى، كما تم وصفه فى كتاب القوانين Book of Acts كانت غير تامة منذ اليوم الأول، وكانت تبدو غير مؤثرة خلال اليوم الثانى المجازى، وكانت مهجورة خلال اليوم الثالث) لكن لجعل المبدأ الحديث التنافسى - فكرة البقاء للأصلح، والاختيار الحر للذين يمتلكون لكى يقوموا باستهلاك الموارد على حساب من لا يملك أو يملك أقل - متوافقًا مع مفاهيم المؤمنين الأوائل لقوانين متطلبات المجتمع من الخيال والتغيير النفسى والعقلى الذى يترك المرء منهكًا.

وقد لاحظ المعلق الفرنسى الحكيم أليكسس دى توكيفيل Alexis de Tocque-ville فى سنوات١٨٣٠ أن فعل ذلك هو تضخيم لعنصر فى الترجمة الأمريكية العملية لمصطلح آدم سميث - ism، الذى رأى قيمة العمل بمبدأ المصلحة الشخصية بين المواطنين: "كتنظيم لعادات الانتظام، وضبط النفس، والاعتدال، والبصيرة، والسيطرة على الذات عند عدد كبير من الناس". لكنها أدت إلى فردية منعزلة، بالنسبة للمواطن الذى "يترك المجتمع ككل ليتعامل مع ذاته" (وذلك قد يتنبأ بشىء مما رآه مارفن زونيس قد حدث فى بيئة ينقصها فلسفة اجتماعية لتتماشى مع انتصار السوق.) ويذكر توكيفيل، مرة أخرى أن كل فرد فى اهتمامه بمصلحته الشخصية "يقطع نفسه عن جموع مواطنيه و ينسحب بعيدًا عن أسرته

وأصدقائه"، ناهيك عن انسحابه من المجتمع. فى البداية "تمتص الفردية فضائل الحياة العامة فقط، ولكنها على المدى البعيد تهاجم وتحطم كل الآخرين، وأخيرًا تمتصها الأنانية المحضة"(٥).

إذًا كيف يعيش الأمريكيون فى الطبيعية بكل هذه الترسبات الركامية كخصائص وموارد مختلفة بشكل متنافر كاختلاف بعضهم لبعض؟ لكن من الواضح أنهم متأقلمون مع هذا الوضع وقدرة المجتمعات على العيش مع عدم توافق نسبى واضح. وأذكر هنا، على سبيل المثال، ويل هيربرج Will Herberg، الذى بدأ فى منتصف القرن يكتب تفاصيل الدين "المدنى". تحتاج أى جمهورية لكى تقوم بمهامها إلى هذا الدين، وأن آمريكا كانت محظوظة بأن كان لديها هذه النسخة الخلاقة. ثم يأخذ جانب تعاليم الديانة اليهودية، والذى كان يبشر بها وكان أيضًا معجبًا بها و مخلصًا لها، فيقول إنه من وجهة نظر هذه التعاليم، فإن الإيمان الأمريكى المدنى أو الدينى الضرورى والصحى كان إيمانًا وثنيًا، وكانت الوثنية أسوأ خطيئة فى هذه الرؤية العبرية. وقد رأى هيربرج أن أمريكا ترتكب هذه الخطيئة وعندما تتحدث عن الدين المدنى، تتحدث بلا مبالاة، أو تقول ما مفاده لا تدع التفكير فى ذلك يثنيك عن أن تكون مخلصًا لكل من المذهبين.

وتفعل المجتمعات ما يفعله الأفراد: تعيش فيما كان يسمى بشكل متنوع "عالم الخطاب" أو"نطاق المعنى" أو "مرهون بالتجربة" والتى تسمى "أساليب". إذا سألت أى رجل أمريكى أو امرأة أمريكية على حين غرة ما هى أكبر اهتماماته، أو اهتماماتها فى الحياة، وبماذا تعيش، ووفقًا لماذا تريد لأولادها أن يعيشوا، وما هى أكبر اهتماماتها العملية اليومية والطويلة الأجل؟ ستكون إجابة الغالبية الاقتصاد: "المشاريع الحرة" هى الاهتمام الأول. "طريقة الحياة الأمريكية". "لا ضرائب جديدة"، و"ضمانات التأمينات الاجتماعية"، و "أموال كافية لإرسال الأولاد إلى الجامعة، وضمان تمضية آخر العمر فى رخاء".

ولو سألت بعد ذلك بثانية واحدة، "هل تؤمن بالله؟" ستقول الأغلبية- أكثر من٩٠٪ ـ على حذر نعم، ففى نهاية الأمر فإنهم يخافون الله ويريدون أن يعيشوا وفقًا للتعاليم الإلهية، إنهم يريدون لأولادهم والمجتمع أن يعيشوا وفقًا للوصايا

الإلهية. يريدون أن يربوا أولادهم على الأخلاق الحميدة وسط نوع ما من الإيمان. يريدون أن يتصالحوا مع الله فى نهاية العمر. وإذا ذَكرتهم قائلا "لكن منذ لحظة مضت، كنت تقول كل هذه الأشياء عن الاقتصاد، وليس عن الله". ستكون الإجابة الجديدة: "لكن منذ لحظة مضت، لم تكن تسألنى عن الله". ويمضى السائل، مشدوها بينما يمضى الآخر بقية حياته مرحًا دون أن يخالجه أى شعور بالتنافر أو التناقض، وكان يجب أن يكون هناك البعض من هذا الشعور إذا كانت الأساليب التى فى ذهننا وعالم الخطاب، كلها ذات علاقة متبادلة بشكل منطقى.

ولا يحتاج المتدينون أن يقترحوا ولو للحظة أن رفقاءهم المؤمنين هم فقط الذين يمكن أن يطبقوا الأخلاق فى مجال الاقتصاد والاستهلاك. وغالبًا ما يقضى الأكثر استجابة للتعاليم الدينية، الذين يؤيدون أساليب الحياة التى تنسجم مع هذه التعاليم، وقتهم يحاسبون أتباعهم من المتدينين لاهتمامهم بمصالحهم الشخصية و لانضمامهم لصفوف الثقافة عندما كان ينبغى أن يكونوا ضدها، يحاسبونهم لتطلعاتهم لتطبيق الأساليب العالمية مع تتبعهم لتحليل السوق بينما هم يقررون موقع أماكن عبادتهم، والموسيقى التى يستخدمونها والمنتجات التى يبيعونها، وتبرير تمسكهم "بالرأسمالية الاستهلاكية"، أو سمها ما شئت. وفى مثل هذه الحالات سيجد كثير من المتدينين التعاطف الحقيقى، إن لم يكن التواصل، مع المؤمنين الآخرين، ومع غير المؤمنين أيضًا.

وفى الوقت نفسه، كثير من المتدينين المؤيدين للاستهلاك والذين لا يحدهم إلا الاختيار الحر من جانب من يسمح لهم وضعهم بالاستهلاك، ينتقدون أنصار "الخضر" و"المساواة بين الجنسين" و"التقشف" لأنهم يقدمون بعض التنازلات. إنهم يبحثون عن، ويعلنون التناقض الصارخ بين تصريحات الذين قد يكبحون الاستهلاك وبين الأنشطة الاستهلاكية نفسها. إنهم يفحصون بدقة النصوص القديمة بحثًا عن المزيد من المبررات النادرة لاختياراتهم وتطلعاتهم. (يقول دبليو. سى. فيلدز W.C. Fields "لقد قضيت الكثير من الوقت فى البحث عن ثغرات فى الكتاب المقدس"). وسخر أصحاب مشاريع الاقتصاد الحر من مؤيدى الأخلاق الاجتماعية الذين يستخدمون الرسائل الدينية والدعم الحكومى للحد من المشاريع الحرة والاستهلاك الحر.

إذن فهناك مجموعتان من الادعاءات فى صراع عنيف، لكن يجب أن تستمر الحياة. ويتعارض الإيمان مع الفلسفات ، ومع ذلك يجب أن يستمر الاستهلاك، وسوف يظهر الاستهلاك الزائد وغير العادل. ماذا يفعل المرء الذى يتمسك بالتعاليم الدينية، أو ربما بتعاليم الإنجيل، لإحداث تغيير فى الفكر والعمل؟

الشىء الأول الذى يحدث للذين يسيرون فى اتجاه دائرة الضوء عندما تثار قضايا الاستهلاك هو أن أسلوب حياتهم سوف يخضع للفحص الدقيق. عندما دُعيت للمساهمة فى الكتابة فى هذا الموضوع، ذكّرت على الفور الناشر، الذى يعرفنى جيدا، أننى أحد هؤلاء الذين يشاركون فى الاستهلاك. فبيتى، على الطراز الفيكتورى، وهو أكبر مما ينبغى وتفرز أنابيب العادم لسيارتى عائلتى أول أكسيد الكربون. على الرغم من أن أذواقنا بسيطة نسبيا و لا نملك ما يمكن أن يطلق عليه فاخرًا، لكننا نستهلك بشكل غير متناسب مع الطريقة التى يستهلكها باقى العالم. أنا أنتمى إلى الطبقة المتوسطة العليا، ومشارك فى اثنين من تنظيمات التقاعد، والتأمينات الاجتماعية، وأنواع من التأمين الأخرى أكثر مما يحتاجه الفرد. كيف يمكننى أن أكون معلقًا ذا مصداقية ؟ أى موقف أتخذه لأنظر منه على العالم؟

حتى هؤلاء الذين يستخدمون مزيدًا من الرفاهية فأفضل لهم أن يعرفوا أنه سيأتى الوقت الذى ستظهر فيه احتياجاتهم الحقيقية. إذا كان مؤيدو الحياة البسيطة يقومون بتوصيل رسالتهم باستخدام الكلمة، وإذا كانوا يخرجون ما فى صدورهم فى المؤتمرات التى تعقد فى الفنادق التقليدية بكل ما فيها من فخامة، وإذا كانوا قد قاموا بنشر الكتب وتسويقها، وإذا بعد أن اكتسبوا حقوق التأليف، لم ينالوا أكثر من بيت يؤويهم وقطعة خبز تطعمهم، وشربة ماء ترويهم، فإنها ستكون رسالة تحمل حلاً وسطًا - إذا ما قورنت باحتمالات الاستهلاك فى معظم بلدان العالم.

والفلسفات مثل فلسفة التقشف، والتخلى عن وسائل الراحة الدنيوية، والامتناع عن السلع هى ممارسات لعدد قليل استثنائى من الذين اختاروا اتباع الدعوة إلى البساطة التامة. وتواجه هذه الأديان نفسها التقشف بادعاءات مضادة

بشأن ما تتكره وهو الخير الكثير والنعم التى وفرها الخالق للخلق. فليس من الفضيلة فى شىء ازدراء ما خلقه الله بغرض الاستهلاك على الأرض.

وهناك قصة صوفية عن يهودى زاهد سمع عن الدعوة إلى التقشف واعتقد أنها جزء من الوصايا التى تدعو إلى الاستغناء عن الطعام الشهى، والنبيذ الجيد، وصحبة النساء والأصدقاء بصفة عامة، لذلك فهو لم يشارك فى الولائم، أو يستمع لموسيقى، ولم يستمتع بأى نوع من أنواع الفنون الراقية. قد فعل كل ذلك واضعًا نصب عينيه الوعد بدخول الجنة للزاهدين.

ثم مات اليهودى وبالفعل ذهب إلى الجنة، لكن بعد ثلاثة أيام، ألقوا به خارج الجنة لأنه لم يكن يفهم شيئًا مما يدور حوله.

وهناك أيضًا فى زمن المسيح، الذى يدين له بالولاء أكثر من ٨٠٪ من الأمريكيين، نصوص مضادة تسمح وتبارك الاستهلاك. فقبل وفاة المسيح مباشرة، ذكر الإنجيل أن امرأة كانت تصب زيتًا عالى التكلفة على قدمه - والسؤال الذى يفرض نفسه هنا هو "لماذا لم يبع هذا الزيت ويستفد بثمنه الفقراء؟" - ويعرف هذا الفعل فى ذلك الحين بأنه رمز دائم للتفانى. وراقب كُتاب الإنجيل المسيح فى الولائم التى يقيمها الأثرياء، حيث كان يسمح لهم بالتمتع بأساليب الرفاهية. كيف يمكننا احتواء هذا فى أخلاقيات شاملة ضد الاستهلاك؟

أضف لهاتين الملاحظتين ملاحظة ثالثة: إذا سلمنا بوجود اقتصاد السوق الذى ليس من المحتمل عدم استمراره، ما الذى سيحدث إذا عمل الكثيرون حرفيًا فى نطاق أخلاق المسيح التى تتسم بالبساطة؟ ماذا سيكون مصير الاقتصاد، وبالتالى مصير توزيع السلع كما يتم الآن؟

لقد صور فيلم لأليك جينيس، قرية إنجليزية حيث كان كاهن الأبرشية فيها يعظ حاكمًا شابًا ثريًا داعيًا إياه لاتباع تعاليم المسيح. قال: اذهب وبع كل ما لديك، وأعط ثمنه للفقراء. لسوء الحظ، فى أحد أيام الأحد، فى جمع متفرق لرعايا القرية، كانت هناك امرأة غير متزوجة فى غاية الثراء، صدقت الرسول والرسالة، وفعلت ذلك وباعت كل ما تملك ووزعته على أهل القرية. وعلى الفور انهار اقتصاد المدينة وكانت الفوضى هى المصطلح المخفف لوصف ما حدث بعد ذلك.

وإليك أيضًا هذه الواقعة، وإن كانت أقل سخافة وأظهرت مؤخرًا كم هى محيرة هذه القضية. قامت مجلة إنجيليكية تنادى بخفض الاستهلاك وبالعدالة الكاملة، باختراع خط لإنتاج بعض الهدايا والأوعية المجوفة والمراوح، واللوحات المستوردة من العالم الفقير. وكانت الأسعار مرتفعة نسبيًا حيث أصر البائعون على أن يدفع موردو هذه السلع لمنتجيها آجورًا توافق معايير أجور بلد الإنتاج، سواء كان هذا البلد بيرو أو تايلاند. ولم يكد يصل خط السلع إلى السوق حتى تلقى البائعون شكاوى وبدأوا فى فحصها بأنفسهم وأوضحوا أن أيًا من هذه المنتجات ليست ضرورية، ولا يحتاج أى مشتر أن يقتنى وعاء خشبيا آخر للصناعة اليدوية التى لا تستخدم وليس بها أى لمسات جمالية أيضًا لكى تعتبر عملاً فنيًا ولا أن يقتنى لوحة أخرى يعلقها على الحوائط المكتظة أصلاً باللوحات. وكان القرار هو الحفاظ على بيع هذه السلع على الرغم من الانتقادات القاسية لأن دفع النقود للفلاحين الأجانب أفضل بكثير من شر استهلاك بضائعهم. قضت النفعية الدينية أو الدين النفعى بأنه من وراء هذه السياسة ستأتى المصلحة الكبرى لعدد أكبر.

منذ بضع سنوات بشر الوعاظ ليس ، ضد النزعة الاستهلاكية والترف فى التسوق فى فترة ما قبل أعياد الميلاد، فأهل الأبرشية، وانضم إليهم الوعاظ أيضًا، كانوا يأملون فى النهاية ألا تؤخذ الرسالة بجدية أكثر من اللازم. وعندما صرحت المتاجر أنها حققت أرباحا تتراوح بين ٢ـ٣٪ فى فترة أعياد الميلاد بدلاً من الـ٧٪ المتوقعة، عانى من ذلك التجار والموردون والمصنعون وكل هؤلاء الذين يعتمدون على المنتجات والممارسات المرتبطة بها، وفى نهاية المطاف عانى الرعية والوعاظ. ويعتمد الاقتصاد، الذى يوفر فرص العمل ومعايير التأمين، على الإنتاج الزائد من أجل الاستهلاك المفرط. وتبقى هذه المعضلة قائمة.

ربما كنت متسامحًا أكثر من اللازم مع الطرف الذى يسخر من المدافعين عن الحياة البسيطة، والذين ينتقدون الممارسات الاستهلاكية من جانب الشمال الغنى، وخاصة أمريكا الشمالية. لكن اسمحوا لى أن أقول إن هناك أسبابًا وجيهة للأخذ بتحذيرات، والاستماع إلى النقد الموجه للاستهلاكية. لكن على أى حال فإن الزعم

بأن الاستهلاك ذا الرفاهية العالية والإسراف المفرط من جانب الدول الغنية، لا يعنى أن الأمريكيين الأغنياء سيستهلكون على حساب الفقراء. فطعام أقل على موائد المستهلكين من العالم الغنى، لا يعنى بالضرورة مزيدًا من الغذاء على موائد الفقراء فى العالم الفقير، أو بين الفقراء. هذه المسألة فى غاية التعقيد ولا يمكن ذكرها هنا بالتفصيل.

على كل حال نحن نتفق مع كل الكُتاب فى هذا الكتاب، وفى أى مكان آخر من الذين يزعمون أن القضية الحقيقية ليست فى مقارنة "نحن" مع "هم" أو مقارنة "أنتم النهمون" مع "نحن الزاهدون". والمحك هو الإفراط فى الاستهلاك فى المقام الأول ـ لثلاثة أسباب: الاستخدام الزائد للموارد غير المتجددة التى يصعب استخدامها فى المستقبل، التلوث البيئى الذى ينجم عن الانبعاث فى الهواء، أو عن النفايات الملقاة على الأرض أو فى الأنهار الذى يعتبر دمارًا، وسوء استخدام الموارد الذى له تأثير بغيض على ما يمكن أن نسميه بالروح والوجود الداخلى والاستشراف من قبل هؤلاء المتهمين بالاستهلاكية.

تحذر النظم الأخلاقية الدينية التى تسود العالم الغنى، خصوصًا ما نسميه بالغرب، من الإفراط فى استغلال الموارد وتدمير البيئة الطبيعية. وفى تعاليم الإنجيل، وخاصة فى السنوات الأخيرة كان هناك عودة للاستجابة لنعم الخالق، وأن نكون مسئولين عن الإشراف عليها. كل هذه الدوافع مجتمعة تقود الناس لتوخى الحذر إزاء مثل هذا الاستغلال.

يستمع الفرد فى بعض الندوات لما يجب أن أسميه وصفًا رومانسيًا للطرق التى تتعامل، أو يجب أن تتعامل بها، التعاليم الدينية الأخرى ـ البوذية، والهندوسية، والأمريكيون الأصليون ـ مع قضية الاستهلاك بشكل أفضل مما فعل اليهود والمسلمون وأبناء عمومتهم الروحيون الذين هم ورثة حركة التنوير ومنتجو التكنولوجيا. ومع ذلك، غالبًا ما تُحجب هذه الصور عن نظر الترف الذى يعيش فيه القلة والإهدار الذى يسببه الكثيرون حيث تسود هذه الديانات الأخرى. كل من هذه الديانات لديه موارد للتعامل مع النزعة الاستهلاكية، وهى تعد ببعض الناتج، كما كانت أمريكا التعددية مفتوحة لهم أكثر من أى وقت مضى. لكن تقود

الوسائل التى تتعامل الثقافات بها مع التكنولوجيا ومنتجاتها، والسوق الحرة وخياراته وإغراءاته إلى الاستنتاج بأنه لا ملاذ هناك للمرء. ولم ينتج الاقتصاد الإنسانى Homo economicus فى أى مكان أى ثقافة بها الوعد بحماية المواطنين من النزعة الاستهلاكية. فقد تجاوز المشكلة بعض الأفراد والجماعات المكثفة والمنضبطة فى كل ديانة من الديانات ـ على سبيل المثال الرهبان ـ لكنهم مازالوا أقلية صغيرة.

وقد أولت الأديان بشكل ملحوظ اهتمامًا كبيرًا بهذه القضية الثالثة: ماذا تفعل النزعة الاستهلاكية بالمستهلك. وهنا مرة أخرى، الشخصية البارزة فى الفكر الدينى الغربى هى شخصية المسيح فى الإنجيل، وهى واضحة لا لبس فيها، والنصوص كثيرة. هناك من سمع المسيح وهو يقول حكاية لازاروس ودايفز. لازاروس هو الرجل الغنى والمرفه الذى لا يهتم بالرجل الفقير الذى يقف على بابه؛ كان لازاروس من المستهلكين وتم العثور عليه بعد الموت فى لهيب جهنم. يتحدث المسيح عن مزارع غنى وناجح كانت مخازن صوامعه ممتلئة. لذلك فهو يطلب من روحه أن تأخذ راحتها وهو فى مأمن مع بضائعه ـ فقط ليجد أن الروح قد أخذت منه فى هذه الليلة. إنه يدعى "مغفلا" واستهلاكه المخطط الآن خارج عن الموضوع (لوقا ١٦: ١٢ ـ ٢١) إن حياة الإنسان لا تتألف من وفرة ممتلكاته" (لوقا ١٥ : ١٢) وأقوال المسيح صريحة حول الاختيار المجسد فى الجشع Mam-mon مقابل الله. أى شخص يمكن أن يختار أيا من الاثنين لكن ليس الاثنين معًا (لوقا١٣ ـ ١٦).

فى مثل هذه الأوضاع، يعنى النمط الاستهلاكى عبادة النعمة بدلاً من مانح النعم أو يعنى أن يرى الإنسان أنه هو الذى صنع نفسه ومن ثم عبادة هذا الصانع أى الذات. ويعنى أيضًا السماح لعالم "هو" أن يتسيد بدلاً من عالم "أنت (الله)". والسماح بأن تسود للتعاملات بين البشر سواء كانت فى التعاملات البشرية أو الدينية. ويسأل مارتن بوبر، الفيلسوف ومؤلف كتاب "أنا وأنت (الله) I and Thou "هل يمكن لخادم الجشع Mammon أن يقول أنت (الله) لماله؟[٦] وفى ترجمة الملك جيمس لأحد المزامير: أعطى الله الناس ما يريدونه لكنه أنزل

الرحمة فى قلوبهم. والذين لا يولون الاهتمام الكافى لمثل هذه المقولة الدينية أن يعثروا بسهولة على نظيراتها المبنية على التجربة البشرية. و يلاحظ النقاد أنه كلما حصل الأمريكيون الشماليون على المزيد وقاموا باستهلاكه المزيد، زاد عدم رضائهم من الناحية الدينية، وبالتالى يقفون عاجزين عندما يتعلق الأمر باتخاذ قرارات جريئة.

فى أى ثقافة أو أى طبقة إذًا كان الفرد يخاف على الروح والنفس، تبدأ أى خطوة نحو فهم مختلف للاستهلاك من جانب الفرد. لكن لا يقدم أو يؤثر هذا فى توجه الفرد فيما يخص الذنب أو الخلاص من هذا الذنب فى كل ما هو لازم للتغيير الثقافى والمجتمعى والعالمى. مهما كانت تطلعات الفرد متواضعة فإن معظم علماء الأخلاق يصرون على أن أى تغيير فى أخلاق الفرد إلى الدرجة التى يقبل فيها على استعمال الموارد بدراية أكبر، له تأثيرات جوهرية ومتزايدة معًا. هى جوهرية لأنها ببساطة الشىء الصحيح الذى يتعين القيام به. وهى متزايدة إذا كان هناك تغيير فى التفكير والأسلوب عند عدد كاف من الناس مما يؤدى إلى ظهور ثقافة أفضل.

كان البابا يوحنا بولس الثانى من أكثر نقاد النزعة الاستهلاكية فى نهاية القرن من الناحية الفلسفية والدينية، ولا يمكن اتهامه بالتعاطف مع الشيوعية. وكشفت تعليقاته المستمرة على المسائل الاقتصادية عن اتزان متسق مما دعا المفكرين الكاثوليك، وغير الكاثوليك على حد سواء، إلى الاقتباس منه إذا كان ذلك يخدم أغراضهم عند المناقشة مع الآخرين. ودائمًا ما كان يعبر البابا عن مواقف اقتصادية كاثوليكية قائمة على نظريات القانون الطبيعى والتى ترجع على الأقل للبابا ليو الثالث عشر وكتابه Rerum novarum فى عام١٨٩١.

فى عام ١٩٩١ أصدر البابا يوحنا بولس الثانى كتابه Centesimus annus، الذى طرح فيه قضية الماركسية ضد "المجتمع الثرى أو الاستهلاكى" وأكد أن مثل هذا المجتمع:

> يسعى إلى هزيمة الماركسية على مستوى المادية الصرفة التى تبين كيف أن السوق الحرة يمكن أن تحقق أكبر إشباع للحاجات

الإنسانية المادية أكثر مما تفعل الشيوعية، بينما يستبعد كلاهما القيم الروحية. فى الواقع، بينما نجد أنه حقيقى، من ناحية، فإن هذا النموذج الاجتماعى يدل على فشل الماركسية فى المساهمة فى إيجاد مجتمع إنسانى أفضل، لكن من ناحية أخرى فإنه بقدر ما ينفى الوجود والقيمة المستقلة للأخلاق، والقانون، والثقافة، والدين بقدر ما يتفق مع الماركسية، بمعنى أنها تحول الإنسان تمامًا إلى مجال الاقتصاد وإشباع الاحتياجات المادية(٧).

ويكتب البابا موضحًا ما سبق قائلا:

تكشف ثقافة معينة عن فهمها للحياة من خلال اختيار ما تقوم بإنتاجه وما تقوم باستهلاكه. وهنا تنشأ ظاهرة حماية المستهلك. إن النظام الاقتصادى فى حد ذاته لا يملك معايير للتمييز بشكل صحيح بين أشكال جديدة وأعلى لتلبية الاحتياجات، وبين احتياجات جديدة مصطنعة تعوق تشكيل الشخصية الطبيعية، وبالتالى هناك حاجة ماسة لقدر كبير من العمل التربوى والثقافى، بما فى ذلك تعليم المستهلكين كيفية الاستخدام الجيد والمسئول لسلطتهم فى الاختيار....

ليس هناك أى خطأ فى أن يرغب الإنسان فى حياة أفضل، ولكن الخطأ هو فى أسلوب حياة من المفترض أن يكون موجها لأن "تمتلك" بدلاً من أن "تكون". حتى القرار بالاستثمار فى مكان بدلاً من الآخر، أو فى أحد القطاعات الإنتاجية بدلاً من الأخرى، هو دائما خيار أخلاقى وثقافى(٨).

وانتقالنا لهذه النقطة، يدفعنا لإثارة مسألة التناقض الكامل الملاحظ فى هذا المقال. كيف نوفى حق دعوة الرفض والتنازل وضبط النفس، على حساب الاقتصاديات القائمة؟ ومن ناحية أخرى، كيف لنا أن نوفى حق الحفاظ على الاقتصاديات الحيوية من خلال شراء الكثير من السلع واستخدامها؟ كما أشرنا ضمنيًا من قبل، فإن التجول على أرض المعركة، تدعى "أرضية مشتركة"، هى دعوة للهجوم من كل من الطرفين ولن يكون ذلك مرضيًا لأى منهما.

كتب علماء البيئة مثل بول أرليخ مقالات عن أن وجهات نظر "التوازن" أو "منتصف الطريق" لن تجدى عندما يتعلق الأمر ببيئتنا ومواردنا المستقبلية. وغالبًا ما يرى رجال اقتصاد السوق الحرة أن البحث عن أرضية مشتركة، مع مزيج من الدفاع الأيديولوجى عن السوق الحرة، وضبط النفس هو أيضًا موقف "منتصف الطريق لكنه موقف مشوش". هل هناك طريقة ما للإمساك بتلابيب هذه المعضلة، أو طريقة ما للتفاوض على الخطوات الأولى نحو سياسات أكثر إنتاجية وأنماط خلاف تلك التى لدينا الآن؟

بدلاً من البحث عن حلول توفيقية وسطية، أود أن أؤكد على مفهوم قديم قدم أرسطو ومناهض للثقافة كما لو كان من عالم جماعة المينونايت المسيحية، كما ركز عليه سورين كيركيجارد Soren Kierkgaard ـ وتم إعادته مع تركيز منتظم وضمن آخرين، جون سى جى هويىJohn C. Haughy و.S.J ـ فى كتاب بعنوان الاستخدام المقدس لرأس المال: التمويل الشخصى فى ضوء الإيمان المسيحى Use of Money: Personal Finance in Light of Christian Faith وهو مفهوم اقتصادى ومثالا للاستخدام الخلاق للموارد وسأستهلك أحد فقراته وأقدمه هنا:

أعنى بالتوازن أن الناس (وبالتوسع الجموع) لديهم وجود ذاتى كاف وأن مواردهم المادية والمالية يتم الاحتفاظ بها كوسائل بينما قلوبهم تفرز كل ما هو جيد ليتم اختيار كل ما هو ذو قيمة ليتم التعبير عنه، أو الغرض الذى يجب اتباعه. ومرادفًا لذلك هو فردية القلب أو اللامبالاة بمعنى أنه بغض النظر عن شعور الفرد، يختار الفرد أن يفعل هذا أو أن يتخلى عن ذلك، وهكذا فالتوازن هو روح الاتزان التى يمكن أن يزن قوى سحب متضاربة وألا يعمل بشكل إلزامى أو بإدمان حتى يمكن أن تعبر خيارات الفرد أو استخدامه للأشياء عن ذاته العميقة أو عن باطنه(٩).

ويعرض هويى فى صفحات لاحقة الموضوع فيقول:

ما ينتج عن التوازن هو قدرة الناس على تقرير مصيرهم. وما يتقلص هو مقدار ما تمارسه قوى خارجية على هذا المصير وإخضاع الطاعة لتمتد وفى هذا

الاتجاه، ويعزز إمكانية التزام الفرد بحرية ويحب وهى الأشياء التى يصنع منها الخلود[١٠].

لكنى أفضل المصطلح "توازن" عن "اتزان" لأن "الاتزان" يتضمن الخمول، بينما "الاتزان" فى مصطلح "التوازن" يوحى بالاستعداد للحركة.

وفى مثل هذه الفقرات، فإن نصيحة البحث عن اتزان من خلال الاعتدال تعود إلى أرسطو أو إلى توماس أكويناس، وقد سيطرت فكرة "تفرد القلب" على كركيجاردKierkegaard، وكانت الفروق الإيجابية والإبداعية هى فكرة طائفة مينونايت المسيحية(Gelassenheit)؛ أما التركيز على الخلود فيأتى مجاملة لكاثوليكية هويى. وعلى الرغم من أن فى المجتمع وقد يجد الكثيرون هذه التفاصيل أو تلك غير متجانسة أو لا يسهل زرعها، فإنه ينبغى أن يكون لديهم القدرة على أن يروا فيها تصديًا لحياتهم التى يمكن أن تكون بالقياس منتجة حضاريًا واجتماعيًا. وفى جميع الأحوال، فمن الواضح أنه يتم اتخاذ القرارات الشخصية ضمن سياقات ثقافية معقدة، ويساهم فهم ذلك فى إدراك ما يقوم به الناس فى وقت ومكان معين فى البحث عن معنى فى الحياة.

يرى اليوم الكثير من المحللين، مواطنى أمريكا الشمالية من منظور المراكز التجارية "تسوق حتى تسقط"، حيث يتحولون إلى استهلاكيين، ورغم ذلك يظلون غير راضين عن المعنى وبالتالى فى قدرتهم على اتخاذ قرارات. ويصف ذلك اثنان من علماء الأخلاق واللاهوت وهما هيرمان إى. دالى، وجون بى. كوب الابن:

مع انهيار المجتمع على جميع المستويات، أصبح البشر أشبه بنموذج تقليدى للإنسان الاقتصادى Homo economicus كما تم وصفه. وأصبح التسوق هواية وطنية عظيمة... وقد بدد الأمريكيون تراثهم وتسببوا فى فقر أطفالهم اعتمادًا على الاقتراض والمبيعات الضخمة للأصول الوطنية[١١].

ويصف جون هويى فى كتاب آخر هذا "الشغف من أجل المزيد" Pleonexia "بالنهم للحصول على المزيد أكثر مما سبق لى تجربته أو امتلاكه، ولو كنت أمتلك أكثر بقليل مما لدى لكنت أكثر سعادة. ويردد هويى كلام المسيح يقول فى لوقا١٥ : ١٢ "تجنبوا الشغف من أجل المزيد فى كل أشكاله"[١٢].

قال العالم والفيلسوف الفرنسى بليز باسكال ذات مرة إنه بدلا من السعى وراء الأمور الوسطية التافهة ينبغى للمرء أن يؤكد على ما هو قيم فى اتجاهين على النقيض، ثم يتبنى بعض المظاهر فى كل منهما على حد سواء. ويفعل بذلك مفهوم وممارسة التوازن ـ على الرغم من أنه فى هذه الحالة لابد أن يستكمل ويحدث من خلال الاهتمام بالمجتمع، وممارسة السياسة والنظر إلى أولئك الذين ليست لديهم إمكانية الحصول على الموارد وليس لديهم ما يقلقهم بالنسبة للنزعة الاستهلاكية وبالنسبة الاستهلاك.

لا أستطيع أن أتخلص من التفكير

فى أزمة الانقراض هذه

ستيفانى ميلز

بالأمس كنت أتحدث مع ليندا جريج Linda Grigg، وهى من أصحاب المزارع العضوية، حول النزعة الاستهلاكية. قالت ليندا إنها سعيدة نوعًا ما لأنها هى وزوجها، جيم موسى Jim Moses، لن يحصلا أبدًا ما يكفى من المال لإغرائهما بالقيام بأفعال، مثل شراء منزل قيمته مليون دولار، بواجهة تطل على بحيرة ميشيجان، ثم إعادة ترميمه بمبلغ ٧٠٠,٠٠٠ دولار (مثال فعلى للاستهلاك الضخم قد سمعت عنه للتو من صديق مقاول). وتختلف ليندا عنى، فى أنها لم تغضب، أو حتى تظهر سخطها لهذا العرض البلوتوقراطى، لأنها كانت من الحكمة لترى أن أصحاب هذه القصور المطلة على البحيرة، يفعلون ما يتناسب بشكل طبيعى مع أناس فى وضعهم. من الواضح أن ما قد اعتبره إنفاقًا مظهريًا إلى حد كبير، له منطقه الداخلى والسحرى الخاص به. وبالمثل، فإن كثيرًا مما أنفق، هو منطقى بالنسبة لى، لكن مما لا شك فيه قد يبدو ضخمًا بالنسبة لخبير اقتصادى. ما يعتبر ترفًا بالنسبة لامرأة، هو من الضروريات بالنسبة لأخرى، ومعظمنا يُعرف كلمة "كافى" ب"مجرد أكثر بقليل".

أنا، مثلاً، لا أمانع فى امتلاك بعض الأراضى، فقط إذا كان ذلك سيوفر لى الخصوصية المطلوبة. بالصدفة اشتريت ثلاثين فدانًا من جارى الذى أراد بيعهم، وكنت أنا قادرًا على الشراء. فيما عدا زراعة بعض الأشجار، الشىء الوحيد الذى أفعله بأرضى هو أن أقيم عليها. لبضع سنوات مضت، كان الكل يحتفظ بمنازله. الآن، الكل من حولى، يقوم بالمضاربة الشرسة المستمرة على الأراضى. والتى كانت

فى وقت ما مزارع ريفية عابرة، أصبحت الآن مليئة بالمنازل على قطع أراضٍ صغيرة. وفى الواقع، لست متأكداً، من الناحية الأخلاقية، أنه يمكن دفعى لبيع فدادين قليلة من أرضى لكى أحافظ على مستوى معيشتى. (وأنا متأكد من أنى لن أرغب فى مشاهدة ماذا سيفعل الملاك الجدد بالأرض). فى هذه المرحلة من اللعبة البيئية، كل شكل تقريباً من أشكال استخدام الأرض، هو فى الحقيقة إساءة فى استخدام الأرض.

قد أصبح من الطبيعى امتلاك الأرض والتصرف فيها كما لو كانت شيئاً لا حياة فيها، كما لو كان يمكن التعامل مع قطعة الأرض بشكل منفصل عن سياقاتها المتعددة. قد يكون من الطبيعى الآن استهلاك ليس فقط المحاصيل الضرورية من الأرض، بل أيضاً استهلاك حياة الأرض نفسها، لكن هذا، من وجهة نظر الجيران، والكائنات الأخرى، والأجيال القادمة، هو الخطأ بعينه. وكما كتب ألدو ليوبولد Aldo Leopold قبل خمسين عاماً فى مؤلفه تقويم مقاطعة رمليةSand County Almanac، "يعتبر الشىء صحيحاً وسليماً عندما يحافظ على سلامة، المجتمع البيئى واستقراره وجماله. ويعتبر ضاراً عندما يميل إلى عكس ذلك"(١). هذا هو جوهر أخلاقيات أرض ليوبولدLeopold.

لاحظ ليوبولد Leopold أيضاً أنه "ربما تكون أخطر عقبة تعرقل تطور أخلاقيات الأرض، هى حقيقة أن نظامنا التعليمى والاقتصادى يتجه بعيداً عن، بدلاً من اتجاه، وعى شديد بالأرض." فى الواقع، قد يكون الوعى الشديد بالأرض، الذى لا يدخل فيه المال طرفاً، محبطاً جداً. كتب ليوبولد نفسه بصراحة يقول: "إن إحدى عقوبات التعليم البيئى أن يعيش الفرد بمفرده فى عالم من الجروح."(٢) وما يطلق عليه البعض تطويراً هو بالنسبة لى تشويه.

أقيم ليس بعيداً عن مكان للسباحة، بحيرة مثالية، بحيرة صغيرة جميلة كانت أول مكان وطأته قدمى عندما وصلت إلى هذه المقاطعة، التى أصبحت بيتى الجديد. أخذنى مضيفى، بعد رحلة طيران طويلة من ولاية كاليفورنيا وقيادة طويلة من المطار، إلى البحيرة للسباحة على ضوء النجوم. فى عام ٩٨٤، كان هناك كوخ منعزل على شاطئ البحيرة محاطا بأشجار الغابات، وكان ملاك هذا

الكوخ يقومون بزيارته زيارة قصيرة فى الصيف. أما بقية العام، كانت البحيرة مكانًا مشاعًا لأهل الجيرة: فكانت ملهى الشاطئ للعائلات، وللصيادين من الجنسين. وهناك فى المياه الضحلة، أسماك المنوه التى يطاردها الأطفال. وأحيانًا، ترى طائر البلشون يطير فوق الماء عند الفجر، يستولى على حظ الصيادين من السمك. وفى كلمة واحدة، كانت البحيرة جنة.

ثم، قبل بضع سنوات، عند التقاطع المؤدى للبحيرة، ظهرت لوحة إعلانات تعلن عن بيع مبانى ضيقة تتمحور، مثل عصى مروحة يابانية، على محور صغير فى مواجهة البحيرة، مع إشارة عن تقسيم مستقبلى. وشيئا فشيئًا، بدأت الأراضى تباع. وكانت كل حالة بيع تعلن على اللوحة البغيضة. وفى كل مرة كنت أمر أمام هذه اللوحة وأنا على دراجتى فى طريقى إلى البحيرة للسباحة، وكنت أشعر بالازدراء تجاه هذا المستثمر. بعد عام، قررت أن هذا البلاء مدمر للروح. طلبت مقابلة المستثمر المسئول عن هذا التطوير. لم أكن متأكدًا بالضبط ماذا كنت أتوقع من هذا اللقاء: هل بالنسبة لنا، أن نتحدث كبشر، وبالنسبة لى أن أقدم تعديلات لعدائى المرن؟ ربما كنت آمل فى معجزة. وما حصلت عليه كان لقاء جاء صدمة لى، وجعلنى فى حالة بكاء. لكن بكائى لم يحركه قيد أنملة. وعندما أخبرته أننى مهتم بكل ما يحدث لكل أنواع الحياة حول البحيرة، غضب فجأة. وأبدى أسفه الشديد لأن المالكين القدامى للبحيرة قد منحوا حق ذهاب الجمهور للبحيرة. وتقريبًا اتهمنى أنا وأسرتى بالعاطفية، وأننا مصرون على انتزاع لقمة العيش من أفواه أطفاله.. إلخ.

وتمت التقسيمات الفرعية، وتم توفير الغذاء لأطفال المستثمر، وبدأت الآن تمتد عدة منازل كبيرة إلى الغابات، على جانب البحيرة. بدأت تخترق أحواض المراكب، وبعض المراكب المتواضعة لهذه المنازل على الشاطئ. هناك الآن ممرات وقطع أراضٍ خالية من الأشجار. تأثير هذه المستوطنة الجديدة هو المعتاد: تجزئة الطبيعة - وانخفاض فى وسائل السلامة، وفى استقرار الطبيعة، وفى جمالها. ظروف الحياة اليومية فى الضواحى - والمروج، ونظم الصرف، والسيارات التى تعبر الطرق، التى كانت مسارًا للحيوانات الليلية إلى المياه، والنباتات التى تزدهر

فى الممرات التى تملؤها الشمس، والضوضاء خلال موسم بناء الطيور لأعشاشها، بالإضافة إلى البعض مما يمارسون هواية اصطياد الضفادع والأسماك، كل ذلك كان وبالاً على الجميع فيما عدا الأعشاب والحيوانات. وبغض النظر عن اعتمادنا كمهتمين بالبيئة، نحن بناة المنازل الجديدة (لأننى أحدهم) نرتكب تدميراً بيئياً، ليس فقط فى الأماكن التى نبنى فيها بيوتنا، لكن أيضاً فى الأماكن التى يأتى منها الخشب. وهكذا، وبكل أنواع استهلاكنا الباقية، نلعب أدوارنا المتواضعة فى أزمة انقراض الأرض السادسة الكبرى. ونظراً إلى حد كبير للتدمير البشرى، المتزايد والمطرد للبيئات، فإن حالياً معدل الانقراض هو نحو ألف مرة أكثر من طبيعى. هذه هى الطريقة السريعة التى يفقد بها المجتمع الحيوى لكوكب الأرض، هذه الأيام، بعض الأنواع.

وليس من العزاء بشىء، بالنسبة لى، أن أعيش فى ذروة النزعة الاستهلاكية فى أمريكا الشمالية، بصفتى مالكة لمنزلى، ولدى حرية اختيار سيارتى، وأملك كمبيوتر، وماكينة إسبرسو للقهوة، ومجفف شعر، وتى شيرت من أحد الماركات (على افتراض أننى أستطيع دفع ثمنه). لا أستطيع التخلص من التفكير فى أزمة الانقراض هذه. والانقراض ليس على الإطلاق شيئاً مجرداً. إنه آلاف من حالات الخراب لكائنات هى الأخيرة من نوعها. وبذهاب البيئات، يذهب السكان. وقد دُمرت الغابات اللازمة للطيور المغردة لبناء أعشاشها دون مضايقة. ولأن صيد الطيور هو هواية شائعة لتضييع الوقت ، لذا فقد توفرت لنا معلومات عن مصير طيور الغابة أكثر مما متوفر لنا عن باقى سكان الغابات - السمندرات، والعث، والزبابات، والخنافس. لكن يمكننا أن نفترض أن منطقياً، معظمهم يجدون صعوبة فى الحصول على ميعاد أيضاً.

يبدو أن الحياة تريد أن تملأ جميع الأماكن، وأن تفعل ذلك بتنوع عجيب. وتتكيف الأجيال، والنباتات، والحيوانات مع المكان. و"المكان" يمكن أن يكون صغيراً وعابراً كالبرك الربيعية الضيقة: "المكان" أيضاً يمكن أن يكون غابات الأخشاب الواسعة، والتى كان محصولها من بذور ومكسرات، وتوت يمكن أن تحافظ على حياة بلايين من أسراب الحمام العابر. على الرغم من أنه من قبيل المبالغة القول

إننا ندمر الأرض، لكننا والنشاط البشرى قد قلص الأماكن، وبذلك قضى على سكانها من النباتات والحيوانات، وجعل الأماكن مفتوحة أمام الغزوات الأجنبية (وأجنبية هنا لا تعنى "من الفضاء الخارجى" لكن كل ما هو "غريب عن هذا النظام البيئى بالذات").

وقد استشرت توماس فورد Thomas Ford، وهو فنان الحياة البرية المحلية، بخصوص طيور الخشب المغردة، واخبرنى بالقصة التالية عن الاغتراب. قال إنه أصبح الآن لدى طيور الكاوبيرد بنية الرأس أماكن فى الغابات لخداع الطيور الأخرى لتربية صغارها. وذلك يرجع إلى أن أطراف الغابة أصبحت مفتوحة بعد قطع الأشجار لإيجاد الطرق والأراضى، وتعلمت طيور كاوبيرد (التى كانت تعرف بافالوبيرد) هذه الخدعة، عندما تبعت طيور البيسون عبر السهول الكبرى، لتتغذى على الديدان التى تظهرها للسطح ملايين من حوافر هذه الطيور. وتضع طيور كاوبيرد بيضها فى أى عش يمكن أن تجده ثم تتجول، تاركة صغارها فى رعاية الطيور الأخرى. اليوم، مع الحقول، والمروج الخضراء، والطرق التى تعبر الغابات ، يستولى طائر الكاوبيرد على أعشاش الطيور المغردة، وطيور أخرى فى الغابة. وتغتصب صغار طائر كاوبيرد غذاء الطيور المغردة ـ وبالتالى يزيد عدد طيور كاوبيرد ويقل عدد الطيور المغردة. إنها قصة يصعب تضمين تفاصيلها فى خطة استغلال الأراضى، لكنها توضح النتائج غير المتوقعة للأعمال التى يشير لها البعض بالتطور، والتقدم، والتنمية. والتأثير البشرى على هذا الكوكب بأكمله، مع وجود ملايين من مثل هذه الاختلالات ، كبير لدرجة التجاوز. وفى مقال فى مجلة العلوم، عدد يوليو ١٩٧٧، عددت بعض مظاهر هذا التأثير:

> نتج عن عمل الإنسان، تحويل ما يتراوح بين ثلث ونصف مساحة اليابسة ونصفها على سطح الأرض؛ زاد تركيز ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى بنحو ٣٠٪ منذ بداية الثورة الصناعية؛ قام البشر بتثبيت مزيد من نيتروجين الغلاف الجوى أكثر من كل المصادر الطبيعية الأرضية مجتمعة، واستخدم البشر أكثر من نصف المياه العذبة المتاحة على

سطح الأرض، وتم دفع نحو ربع أنواع الطيور على وجه
الأرض نحو الانقراض[٣].

لم تتم تغيرات بهذا الحجم كلها مرة واحدة، على الرغم من أنها تضاعفت مؤخرًا. واستهلاك الحياة الفعلية للأرض، ليس اختراعًا أمريكيًا؛ بل هو عادة الحضارة. لكن اللقاء الأوربى مع الأمريكتين، الذى بدأ منذ خمسة قرون فقط، كان بمثابة الشرارة التى أشعلت النيران: تم ترويض أنماط استخدام الأراضى خلال ألفيتان. أصابت الحضارة الحياة البرية فى أمريكا الشمالية، وأزعجت قارة يسكنها بضعة ملايين من الهنود، التى ساهمت ثقافتهم المتنوعة فى جعلهم فى حالة توازن مع الأرض.

وإذا وضعنا جانبًا الفكرة المثيرة للجدل أن الهنود الأوائل، الذين عبروا جسر بيرنج البرى، كان لهم يد فى انقراض الحيوانات الضخمة من الثدييات، فكرة أن استيطانهم للأمريكتين صنعت تغييرات طفيفة فقط ـ وهذه حقيقة. والدليل على مهارة الهنود فى رعاية الغابات، والبرارى، والصحارى يتم التعرف عليه الآن فقط. اليوم، تهدد عولمة أمريكا الشمالية ـ نمط النزعة الاستهلاكية، بإغراق أى ثقافات متبقية للشعوب الأصيلة التى تتمتع بعلاقة أخلاقية مع بيئتها. وإذا تُركت لإرادتها الخاصة، لكانت هذه الشعوب الأصيلة فى نهاية المطاف، اخترعت وسائل خاصة بها للإنتاج الموسع من المواد الخام البرية. لكن نحن لن نعرف ذلك أبدا. ومع ذلك، فإنه من الأفضل لو عرفنا مزايا منظور العالم الروحى الذى نما عندهم الشعور الحيوى بالتواصل مع أكثر من الطبيعة البشرية، وقدرتهم على تجربة العيش برضا واطمئنان دون أن يكون لديهم ممتلكات.

وكانت الشعوب التى تتجول بحثًا عن الطعام، مثل شعب الهنود الحمر، تميل إلى مشاركة بضائعهم القليلة وذلك لنشر سلطتهم. كان رد فعل تجمع الصيادين على ندرة المواد الغذائية هو الهجرة، أو إنجاب عدد قليل من الأطفال، أو الموت فى الثلاثينات من عمرهم. ولم يكن تخزين الحبوب اختياريا. ويأتى الطعام مباشرة من الأرض، من خلال تبادل مقدس، فيعتمد الازدهار على التبادل والتناوب. قد يتناوب، مثلاً، التقشف مع الولائم. وقد يأكل الهندى الذى يسكن

السهول عدة أرطال من لحم الجاموس، الذى قام بصيده، فى جلسة واحدة. وليقتل الجياع أنفسهم! ربما تنذر النزعة الاستهلاكية المتفشية اليوم بمجاعة الروح لمجتمع مبعد عن حيوية الأرض.

وعلى الرغم من أن النزعة الاستهلاكية لأمريكا الشمالية، قد تكون مرحلة الذروة لعملية تاريخية مطولة، فإن هذا لا يعنى أن النزعة الاستهلاكية هى، بطريقة ما، طبيعية. لعبت سلطة النخبة، على مدى تاريخ البشرية، دورًا فى توجيهنا بعيدًا عن المشاركة فى الطبيعة، ونحو مادية هادفة.

بالزراعة اقتربت الإنسانية من النزعة الاستهلاكية درجة. وتنتج عن الزراعة فائض السلع القابلة للتخزين، التى تسمح بمستوطنات ثابتة، وبمركزية، وبالتخصص، وبالتقسيم الطبقى الاجتماعى، وبالتالى بالحضارة. ومنذ ذلك الحين، ومنذ إقامة أول المدن الرئيسية، وتشكيل الحكومات الدينية، كانت النخبة الحاكمة هى الأساس الذى قاد الاستهلاك، والحصول على الكماليات والترفيه بالقوة القهرية، أو من خلال التذرع بالخوف من الله، أو أساطير الحق الإلهى، وتقاسم الأرباح. ومن أجل دعم الملوك، والخانات، والفراعنة، والأباطرة، وسادة إقطاعيين، واللوردات، وكبار المسئولين التنفيذيين، كان على الرعية من الجماهير استغلال الأرض.

فيما عدا بعض المناطق البيولوجية المستنفدة (الهلال الخصيب، على سبيل المثال، أو ما كان يسمى حوض البحر الأبيض المتوسط)، فإن هذه الحضارة الزراعية "عملت" على مدى خمسة وأربعين قرنًا. مع انحسار العصور الوسطى، بدأت التجارة تكسر قيود الجمارك، لجعل التبادل الإنسانى تبادلا تجاريا، وأصبحت الأرض والعمل، ورأس المال سلعًا، وأصبحت القدرة على العيش تتوقف على القدرة على الحصول على المال للشراء، بدلاً من القدرة على صنع الضروريات الأساسية وتقديمها. وأصبحت ضرورة الحفاظ على صحة الأرض، ضرورة لا تتطلب الاهتمام الفورى أو العملى بالنسبة للكثيرين.

لم تكن الهجرة البريطانية المبكرة إلى أمريكا الشمالية مدفوعة كثيرًا بحب المغامرة، بقدر ما كانت بسبب التفشى الهائل للفقر. كان سوق الصوف مزدهرًا

فى القرن السادس عشر. الأراضى التى كانت مراعى الأغنام، والتى كانت فى السابق ملكية عامة للقرى، أصبحت الآن "محاطة بسياج"، أو هى ملكية خاصة. وأهل هذه القرى، الذين كانوا لقرون يقسمون بينهم مختلف المنتجات العامة، حتى ولو كانت نسبة ضئيلة -مثل العلف، والحطب، والسماد العضوى - وجدوا أنفسهم نازحين من الأرض بموجب قرارات. الآن أصبحوا عددًا زائدًا على السكان، يبحثون عن العمل، لكن نادرًا ما يجدون عملاً، وعليهم أن يقبلوا بالقليل مقابل عملهم، وقد يتجهون إلى المدن ليتسولوا. أو فى مقابل عبور المحيط الأطلنطى إلى العالم الجديد، قد يضيقوا على أنفسهم لعدة سنوات، على أمل الحصول بعد ذلك على بعض الأراضى المشاعة التى كانت ملكًا للسكان الأصليين لأمريكا الشمالية. ومع ذلك، استطاع عدد قليل جدًا من المستوطنين الإنجليز الفقراء الجدد أن يحققوا هذه الآمال. لكن فى العالم الجديد، توزع الملكية بشكل غير متساو كما كانت فى العالم القديم الذى تركوه وراءهم.

بغض النظر عن وضع المستعمرين، فبالنسبة لأناس تشكلت فكرتهم عن الطبيعة فى ريف إنجلترا الأخضر الممتد، كانت رؤية الغابات الشرقية الواسعة والكثيبة مرعبة. وكان الساحل كله مروعًا، حيث الطقس شديد القسوة، ولا يناسب المحاصيل المألوفة لهم. هؤلاء المهاجرون من أراضٍ أزيلت غاباتها منذ وقت طويل، تغلبوا على رعبهم وقللوا من حدة فقرهم، أو جشعهم، فى نوبة من الغزو والاستهلاك. لقد رأوا فى أمريكا الخشب، وليس الغابات: وقودًا لا حد له، وثروة من أخشاب السفن، وفوضى فى الصيد، ولا توجد غابات ملكية يمنع الصيد فيها؛ دعوة مسرفة للصيد، وتقطيع الأخشاب، والاحتفال أمام النار.

كان استهلاك الأراضى الأمريكية، إلى حد كبير، مسألة تجارية. كانت لشركات المساهمة المشتركة، حق امتياز استعمار العالم الجديد وتحقيق الربح لمستثمريها. و كانت المزارع التى تنتج السلع مثل التبغ، والسكر، تتطلب تقليب الأرض، وعمالة رخيصة من العمالة المؤقتة، أو من العبيد. وإذا تقدمنا أكثر شمالاً وغربًا، نجد أن تجارة الفراء وصلت، باسم الموضة، إلى عمق البرية الأمريكية، للحصول على فراء حيوانات الطاقم، والمنك، والدلق، والقضاعة، والصياد، وثعلب

الماء والثعلب الأحمر، والذئب الرمادى، والدب الأسود، والقندس. ولقد كانت مشاريع ضخمة. ووفقًا لبيتر ماتيسين Peter Mathiesen فى كتابه الحياة البرية الأمريكية Wildlife in America الذى كتب يقول:

وزعت شركة خليج هدسون للمبيعات، فى نوفمبر١٧٤٣، عدد٢٦٧٥٠ من فراء حيوان القندس، فضلاً عن ١٤٧٣٠ من فراء الدلق و١٨٥٠ من فراء الذئاب: وكون هذه الحيوانات لم تكن، بأى حال، الضحية الوحيدة، حتى بين النوع الذى تنتمى إليه، توضحه حقيقة أنه قد تم استلام، فى ميناء روشيل الفرنسى فى العام نفسه،١٢٧٠٨٠ قندسًا، و٣٠٣٢٥ دلقًا، و١٢٧٦ ذئبًا، فضلا عن ١٢٤٢٨ قضاعة، وصيا، و١١٠٠٠٠ راكون، وعدد مذهل لـ١٦٥١٢ دبًا. فلينظر بعناية فى هذه الأرقام هؤلاء الذين لا يأملون اليوم فى رؤية واحد من هذه المخلوقات فى البرية بدون بذل جهد كبير للقيام بذلك(٤).

وكان شعب لاكوتا يسمى الرجل الأبيض واسيشو wasichu ، وتعنى "الذى يسرق الدهون". وكان هناك أيضًا عبارات تعنى "الذى يقطع بساتين الشكران من أجل لحاء الدباغة، ويترك زنود الخشب تتعفن"؛ "الذى يغرق التربة بالماء فى سفوح سييرا بولاية نفادا بحثًا عن الذهب". الذى يقطع أشجار البيكان للحصول على المكسرات" لأن جميع هذه الأعمال ميزت بعض المهاجرين، أيضًا.

ما قبل الحضارة، عاشت مجموعات بشرية داخل أنظمتها البيئية، أو عند مصبات المياه ـ لقد سكنوا الأماكن التى تمنحهم الحياة. بثقافاتنا الضخمة، كنا أنواع متنوعة متأقلمة مع موقعها البيئى. لكن تقلل التجارة من الولاء للمكان. وعلى الرغم من ذلك، فى بداية القرن العشرين، كان لا تزال هناك معاقل للعيش فى المناطق الريفية فى أوروبا وأمريكا. وقد قام كثير من أجدادنا بالتوفير الذاتى للطعام، والملبس والمأوى، والنقل، والترفيه. لدفع ثمن السلع التى لا يستطيعون صناعتها بأنفسهم أو تلك التى لا يستطيعون الاستغناء عنها، قاموا بزراعة المحاصيل التى تدر المال. ونادرًا ما كان الفائض يشكل مشكلة. وفى نهاية القرن، أصبحنا مستهلكين، وليس منتجين. نحن تحت رحمة عمليات صناعية تكاد تكون غير مفهومة. ولأننا نبعد مسافات ـ عمليًا، وجغرافيًا، وتكنولوجيًا، عن الأماكن

التى تزودنا بسبل الإعاشة، فإن معظمنا يجهل مصدر مياه الصنبور التى لدينا، ومصدر غذائنا. إلا إذا كنا نعيش فى نيجيريا، أو الكويت، أو على المنحدر الشمالى لألاسكا، فإنه ينقصنا الذكاء المادى لمعرفة ماذا يعنى تزويد ملايين محركات الاحتراق، التى نعتمد عليها تمامًا، بالوقود. إذا لم نكن من ريف ولاية ماين، شمال أونتاريو، أو من الأبالاتشيا الوسطى، أو من شمال غرب المحيط الهادئ، فنحن نفتقد المعلومات حول مصدر الورق الذى نستخدمه، وتكاليف نقل الخشب من المنحدرات. لأن مصادر، سلعنا وتجهيزها وتصنيعها منتشرة على نطاق واسع جدًا، فإنه من المستحيل تقريبًا بالنسبة لنا، أن نفهم الآثار المترتبة على طريقتنا فى الحياة، على المجتمع الحيوى. اليوم، ليس فقط سكان أمريكا الشمالية، لكن أيضًا سكان الأماكن الأكثر ثراء من العالم، يحصلون على وسائل معيشتهم، وكمالياتهم من المحيط الحيوى ككل. وأولئك الذين لديهم الوسيلة، يتسوقون من السوق العالمية.

قد تؤدى معرفة بعض التكاليف الحقيقية لسلعنا الاستهلاكية، إلى إدراكنا البائس بتمسكنا بالعادات التى تهدد الحياة.

على الرغم من أننى أبذل كل الجهد للتقليل من مخلفاتى للحد الأدنى، لكننى، ومع ذلك، أشارك فى نظام يجمع المخلفات بالنيابة عنى، ويلقى بها بعيدًا عن الأنظار، وإن كان ليس بعيدًا بالدرجة الكافية، وليس بعيدًا عن ذهننا. ولأننى أعيش على بعد ميل شمال مقالب القمامة الصحية الإقليمية، فإن مخلفاتنا تقبع أمام وجهى. وفى المرات العشر، أو نحو ذلك، التى ذهبت فيها لتفريغ أكياس القمامة، كنت أواجه جزءًا من الاستهلاك الملقى. لكن ليست فقط محتويات المخلفات غير القابلة للتحلل البيولوجى، هى الدليل الكافى على الاستهلاك. فيمكن لكل أمريكى أن يملأ فى الأسبوع ٣٠٠ كيس من أكياس التسوق، بالموارد التى يستخدمها ـ الفحم، الغاز، الحبوب، والتربة التى تتآكل. ومع ذلك، لا أتصور عدم إعادة التدوير هذه الموارد، على الرغم من أننى أعلم أن ذلك مثل إطفاء النار المشتعلة باستخدام دلو مثقوب. وتحويل جزء ضئيل من مجرى النهر هو لفتة صالحة، كذلك إعادة تدوير المخلفات، ومحاولة لعدم التفريط فى الأرض. لكن

رحلة إلى مركز تسوق ـ منبع الفيضان من السلع التى تتدفق فى المقالب ـ يشير إلى أن إعادة التدوير قد تكون وسيلة خاطئة لمعالجة المشكلة.

وأتحمل مسئولية أخلاقية عن العواقب المترتبة عن استهلاكى، لكن نحن المستهلكين لم ننشئ نمط الحياة. وقد استلزم الأمر إقناعًا لا هوادة فيه، وفى بعض الأحيان إكراها، لتجاوز القيم المشتركة فى الإنفاق. وخلال القرن العشرين، وعن طريق وسائل الإنتاج الضخم والنقل العالمى، أصبحت النسخة الشرهة لمولى القرن التاسع عشر، ديمقراطية. والعملية تغذى نفسها: حيث إن التجارة تقلل من جمال، الأرض ووفرتها وتعقدها، والمقارنة بين الطبيعة والبازار هى فى الجانب الأخير أكثر من أى وقت مضى. وربما انتهى الأمر بالحياة البرية للأرض والتنوع الثقافى البشرى، إلى الانحدار ليكونا موادًا وسيطة للاقتصاد العالمى، ويجب أن نبدأ فى ملاحظة هذا قبل أن يتجاوز هذا الانحدار الحد، ويصبح من الصعب تقبله.

قد تبدو النزعة الاستهلاكية، من جانب المشترى، طائشة، لكن يستهدف البائعون الأنا أو العقل اللاواعى عند المشترى، بوضع السلع، غالبًا بذكاء، فى معادلات رمزية: الخمر والجنس، التبغ والرجولة، السيارات والحرية، مستحضرات التجميل والجاذبية، المشروبات الغازية والسعادة، المستحضرات الصيدلانية والصحة، الهواتف الخلوية والروابط الأسرية. تنشر مجلة مزدوجة الصفحات صور السيارات الرياضية الرائعة وهى تطفو فوق صخر هضبة حمراء لإغرائك أنت وأولادك. وللأسف، فإن الكعك المدهون لا يسد الجوع. ونحن لا نستطيع التخلص من هذا الوضع، ولن يسمح لنا السوق بذلك. ويستلزم وقف الاستهلاك النهائى للأرض، لا شىء أقل من تغيير تاريخى وانتقالى للاقتصاد السياسى، يتم الدعوة إليه.

وإذًا لنقل، إن أمريكا بالتدبير، والتعاون، والتحول السلمى، وجهت طريقة حياتها نحو الحفاظ على سلامة، المجتمع الحيوى واستقراره وجماله ـ وحتى إذا خفض كل واحد منا من استهلاكه للحد الأدنى ـ سيظل هناك تغيير كبير ضرورى. نصيب الفرد من الاستهلاك هو عبارة عن نسبة. وعند النظر فى هذه

النسب، يكون بالطبع، من المهم أن نضع الفوارق الطبقية فى الحسبان. فالذين يستهلكون محصول الحبوب فى شكل لحوم، ولبن، وبيرة، والذين يشتركون فى صحيفة يومية، والذين لديهم منازل ثانية، وسيارة ثالثة، ويسافرون بالطائرة النفاثة، هؤلاء يلتهمون النصيب الأكبر من موارد كوكب الأرض أكثر من الأشخاص النباتيين الذين يقرؤون الأخبار فى المكتبة العامة، ويسافرون مشيًا على الأقدام، أو بالدراجات وليس بالسيارات التى تعمل بالإيثانول. ومع ذلك، إذا استمر الجنس البشرى فى الازدهار، فعند نقطة ليست ببعيدة، ستسقط حتى أنماط الحياة الأكثر شحًا. ولذلك، فإن واحدة من أوضح الطرق (إن لم تكن الأسهل) لكبح جماح النزعة الاستهلاكية، هى الامتناع عن جلب المزيد من المستهلكين إلى الوجود.

ويلاحظ إدوارد أو. ويلسون Edward O. Wilson فى كتابه تنوع الحياة The Diversity of Life أن: "الإنسانية غير طبيعية بيئيا. ونوعنا يستولى على ما بين٢٠٪ إلى ٤٠٪ من الطاقة الشمسية المحتفظ بها فى المادة العضوية عن طريق النباتات البرية. وليس هناك طريقة يمكن بها الأخذ من موارد الكوكب إلى درجة معينة، بدون الحد بشكل كبير من وضع معظم الأنواع الأخرى"(٥).

وعلى الرغم من التلوث الكبير، والانقراض، والحرمان الذى صنعناه، فإن الإنسان العاقل Homo Sapiens قد يستمر. لكن هل يستمر البشر؟

العلاج لاغترابنا الضارى، وتدميرنا، لبقية المجتمع الحيوى، هو إعادة الاستيطان. وكوننا كائنات حية، ربما نعيد تأسيس بشريتنا مع بيئاتنا المتنوعة، الأماكن التى نحيا فيها. نحن بحاجة، باستخدام ذكائنا ورغباتنا وقدراتنا على الاختراع، إلى تطوير التكنولوجيات، والاقتصاد، والثقافات التى من شأنها أن تسمح لنا بأن نستقر فى نظامنا البيئى إلى الأبد. ويمكن بالتأكيد أن نتعلم الكثير عن الأماكن التى نحيا فيها لمعرفة ما هى أنواع المجتمعات البشرية التى سندعمها وأحجامها، دون التقليل من التوقعات المستقبلية لجميع علاقتنا ـ مع ذوى الفراء والريش والزعانف والمخالب والفطريات.

وبتحملنا مسئولية الإنجاب إلى جانب حقوقنا، ومع تضاؤل السكان البشرى ليصبح مجرد نسب، وباحترامنا وحفاظنا على ما تبقى من الطبيعة الحرة ومن البرارى، ومع بدئنا فى استعادة الأراضى المتضررة، فإننا قد نستعيد إحساسنا بروعة الحياة الأخرى، حياة الطبيعة، وحياة الكائنات الأخرى غير الإنسان. لقد حان الوقت للتخلى عن مركز الترفيه المنزلى، وكسر نشوة المستهلك، كما حان الوقت لنشمر عن سواعدنا ونعرف المزيد عن حياة النباتات.

نحن لم نصنع أنفسنا؛ لقد صنعتنا المعلومات الضرورية والخاطفة، التى نقلتها لنا القصص التى كانت تروى مرة تلو الأخرى حول نار مخيمات فرق الجوالة. شارك الإنسان التطور مع الغابات والسافانا، مع الأنهار التى تعج بالأسماك، والسماء المليئة بالطيور؛ لقد جئنا إلى حيز الوجود فى شراكة مع قطعان هادرة ذات حوافر، والتهديد الكلى لحيوانات مفترسة لا ترحم.

الانقراض مستمر للأبد، لكن أينما توجد أشكال للحياة، يوجد الأمل. وقد يبقى تنوع بيولوجى لإعادة الحياة للطبيعية. ويمكن حتى إنقاذ الحياة البرية التى بداخلنا من الانقراض الذى تهددنا به بطاقات الائتمان، والعربات الكبيرة، ورحلات الذهاب إلى مراكز التسوق. ويمكن من خلال العمل على استعادة أماكننا فى الحياة، بدءًا من التربة فما فوق، أن نجدد عضويتنا فى المجتمع الحيوى.

الحياة الجيدة، هى حق بالميلاد. إنها تدور حول الكينونة والعمل، وليس حول الامتلاك. قال صديق يضخ ماءه من بئر محفورة يدويًا "كل كوب من الماء هو صلاة". وكل زيارة إلى بركة السباحة هى حج، وتعميد فى مياه الحياة. وطبيعة الحياة كافية.



الهوامش والملاحظات

مقدمة

١ ـ ثورستين فيبلين. نظرية الطبقة المرفهة (١٨٩٩، وطبعة ثانية، نيويورك، كتب بنجوين، ١٩٦٧).

٢ ـ الخطاب الذى ألقته هيلرى رودهام كلينتون فى الاجتماع السنوى للمنتدى الاقتصادى العالمى، دافوس، سويسرا، ٢ فبراير ١٩٩٨.

(Internet: http://docs.whitehouse.gov/WH/EOP/First-lady/html/generalspeeches/1988/1998020.html, October 31, 1998).

٣ ـ جون جالسورث. رجل الملكية (لندن: هاينمانن، ١٩١١)، ص ٤١.

٤ ـ يانيس جابريل وتيم لانج. المستهلك الذى لا يمكن السيطرة عليه: الاستهلاك المعاصر وتجزئته (نيوبرى بارك، كاليف.: مطبوعات سايج، ١٩٩٥)؛ جاكسون ليرز، أساطير عن الوفرة: تاريخ ثقافى للإعلان فى أمريكا (نيويورك: كتب أساسية،١٩٩٥).

٥ ـ روبرت هايلبرونر. رؤى المستقبل: الماضى البعيد، أمس، اليوم، وغدا (وأكسفورد، بريطانيا: مطبعة جامعة آكسفورد، ١٩٩٥)، ص ٥٤.

عالم واحد من المستهلكين

١ ـ هيرمان إى. دالى، وجون ب. كوب الابن. من أجل الصالح العام: إعادة توجيه الاقتصاد نحو المجتمع، والبيئة، ومستقبل مستدام (بوسطن: مطابع بيكون، ١٩٩٤).

ماذا حدث فى المجتمع الاستهلاكى؟

الإنفاق التنافسى والنزعة الاستهلاكية الجديدة

١ ـ ثورشتين فيبلين. نظرية الطبقة المرفهة (١٨٩٩؛ طبعة ثانية، نيويورك، كتب بنجوين، ١٩٦٧).

٢ ـ بيير بورديو. التمييز: نقد اجتماعى للحكم على الذوق (كامبريدج، ماس.: مطبعة جامعة هارفارد،١٩٨٤) ص ١ ـ٢.

٣ ـ المرجع نفسه.
٤ ـ دبليو لويد وارنر. مارتشيا ميكر، وكينيث إليس، الطبقة الاجتماعية فى أمريكا: كتيب إجرائى لقياس المركز الاجتماعى (نيويورك: هلربر، ١٩٦٠).
٥ ـ دوجلاس هولت. "هل الطبقة الاجتماعية تشكل الاستهلاك؟" مجلة بحوث المستهلك ٢٥ (يونيو ١٩٩٨).
٦ ـ جيمس ديسنبير. الدخل، والمدخرات، ونظرية سلوك المستهلك، (كامبريدج، ماس.: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٤٩)؛ روبرت إتش. فرانك. الاختيار الصحيح: السلوك الإنسانى والسعى إلى الوضع الاجتماعى، (نيويورك: مطبعة جامعة أكسفورد، ١٩٨٥)؛ روبرت إتش. فرانك. "الطلب على السلع غير المطلوبة وسلع أخرى غير ترفيهية، "مجلة للاقتصاد الأمريكى ٧٥، رقم ١ (١٩٨٥): ١٠١ ـ ١١٦.
٧ ـ فيبلين. نظرية الطبقة المرفهة.
٨ ـ جوليت بى. شور. "هل يواكب الأمريكيون الجيران؟" تأثير طموحات الاستهلاك على المدخرات" (بحث غير منشور، جامعة تيلبرج، تيلبرج، شمال برابانت، هولاندا، ١٩٩٧). انظر أيضًا جوليت بى. شور، الأمريكى المتجاوز النفقات: رفع المستوى والتحول للأدنى، والمستهلك الجديد (نيويورك: كتب أساسية، ١٩٩٨).
٩ ـ سوزان فورنيه ومايكل جيرى. نظرة إلى عالم أحلام الاستهلاك، أوهام وتطلعات، تقرير بحث، جامعة فلوريدا(ديسمبر ١٩٩١)، ص ١٥.
١٠ ـ توماس سى. أوجوين و إل. جيه. شرم. "دور التليفزيون فى تشكيل واقع المستهلك،" مجلة بحوث المستهلك ٢٣، رقم ٤ (١٩٩٧) : ٢٧٨ ـ ٢٩٤. اقتباس من ص٢٧٩.
١١ ـ إل. جيه. شرم وآخرون. "عمليات وآثار فى بناء المعتقدات المعيارية للمستهلك." مجلة بحوث المستهلك ١٨ (١٩٩١): ٧٥٥ ـ ٧٦٣.
١٢ ـ جوليت بى. شور. "هل يواكب الأمريكيون الجيران؟ جدول٢,٤ وص٧٧ ـ ٨٣.
١٣ ـ صندوق ميرك للأسرة، "الاشتياق لتحقيق التوازن" استطلاع، فبراير ١٩٩٥، لمعلومات قدمت للمؤلف.
١٤ ـ فورنييه وجيرى. "نظرة داخل العالم"، ص ١٦ ـ ١٧.
١٥ ـ جوليت بى. شور. "هل يواكب الأمريكيون الجيران؟،" ص ١٦ ـ ١٧ وجدول ١,٣ وجدول ١,٤.
١٦ ـ المرجع السابق، ص١٥، جدول ١,٢.
١٧ ـ جيمس بروك. "من يتحدى مياه أسماك البيرانا؟ السيدة آفون الخاصة بك! نيويورك تايمز، ٧يوليو، ١٩٩٥، ص أ٤.

قراءات أخرى

- بيردن، وليام أو. ومايكل جيه. إيتزل."تأثير الجماعة المرجعية والمنتج وقرارات شراء العلامة التجارية." مجلة بحوث المستهلك ٩ (١٩٨٢) : ١٨٣ ـ ١٩٤.
- ريلك، راسل. "الممتلكات والذات الممتدة." مجلة بحوث المستهلك١٥ (سبتمبر ١٩٨٨): ١٣٩ ـ ١٦٨.
- براون، كلير. مستوى المعيشة. كامبريدج، ماس.: بلاكويل، ١٩٩٠.

ـ تشاو، أنجيلا، وجوليت بى. شور. "اختبارات تجريبية لحالة الاستهلاك: دليل من مستحضرات تجميل النساء." مجلة علم النفس الاقتصادى١٩، رقم ١ (١٩٨٨): ١٠١ ـ ١٣١.

ـ تشابن، إف. ستيوارت. "قياس الوضع الاجتماعى" فصل ١٩ فى المؤسسات الأمريكية المعاصرة: تحليل سوسيولوجى (علم الاجتماع)، ص ٣٧٣ ـ ٢٩٧. نيويورك: هابر وإخوته، ١٩٣٥.

ـ تشيلدرز، تيرى إل. وأكشاى أر. راو. "تأثير الجماعات المرجعية العائلية والقائمة على أساس النظير على قرارات المستهلكين". مجلة بحوث المستهلك ١٩رقم ٢ (١٩٩٢): ١٩٨ ـ ٢١١.

ـ كلارك، أندرو إى. وأندرو جيه. أوسوالد. "التعاسة والبطالة". المجلة الاقتصادية ١٠٤ (مايو ١٩٩٤): ٦٤٨ ـ ٦٥٩.

ـ كونجليتون، روجر. "البحث عن حالة الكفاءة وتطور لعبة الوضع الاجتماعى." مجلة السلوك الاقتصادى والتنظيم ١١(١٩٨٩): ١٧٥ ـ ١٩٠.

ـ ديتون، انجس. فهم الاستهلاك. وآكسفورد، بريطانيا: مطبعة كلاريندون، ١٩٩٢.

ـ دينير، إى دى، وآخرون. "العلاقة بين الدخل والرفاهية الذاتية: نسبية أو مطلقة؟" بحوث المؤشرات الاجتماعية ٢٨ (١٩٩٣): ١٩٥ ـ ٢٢٣.

ـ إيسترلين، ريتشارد إيه. "هل المال يشترى السعادة؟" المصلحة العامة ٣٠ (شتاء١٩٧٣) : ٣ ـ ١٠.

ـ "هل زيادة دخول الجميع تزيد سعادة الجميع؟" مجلة السلوك الاقتصادى والتنظيم ٢٧ (١٩٩٥): ٣٥ ـ ٤٧.

ـ فستنجير، ليون. "نظرية عمليات المقارنة الاجتماعية" العلاقات الانسانية٧، قم ٢ (١٩٥٤): ١١٧ ـ ١٤٠.

ـ جودبى، جيوف، وجون روبنسون. وقت للحياة" يونيفرسيتى بارك: مطبعة جامعة ولاية بنسلفانيا، ١٩٩٧.

ـ هال، ديفيد. داخل الثقافة: الفن والطبقة فى البيت الأمريكى. شيكاغو :مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٣.

ـ هيرش، فريد. الحدود الاجتماعية فى النمو. كامبريدج، ماس.: مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٧٦.

ـ هولمان، ريبيكا. "استخدام المنتج كوسيلة اتصال: تقييم جديد لموضوع جليل." فى مراجعة للتسويق، إعداد بى. إم. إنيس و :ك. جيه. رورينج، ص ١٠٦ ـ ١١٩. شيكاغو: مؤسسة التسويق الأمريكية، ١٩٨١.

ـ إنجلهارت، رونالد، جاك-رينيه رابيه. "تطلعات التكيف مع الأوضاع ـ لكن لماذا البلجيكيون أكثر سعادة من الفرنسيين؟" فى بحث عن نوعية الحياة، إعداد فرانك إم. أندروز، ص ١ ـ ٥٦ آن أربور: جامعة متشيجان، معهد البحوث الاجتماعية، مركز البحوث المسحية، ١٩٨٦.

ـ جيمس، جيفرى. الاستهلاك والتنمية. لندن، ماكملان، ١٩٩٣.

ـ "السلع الموضعية والاستهلاك الواضح وإعادة النظر فى تأثير البرهان الدولى." تنمية العالم١٥، رقم ٤ (١٩٨٧): ٤٤٩ ـ ٤٦٢.

ـ لين، روبرت. خبرة السوق. كامبريدج، بريطانيا: مطبعة جامعة كامبريدج، ١٩٩١.

- "الطريق الذى لم يتعد: الصداقة والنزعة الاستهلاكية والسعادة." استعراض نقدى ٨، رقم ٤ (١٩٩٤): ٥٢١ ـ ٥٥٤.
- ليتش، ويليام. أرض الرغبة: التجار، والسلطة، وبزوغ ثقافة أمريكية جديدة. نيويورك: كتب بانثيون، ١٩٩٣.
- ليرز، تى. جيه. جاكسون. "من الخلاص إلى التحقيق: الإعلان والجذور العلاجية لثقافة المستهلك." فى ثقافة المستهلك، إعداد ريتشارد وايتمان و تى.جيه. جاكسون ليرز، ١ ـ ٢٨. نيويورك، كتب بانثيون، ١٩٨٣.
- ليبرجوت، ستانلى. "السعى وراء السعادة: المستهلك الأمريكى فى القرن العشرين: برينستون، نيو جيرسى: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٣.
- ماكادامز، ريتشارد إتش. صفحات ١ ـ ١٠٤ فى "أفضليات نسبية" مجلة يال القانونية. نيو هافن، كونن.: شركة مجلة يال القانونية، ١٩٩٢.
- ماككانيل، دين. السائح: نظرية جديدة للطبقة المرفهة. نيويورك، كتب تشوكين، ١٩٨٩.
- ماككراكين، جرانت. الثقافة والاستهلاك: مناهج جديدة للطابع الرمزى للسلع الاستهلاكية والأنشطة. بلومينجتون: مطبعة جامعة أينديانا، ١٩٩٠.
- نيومارك، ديفيد وأندرو بوستلويت. "هموم الدخل النسبى والارتفاع فى توظيف النساء المتزوجات"، ورقة عمل NBER رقم ٥٠٤٤. كامبريدج، ماس.: المكتب القومى للبحوث الاقتصادية، ١٩٩٥.
ارك سى. وان، وفى. باركر ليسينج. "الطلاب وربات البيوت: الاختلافات فى الحساسية لتأثيرات المجموعة المرجعية". مجلة بحوث المستهلك ٤ (١٩٧٧): ١٠٢ ـ ١١٠.
وتشير، مايكل. "الطلب على الوضع الاجتماعى وديناميكيات سلوك المستهلك، مجلة الاقتصاد السياسى ٢٢ (١٩٩٣): ١٠٥ ـ ١١٣.
- شور، جوليت بى. "هل يمكن للشمال أن يوقف نمو الاستهلاك؟ الهروب من دائرة العمل والإنفاق." فى الشمال والجنوب والبيئة، إعداد فى. باسكار وأندرو جلين، ص ٦٨ ـ ٨٤ لندن: ارشسكان، ١٩٩٥.
- الأمريكى المتجاوز النفقات: رفع المستوى والتحول للأدنى، والمستهلك الجديد. نيويورك: كتب أساسية، ١٩٩٨.
- الأمريكى الذى يعمل فوق طاقته: والانخفاض غير المتوقع لوقت الفراغ. نيويورك، كتب أساسية، ١٩٩٢.
- فينهوفن، رت. "هل السعادة نسبية؟" بحوث المؤشرات الاجتماعية ٢٤ (١٩٩١): ١ ـ ٢٤.

روابط زائفة

١ ـ سارة يونج. مقابلة تليفزيونية مع المؤلف، يناير ١٩٩٨.
٢ ـ المرجع نفسه.

٣ ـ جوناثان كوزول. نعمة مدهشة: حياة الأطفال وضمير أمة، (نيويورك: هابر برينيال، ١٩٩٦).
٤ ـ جوشوا بينين. "مبيعات سيئة،" فوربس ١٥٩، رقم (٢١ إبريل،١٩٩٧): ١٤٢.
٥ ـ سارة يونج. مقابلة هاتفية مع المؤلف، يناير ١٩٩٨.

الاستهلاك والأمريكيون من أصل آسيوى

١ ـ واليس ستيجنر. "حيث يغنى العصفور الأزرق لينابيع عصير الليمون: العيش والكتابة فى الغرب، (نيويورك: راندم هاوس، ١٩٩٢)، ص ١٠.
٢ ـ ساتيا سرينيفاس. "ميكروسوفت تستحوذ على هوتميل"، التيارات الهندية، (فبراير ١٩٩٨): ١١، رقم ١١: ١٢.
٣ ـ إحصائيات من رونالد تى. تاكاكى، غرباء من شاطئ مختلف: تاريخ آسيوى أمريكى (نيويورك: كتب بنجوين، ١٩٩٠)، ٢٩٤.

قانون حماية حقوق مستهلك الأنباء الإخبارية

١ ـ كريستين تود وايتمان، فى حديث للجمعية الأمريكية لمحررى المجلات، ٢٥ أغسطس، ١٩٩٧.

الأفلام السينمائية: ترويج لرغبة الاستهلاك

١ ـ انظر، على سبيل المثال، فانس باكارد، المقنعون المخفيون (نيويورك: ماككاى، ١٩٥٧).
٢ ـ جيرترود هيملفارب. إزالة القيم الأخلاقية للمجتمع من فضائل العصر الفيكتورى للقيم الحديثة (نيويورك: نويف، ١٩٩٥).
٣ ـ أوليف هيجينزبروتى. ستيلا دالاس. رواية (بوسطن: هوتون ميفين، ١٩٢٣).
٤ ـ توماس سى. فرانك. الغزو الهادئ: ثقافة العمل، والثقافة المضادة وارتفاع استهلاك الخصر (شيكاغو: مطبعة جامعة شيكاغو، ١٩٩٧).

البيئة: عطاؤها واستهلاكها

١ ـ إن. مايرز. "الاستهلاك: التحدى فى تحقيق التمية المستدامة"، مجلة العلوم ٢٧٦ (٤ أبريل، ١٩٧٧): ٥٣ ـ ٥٧؛ جيفرى فينسنت وثيودور بانايوتو، "... أو تشتيت؟" مجلة العلوم ٢٧٦ (٤ أبريل، ١٩٧٧): ٥٣ ـ ٥٧؛ إم. ساجوف، "هل نستهلك الكثير جدًا". اتلانتيك الشهرية (يونيو ١٩٧٧): ٨٠ ـ ٩٦.
٢ ـ ثورستين فيبلين. نظرية الطبقة المرفهة (١٨٩٩؛ طبعة ثانية، بوسطون: هوتون ميلفين، ١٩٧٣)؛ ستيورات ايون. قادة الوعى: الدعاية والجذور الاجتماعية لثقافة المستهلك (نيويورك: ماكجرو ـ هيل، ١٩٧٦)؛ وليام أر. ليتش، أرض الرغبة: التجار، والسلطة، وبزوغ ثقافة أمريكية جديدة (نيويورك: كتب بانثيون، ١٩٣٣).
٣ ـ بول هوكين. "الرأسمالية الطبيعية"، الأم جونز (أبريل ١٩٩٧): ٤٤.
٤ ـ كليفورد كوب وآخرون، "إذا كان الناتج المحلى الإجمالى مرتفعًا، لماذا تهبط أمريكا؟" أتلانتيك الشهرية (أكتوبر ١٩٩٥) : ٢ ـ ١٥.
٥ ـ بول إل. واشتيل. فقر الوفرة: وصف نفسى لطريقة الحياة الأمريكية (نيويورك، فرى بريس، ١٩٨٣)، ص ٦٥.

٦ ـ وليام ريس وماثيس واكيرناجيل. أثر قدمنا البيئية: الحد من تأثير الإنسان على الأرض (فلاديلفيا: المجتمع الجديد، ١٩٩٥).
٧ ـ دان فاجن ومريان لافيل. الخداع السمى: كيف تتلاعب الصناعات الكيميائية بالعلوم، تلوى القانون وتهدد صحتك (سيكاكس، نيو جيرسى: مطبعة بيرش لين، ١٩٩٦).
٨ ـ ويندل بيرى. هبة الأرض الجيدة (سان فرانسيسكو: مطبعة نورث بوينت، ١٩٨١) ص٢٨١.
٩ ـ هنرى ديفيد ثورو. ثورو المحمول، كارل بوب، طبعة (نيويورك: مطبعة فايكنج، ١٩٦٤)، ص ٢٨٦: الدو ليوبولد، تقويم مقاطعة الرمال (نيويورك: بالانتين، ١٩٩٦)، ص ١٩٠.
١٠ ـ جانين بينوس. تقليد البيئة (نيويورك: مورو، ١٩٩٧)؛ جون تيلمان ليل، تصميم متجدد للتنمية المستدامة (نيويورك: ويلى، ١٩٩٤)؛ سيم فان دير رين وستيوارت كاوان، التصميم البيئى (واشنطن، ديزسى.: مطبعة إيلاند، ١٩٩٥) ديفيد وان. بيولوجى (باولدر، كولو.: كتب جونسون، ١٩٩٠).
١١ ـ فاكلاف هافل. العيش فى الحقيقة (لندن: فابر وفابر، ١٩٨٧).
١٢ ـ انظر جيه. جاكوبس. موت وحياة المدن الأمريكية الكبرى (نيويورك: فينتاج، ١٩٦١).
١٣ ـ جاكيتا هوكس. الأرض (نيويورك: راندم هاوس، ١٩٥٠)، ص ٢٠٢.
١٤ ـ إيفان دى. اليتش. الطاقة والإنصاف (نيويورك: هاربربرينيال، ١٩٧٤).
١٥ ـ مايكل جيه. كينسلى. دليل تجديد الاقتصاد: عملية تعاونية للتنمية المستدامة للمجتمع (سنوماس، كولو.: معهد روكى مونتين، ١٩٧٧).
١٦ ـ وليام أوفلس و أيه. ستيفن بويان. إعادة النظر فى علم البيئة وسياسة الأمن: انهيار الحلم الأمريكى (نيويورك: فريمان، ١٩٩٢)، ص ٢٨٨.
١٧ ـ إم. جادجيل وآخرون. "المعرفة الفطرية لحفظ التنوع البيئى"، أمبيو (مايو ١٩٩٣) : ١٥١ ـ ١٥٦.

الاستهلاك والعمل المنزلى

١ ـ موريس بريكبك. "ملاحظات رحلة فى أمريكا من ساحل ولاية فيرجينيا إلى أراضى ولاية إيلينوى،" ٤٣ (بيكاديلى: ريدجواى،١٨١٨)، ٤٣٣ ـ ١ ـ MSA SC١٣٩٩ مجموعات خاصة، أرشيف ولاية ماريلاند، أنابوبيس، إم دى.
٢ ـ كاثرين استير بيتشر. "مقال عن الاقتصاد المحلى، لاستخدام السيدات الشابات فى المنزل والمدرسة (بوسطن: مارش، كابن، ليون، وويب، ١٨٤١)، ص ٥.
٣ ـ سوزان ستراسيه، نيفر دون. تاريخ الأعمال المنزلية الأمريكية، (نيويورك: كتب بانثيون، ١٩٨٢)، ص ٣٦.
٤ ـ المرجع نفسه، ص ٥٧.
٥ ـ هارييت بيتشر ستو. كوخ العم توم (نيويورك: هاربر ورو، ١٩٦٥)، ص ١٦٠.
٦ ـ المرجع نفسه، ص ١٥٨.
٧ ـ المرجع نفسه، ص ١٦١.
٨ ـ المرجع نفسه
٩ ـ تشارلز ديكينز. مذكرات أمريكية (نيويورك: راندم هوس، ١٩٩٦)، ص ١٨٤.

التوازن

١ ـ السادير ماكلنتير. لمحة تاريخية موجزة عن الأخلاق (نيويورك ماكميلان. ١٩٩٦)، ص ١٨٣.

٢ ـ ديفيد أر. لوى. "دين السوق"، مجلة الاكاديمية الأمريكية للدين٦٥ (٢): ٢٧٨.

٣ ـ أندرو كارنيج. إنجيل الثروة (كامبريدح، ماس.: كتب ابلوود، ١٨٨٩).

٤ ـ آدم سميث. تحقيق فى طبيعة وأسباب ثروة الأمم (نيويورك: ريجنيرى، ١٩٩٨)، ص ١٤.

٥ ـ أليكسى دى توكفى. الديمقراطية فى أمريكا (لندن: مطبعة جامعة آوكسفورد، ١٩٤٧)، ٢٣٤ ، ٢١٢، ٢١١، ٢١٤)؛ انظر جون سى. هوى، إس. جيه.. الاستخدام المقدس للمال: التمويل الشخصى فى ضوء الإيمان المسيحى (جاردن سيتى، نيويورك: دوبلداى، ١٩٨٦)، ص ٩٨.

٦ ـ مقتبس من تيموثى جورينج، رأس المال والمملكة: الأخلاق الدينية والنظام الاقتصادى (مارينول، نيويورك: كتب أوربيس، ١٩٩٤)، ص ٢٩.

٧ ـ البابا يوحنا بولس الثانى. Centesimus annus ١مايو، ١٩٩١، فقرة ١٩.

٨ ـ المرجع نفسه، فقرة ٣٩.

٩ ـ جون سى. هوى، إس.جيه.. الاستخدام المقدس للمال، ص ١٤٢.

١٠ ـ المرجع نفسه، ص ١٤٥.

١١ ـ هيرمان إى. دالى وجون بى. كوب الأبن. من أجل الصالح العام: إعادة توجيه الاقتصاد نحو المجتمع، والبيئة ومستقبل مستدام (بوسطن:مطبعة بيكون، ١٩٩٤)، ص ١٨٧.

١٢ ـ جون سى. هوى، إس. جيه.، الفضيلة والوفرة: تحدى الثروة مدينة كانساس، مو.: شيد ووارد،١٩٩٧)، ص ١٩.

لا أستطيع أن أتخلص من التفكير في أزمة الانقراض هذه

١ ـ ألدو ليوبولد. تقويم مقاطعة الرمل، مع مقالات أخرى عن محميات روند ريفر (نيويورك: كتب بالانتين، ١٩٧٠)، ص ٢٦٢.

٢ ـ المرجع نفسه، ص ٢٦١.

٣ ـ بيتر إم. فيتوسك. وهارولد إيه. مونى، وجين لابتشينكو، وجيرى ميليللو، الهيمنة الإنسانية على النظم البيئية الأرضية" مجلة العلوم ٢٧٧ (٢٥يوليو،١٩٩٧) : ٤٩٤.

٤ ـ بيتر ماثيسن. الحياة البرية فى أمريكا (نيويورك: مطبعة فايكينج، ١٩٥٩، حدثت فى ١٩٨٧ بواسطة فاكينج بجوين)، ص٨١.

٥ ـ إدوارد أو. ويلسون. تنوع الحياة (كامبريدج، ماس.: مطبعة بلكناب التابعة لمطبعة جامعة هارفارد١٩٩٢)، ص ٢٧٢.

المؤلفون فى سطور

وليم جريدر هو مؤلف كتاب عالم واحد، مستعد أم لا: المنطق الجنونى للرأسمالية العالمية (سايمون و شاستر،١٩٧٧)؛ وكتاب من سيخبر الناس: خيانة الديمقراطية الأمريكية (سايمون وشاستر، ١٩٩٢)؛ وكتب أخرى. وهو يكتب بانتظام فى مجلة رولينج ستون عن الشئون الوطنية.

مولى هاسكل درست الكتابة والسينما فى كلية بارنارد، وجامعة كولومبيا. ومن بين كتبها: من التبجيل إلى الاغتصاب: معاملة النساء فى الأفلام (هولت، رينهارت وينستون، ١٩٧٣، نُقحت وحُدثت فى طبعة جامعة شيكاغو للصحافة عام ١٩٨٩)؛ الحب وأمراض معدية أخرى: مذكرات (مطبعة القلعة،١٩٩٢)؛ الاحتفاظ بوضعى فى أرض المجهول: النساء والرجال والأفلام والحركة النسائية (مطبعة جامعة وأكسفورد، ١٩٩٧).

أليكس كوتلويتز هو مؤلف الجانب الآخر من النهر: قصة بلدتين، الموت، والمعضلة الأمريكية (نان إيه. تاليسى/دوبلداى،١٩٩٨)؛ لا يوجد أطفال هنا: قصة فتيان نشآ فى أمريكا الأخرى (نان إيه. تاليسى/دوبلداى، ١٩٩١). وكثيرًا ما يكتب ويتحدث عن القضايا المتعلقة بالعرق والفقر. وهو كاتب سابق فى صحيفة وول ستريت جورنال، كما ساهم أيضًا فى صحيفة نيويورك تايمز وأخبار الساعة ماك نيل/ليهرر، والإذاعة الوطنية العامة.

سوزان براون ليفين هى رئيسة تحرير سابقة لمجلة كولومبيا الصحفية، وكانت محررة فى مجلة المرأة (١٩٧٢ ـ ١٩٨٩). وكانت زميلة للأعوام (١٩٧٧ ـ ١٩٧٨)

فى مركز منتدى دراسات الحرية ووسائل الإعلام، وهى حاليًا تؤلف كتابًا عن الأبوة.

إدوارد لوتواك هو زميل بارز فى مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية. قدم استشارات لمكتب وزير الدفاع، ومجلس الأمن القومى، ووزارة الخارجية الأمريكية، ومن بين مؤلفاته الحلم الأمريكى المهدد بالخطر (سايمون وشوستر،١٩٩٣) والانقلاب (مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٨٥).

بيل ماككيبن ومن بين مؤلفاته كتاب ربما واحد: جدال شخصى وبيئى حول الأسر وحيدة الطفل (سايمون وشوستر، ١٩٩٨) الأمل، الإنسان والبرية (ليتيل، براون، ١٩٩٥) ونهاية الطبيعة (راندوم هاوس، ١٩٨٩). ولقد كتب لمجلات نيويوركر، الخارج، ورولينج ستون، من بين مطبوعات آخرى كثيرة.

مارتن إى. مارتى هو مدير مشروع الدين العام بجامعة شيكاغو. ومن ضمن كتبه الكثيرة كتاب: الواحد والكثيرون: النضال الأمريكى من آجل الصالح العام (مطبعة جامعة هارفارد، ١٩٩٧)، وكتاب الإمبراطورية الصالحة: التجربة البروتستانتية فى الولايات المتحدة (دايل، ١٩٩٧) والحائز على جائزة الكتاب القومى.

ستيفانى ميلز هى مؤلفة كتاب: ماذا حدث لعلم البيئة؟ (كتب نادى سييرا، ١٩٨٩)؛ وفى خدمة البرية: استعادة الأرض التالفة وإعادة تأهيلها (مطبعة بيكون، ١٩٩٥) وقد ظهرت مقالتها فى مجلات سييرا، وأوتن القارئ، والبريق، والكتاب السنوى لدائرة المعارف البريطانية لعام ١٩٩٨ ضمن مطبوعات أخرى كثيرة. وهى تكتب حاليًا البساطة الحسية، وهو كتاب سينشر من قبل مطبعة أيلاند.

بهاراتى موخريجى هى أستاذ اللغة الإنجليزية فى جامعة كاليفورنيا، بيركلى. وتشمل أعمالها من الروايات اتركه لى (نوبف،١٩٩٧)؛ وياسمين (جروف، ١٩٨٩)؛ والوسيط وقصصًا أخرى (جروف، ١٩٨٨).

ديفيد أور هو أستاذ ورئيس قسم الدراسات البيئية فى كلية أوبرلين. هو مؤلف الأرض فى البال: فى التعليم والبيئة والمنظور الإنسانى (مطبعة ايلاند،

١٩٩٤)؛ والثقافة البيئية: التعليم والانتقال لعالم ما بعد الحداثة (مطبعة جامعة ولاية نيويورك، ١٩٩٢)، فضلا عن الكثير من المقالات المنشورة.

روجر روزنبلات هو كاتب مقالات لبرنامج وقت وساعة الأخبار مع جيم ليرر على قناة الـ PBS التليفزيونية. ومن بين مؤلفاته أطفال الحرب (مطبعة انكور/دوبلداى، ١٩٨٣)؛ التمزق: مذكرات حرب هارفارد فى عام ١٩٦٩(ليتل، براون، ١٩٩٧).

أندرية شيفرين هو مدير المطبعة الجديدة ورئيس تحريرها ولقد كتب مراجعة الكتب نيويورك تايمز، والأمة والجمهورية الجديدة، فضلا عن المجلات الأكاديمية والمجلات فى بريطانيا العظمى، وإسبانيا، والنرويج.

جوليت شور هى مدير الدراسات وكبير المحاضرين فى الدراسات النسائية بجامعة هارفارد. ومن بين مؤلفاتها الأمريكى المتجاوز النفقات: رفع المستوى والتحول للأدنى، والمستهلك الجديد (كتب أساسية، ١٩٩٨) والأمريكى المثقل بالعمل: الانهيار غير المتوقع للترف (كتب أساسية، ١٩٩٢).

جين سمايلى هى مؤلفة حائزة على جائزة بوليتزر عن كتاب ألف فدان (نوبف، ١٩٩١وأعمالها الروائية تشمل الرحلات والمغامرات الحقيقية لليدى نيوتن (نوبف، ١٩٩٨)؛ خوار (راندم هاوس، ١٩٩٥). وهى زميل الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم.

المترجمة فى سطور:

ليلى عبدالرازق

أستاذ اللغة الإنجليزية والترجمة الفورية بجامعة الأزهر وحاليًا عميدة مركز اللغات بالجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات، وهى عضو لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة وصاحبة أحد عشر مؤلفا فى اللغة الإنجليزية والترجمة، ورئيسة مجموعة المترجمين لقاموس أطلس الموسوعى (إنجليزى عربى) قامت بالترجمة إلى الإنجليزية لكتابى "شخصية مصر" و "العالم الإسلامى المعاصر" للدكتور جمال حمدان، وكتاب "بريطانيا والوحدة العربية من ١٩٤٨ ـ ١٩١٤" للدكتور يونان لبيب رزق، وكتاب "شرح قانون التحكيم الدولى" للدكتور أحمد شتا، وقصة "قصر الأفراح" للأديب عبد السلام العمرى وحاصلة على شهادة تقدير من الأمم المتحدة لمساهمتها القيمة والدور الذى تقوم به لنهضة المرأة المصرية ولنشاطها الفعال فى العمل الوطنى والشعبى.

التصحيح اللغوى : علا طعمة

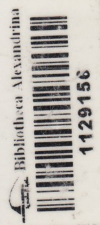
الإشراف الفنى : حسن كامل

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب





المقالات فى هذا الكتاب، متدرجة ومعقدة، وتقوم على فكرتين تعتبران رئيسيتين بالنسبة لجميع المقالات. تقوم الفكرتان على الأشكال الغربية للديمقراطية وعلى الرأسمالية الغربية ولكليهما علاقة بعلم النفس الغربى. وتتعلق الفكرة الأولى برغبة الاستهلاك: أن الناس فى حالة دائمة، وغالبا مأساوية، من الحنين، من لحظة الانفصال عن الأم، وهو الذى يجعل أفقر الأمريكيين، الذين ليست لديهم مدخرات، ودخولهم صغيرة، يقترضون حتى الموت. وهذا الحنين، أو الرغبة تدفع للاستهلاك. وهناك طريقة واحدة للبدء فى فهم هذا الدافع الواسع، والممتع، والمؤلم، وأخيرا المدمر، وهو أن نفهم ببساطة أن لدينا رغبة، وتأتى كلمة الرغبة بشكل منتظم فى هذه المقالات. والفكرة الثانية التى تقوم عليها هذه المقالات، هى المفهوم الغربى للذات، خاصة الذات المنعزلة، والذات القلقة.



تصميم الغلاف: حسين جبيل